بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة مؤته

أبو العباس القلقشندي أديباً

الطالب

أحمد عبد الرحمن الذنيبات

المشرف

الأستاذ الدكتور سمير الدروبي

٢٠٠١م

أبو العباس القلقشندي أديباً

الطالب

أحمد عبد الرحمن الذنيبات

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في

جامعة مؤته، تخصص لغة عربية وآدابها

" This thesis has been submitted in partial fulfillment requirements for the degree of Master of Arts of Arabic Language. at Mu'tah University ".

لجنة المناقشة

الاستاذ الدكتور سمير الدروبي .... (رئيساً)

الأستاذ الدكتور جهاد المجالي .... (عضواً)

الدكتور شفيق الرقب .... (عضواً)

تاريخ المناقشة ٦ / ٨ / ٢٠٠١

الملخص

أبو العباس القلقشندي أديبا

(٧٥٦ - ٨٢١ هـ / ١٣٥٣ - ١٤١٨ م)

يعد القلقشندي أحد كبار الأدباء في عصره ، نشأ في طلب العلم ورافق العلماء فنال عدداً من الإجازات في الفتيا والتدريس والرواية ، وقد عمل كاتباً في ديوان الإنشاء المملوكي عما يزيد على ربع قرن ، وله عدد من المؤلفات كان أهمها كتاب " صبح الأعشى في صناعة الانشا " ، جعله مرجعاً الكتّاب من بعده فضمنه كل ما يحتاجه الكاتب ، ويظهر تأثره بعدد من الكتاب الذين سبقوه : كالقاضي الفاضل وصلاح الدين الصفدي ، وشهاب الدين الحلبي وعبد الحميد الكاتب وعلي بن خلف الكاتب .

أما كتابات القلقشندي الإبداعية فقد شملت جوانب من الحياة السياسية والإجتماعية والثقافية ، ويمكن تصنيفها تحت الأنواع التالية :

١. الرسائل الديوانية

٢. الرسائل الإخوانية

٣. الرسائل العلمية

٤. المقامات

ا من الناحية الفنية فقد اتسم انتاجه الأدبي بعدة سمات أهمها :

- تأثره بالقرآن الكريم والحديث الشريف ، من خلال الإقتباس والتضمين ، كما تأثر بالموروث الأدبي : كالشعر والأمثال ، واستلهم الموروث التاريخي للأمة الأسلامية ، كتوظيف الأحداث التاريخية وأسماء الأعلام .
- ويظهر استخدامه للفنون البديعية كالسجع والجناس والطباق والتورية والعكس.
- وكذلك جاءت مفرداته سهلة الفهم بعيدة عن الغريب وهي متوافقة مع معانيه تأتي جزلة وقوية في البيعات والعهود ، رقيقة في الرسائل الإخوانية وكذلك هي مسجّعة في كتاباتة الإبداعية ، مطلقة في الكتابات التاريخية والنقدية .
- أما الخيال فهو قريب ، والصورة الفنية بسيطة يعتمد فيها على الموروث الديني والأدبي .

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	١
التمهيد	٤
الحياة الاجتماعية	٥
الحياة العلمية	٩
الحياة السياسية	١٣
الفصل الأول	١٧
اسمه	١٨
كنيته	٢٤
ألقابه ونعوته	٢٦
مولده ونشأته	٣٧

ثقافته	٣٩
آثاره	٤٩
إجازاته	٦٠
شيوخه	٦٤
جلوسه للتدريس	٦٨
من نبغ من ابنائه	٧٢
وفاته	٧٤
الفصل الثاني	**٧٦**
الدراسة المضمونية لنثر أبي العباس القلقشندي	٧٧
الرسائل الديوانية	٧٨
البيعات	٧٩
العهود	٩٨
الأخبار	١١٣

التقاليد	١١٧
التواقيع	١٢٧
التصادير	١٤١
الاطلاقات	١٤٦
التفاويض	١٥١
المربعات الجيشية	١٥٦
الإجابة على الكتب السلطانية	١٥٩
الرسائل الإخوانية	١٦٥
المدح	١٦٨
خطب الصدقات	١٧٢
الأدعية	١٧٥
التهنئة	١٨٩
الاستماحات	١٩٦

رسائل المفاخرات والمناظرات	٢٠٢
الإجازات	٢١٤
تقريض القصائد	٢١٩
اسجالات العدالة	٢٢٣
المقامات	٢٢٧
الفصل الثالث	**٢٤٨**
الدراسة الفنية لأبي العباس القلقشندي	٢٤٩
التناص	٢٤٩
التناص الديني	٢٥٣
القرآن الكريم	٢٥٣
الاستشهاد	٢٥٣
الاقتباس أو التضمين	٢٥٦
التلميح	٢٥٨

التناص مع الحديث النبوي الشريف	٢٦٦
التناص الأدبي	٢٧٠
التناص الشعري	٢٧٠
الاستشهاد	٢٧٠
التضمين	٢٧٣
حل المنظوم	٢٧٥
الأمثال	٢٨٠
التناص التاريخي	٢٨٦
الفنون البديعية	٢٩٠
السجع	٢٩١
الجناس	٣٠٠
الطباق	٣٠٨
التورية	٣١٣

العتبس	٣٢٠
اللغة و الأسلوب	٣٢٣
الخيال و الصورة	٣٣٣
الخاتمة	٣٣٨
المصادر والمراجع	٣٤٣

المقدمة :

يهدف هذا البحث دراسة أدب أبي العباس القلقشندي (٧٥٦ - ٨٢١ هـ) ومعرفة الموضوعات التي عالجها ، ودراسة هذا الأدب دراسة مضمونية وفنية ، والوقوف على أهم مميزات ذلك الرجل في الكتابة ، لاسيما وأنه من أهم أعلام عصره في الكتابة ، وصاحب أكبر موسوعة في النثر العربي القديم ، اشتهر الأديب من خلالها .

ويلاحظ الباحث جهل كثير من طلبة العلم بالقلقشندي ، ولعل مرد ذلك لعدم توافر دراسة متخصصة في أدبه ، على الرغم من الاهتمام الكبير الذي حظي به من مؤرخي الأدب ونقاده ، حيث إنهم ترجموا له في مؤلفاتهم عنه أو عن حياته إلا أنها جاءت مقتضبة ، ولم يطلع الباحث على بحث متخصص في أدبه سوى بعض الدراسات التي جاءت تحقيقاً لمؤلفاته ، أما الدراسات التي أخذت الجانب العلمي في دراسة حياته وآثاره فهي كتاب " القلقشندي في كتابه صبح الأعشى " لعبد اللطيف حمزة ، وآخر بعنوان " أبو العباس وكتابه صبح الأعشى " لنخبة من الأساتذة ، وهذان الكتابان لم يتتبعا إبداع القلقشندي بمقدار كونهما دراسة لما احتواه كتاب صبح الأعشى.

على أن الباحث وجد عدداً من الدراسات الحديثة حول أدب هذا العصر ، مثل كتاب عمر موسى باشا ، " تاريخ الأدب العربي ، العصر

المملوكي " وجاءت فيه دراسة لأدب القلقشندي وإن كانت مختصـــره ، إلا أنها من أطول الدراسات الأخرى التي تناولت أدبه ، وقريب من ذلك عنـــد محمود رزق سليم في كتابة : " عصر السلاطين المماليك ونتاجـــه العلمـــي والأدبي " تعرض فيه لدراسة مقامة " الكواكب الدرية في المناقب البدريـــة " ، وإن كانت كما يصفها : بأنها وجيزة وقصيرة، و أيضاً نجد في كتـــاب " الأدب في العصر المملوكي " لمحمد زغلول ســـلام ، ولعـــل أكـــثر هـــذه الدراسات عمقاً _ على ما اتسمت به من إيجاز _ ما أورده شوقي ضيـــف في كتابه : " عصر الدول والإمارات مصر والشام " فقد تطرق للناحيـــة الفنية لمقامة القلشندي المذكورة ، وقد جاءت هذه الدراسات عامة لأدب ذلك العصر ، ولم تخصص لأديب أو لجانب من الجوانب الفنية .

ويعتبر كتاب القلقشندي : " صبح الأعشـــى فـــي كتابـــة الانشـــا " المصدر الرئيس لهذا البحث لاحتوائه على جل إبداع الأديب نثره ونظمه .

ويسلك هذا البحث المنهج التكاملي ، الـــذي يقـــوم علـــى الوصـــف والتحليل والنقد ، مع الإفادة من الناهج الحديثة في دراســـة التنـــاص فـــي الجوانب الفنية في أدب القلقشندي . ويتكون البحث من ثلاثة فصول وخاتمة يسبقهما تمهيد ، يريد به الباحث إلقاء الضوء على ظروف العصر المختلفـــة ؛ السياسية والثقافية والاجتماعية التي عاشها الأديب ، وذلك لإيمان البـــاحث

بالعلاقة المتينة بين الفن والمجتمع ، وأن الأدب وليد الظروف التي تحيط بالأديب .

أما الفصل الأول فتتناول فيه الدراسة حياة القلقشندي ، اسمه ولقبه وكنيته ومولده ونشأته ، وثقافته وجلوسه للتدريس و آثاره وآراء العلماء فيه ومن نجب من أبنائه ، ووفاته .

ويختص الفصل الثاني في الدراسة المضمونية لأدب القلقشندي حيث قسم للرسائل الديوانية ؛ مثل : البيعات والعهود والأخبار والتقاليد والتواقيع وغيرها ، وكذلك الرسائل الأخوانية ، مثل : المدح والتهاني وخطب الصدقات والأدعية ، ثم الرسائل العلمية مثل : الإجازات و عراضة الكتب ، وتقريض القصائد ، ثم الحواريات والمناظرات وكذلك المقامات .

وأما الفصل الثالث ، فيقدم فيه الباحث الخصائص الفنية واللغوية لأدب القلقشندي ، وتأتي الخاتمة تحمل أهم النتائج التي توصل إليها البحث .

وثمة صعوبات واجهت الباحث كان على رأسها قلة المصادر .

التمهيد

التمهيد :

الحياة الإجتماعية :

يرى علماء الاجتماع ، أن المجتمع هو : " مجموعة من الكائنات البشرية تتميز بقدر ملحوظ من الاكتفاء الذاتي ، والقدرة على الاستمرار في البقاء لمدة أطول من حياة الفرد "[١] ويرى عمر موسى باشا : أن المرء وأفكاره تتأثر بمختلف نواحي النشاط الإنساني ، من الدين والعمل والأسرة ، والتعليم وكذلك بمختلف المناسبات ، وشتى الأمراض الاجتماعية وعللها [٢]

وقد عاش المجتمع المملوكي ، كمجتمع طبقي ، لم ينظر فيه إلى حقوق الفرد إلا من خلال انتمائه الطبقي ، وطبقات المجتمع المملوكي كانت متفاوته من حيث الدخل ، والطمأنينة والاستقرار والمراكز الإدارية والسياسية ، ويقسم البيلوني الكريتي _ الذي عاش في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي في مصر _ المجتمع المصري ، إلى ثلاث طوائف : الأولى ، الشعب المصري ؛ بمختلف فئاته الخاضعة لحكم السلطات السياسية ، ونفوذ الخليفة دينيا ، والثانية ، طائفة المماليك ؛ وهي عسكرية ، شعارها

---

(١) السيد الحسيني : مفاهيم علم الإجتماع ، دار قطري بن فجاءه ، قطر ، ط١ ١٩٨٥ ، ٤٧

(٢) عمر موسى باشا : أدب الدول المتتابعة ، دار الفكر الحديث ، ط١ ، ١٩٦٧ ص١١ .

الأطماع والدسائس والانقلابات ، ثم طائفة البدو أو الأعراب ، الذين لا يتركون فرصة تمر دون أن يخلقوا للحكومة والأهالي متاعب متنوعة [1] على أن أكثر الطبقات تأثرا بالظروف والكوارث التي تحل بالمجتمع ، هي طبقة الشعب ، وهي على وجه الخصوص ، الفلاحون في الأرياف ، فكانوا يتحملون القدر الأكبر من الضرائب والعمل بالسخرة ، وفي سني الجدب يتعرضون للمجاعات ؛ حتى أكلوا الميتات وأكل بعضهم لحم بعض ، وكثر الموت " وحسر عدد من مات في شهر واحد _ ممن قدر على معرفته _ فبلغ العد مائة وسبعة وعشرين ألف إنسان ...حتى خلت القرى " [2] ، ومن العوامل التي واجهت الشعب ؛ إقدام بعض الصيارفة على تزييف النقد ، حيث ترتب عليه ارتفاع الأسعار وإغلاق الأسواق [3] ، وكذلك انعدام الأمن على الطرقات بين الأقاليم ، بسبب قطاع الطرق والمشاحنات بين قبائل العربان [4] ، وهكذا لم تلبث الأوقاف أن تعرضت للحل والإقطاع ، رغم محاولة رجال الدين مقاومة ذلك[5]، وأمام هذه الضغوطات على

---

[1] سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر السلاطين المماليك ، ص ١٠- ١١

[2] حياة الحجي (١٠٦٧هـ _ ١٦٥٦ م) : أحوال العامه في حكم المماليك ، شركة كاظمه للنشر والترجمة والتوزيع ، الكويت ط١ ١٩٨٤ ص١٨١ .

[3] المرجع نفسه ص١٩٢ .

[4] المرجع نفسه ص٢٠٣ .

[5] محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (٦٤٨ – ٩٢٣ ﻫ) دار النهضة العربية ، القاهرة ، ط١ ١٩٨٠ ، ص٣٢٦ – ٣٣٤ .

الشعب فقد عبر عن سخطه بصورتين : إحداهما سلمية ، والأخرى صاخبة . وتتمثل الأولى في إحتجاجات رجال القلم ، ومعارضتهم لولي الأمر ، وكذلك في إحتجاج العوام وخروجهم في مظاهرات سلمية للتعبير عن شعورهم ، وربما تعرضوا لمواكب السلطان بشوارع القاهرة ، أما الصورة الصاخبة فتمثلت في اشتراكهم في الفتن القائمة بين المماليك ، لنهب ما تصل إليه أيديهم ، وكذلك القيام بثورات علنية لطرد الحكام أو النواب ، وكذلك ثورات العربان ضد المماليك ، وانضمامهم لكل ثأر ضدهم [١] .

وعلى الرغم من هذه الظروف القاسية التي تعرض لها الشعب ، إلا أنه لم يفقد روح المرح والدعابة ، فعندما انتشر الوباء وتوقفت زيادة النيل ، وغلت الأسعار سنة (٧٠٩هـ) ، كان العامة يغنون في شوارع القاهرة : " سلطاننا ركين _ ركن الدين بيبرس _ ونائبنا " دقين _ يقصدون الأمير سلار " ولم يكن في لحيته سوى شعيرات قليلة _ بجينا الماء منين ، جيبو لنا الأعرج _ الناصر محمد _ يجيب الميه ويدحرج " [٢] .

كما وجدوا في الشعر سبيلا ، للخروج من هذه الضغوط التي واجهوها كأفراد في المجتمع ، وذلك بالتوجه للخمر والتغني بها من ذلك قول سيف الدين المشد :

---

[١] علي ابراهيم طرخان : تاريخ المماليك البحرية ، مكتبة النهضة المصرية _ القاهرة ص٢٦٦ – ٢٦٧ .

[٢] سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر السلاطين المماليك ص١٠٠ – ١٠١ .

أحـــب المُدام لأن المُـــدام تفرحني فـــي زمان المحـــن

وكل امرئ عاقل في الورى يحب السرور وينسى الحزن [1]

أما حول وضع المرأة ، فقد بقي متأرجحاً في العصر المملوكي بين التحــور والتقييد ، يخضع لرغبة السلطان أو الوالي إذا شاء ، أمر بالقيد ، وإذا شـــاء تغاضى ، فتحررت النساء وأسرفن ، حتى يعود آخر إلـــى فـــرض القيـــود والحجر على حريتهن .

---

[1] فوزي محمد أمين : أدب العصر المملوكي الأول ، قضايا المجتمع والفن ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٣ ، ص ٣٣٩ .

الحياة العلمية :

فطن المماليك لأهمية العلم ، وطبقت مجانية التعلم، وجعلوهحق مشروع للجميع دون أن يتكلف شيئا، بل على العكس، كانت الدولة فضلا عن أهل الخير من الأغنياء ، تعين الطالب على التفرغ للتحصيل، فتوفر له المسكن والمأكل والمشرب، وتفيض عليه بالخير في المناسبات المختلفة، فتصل إليه الهدايا بين مأكل وملبس فتدخل عليه السرور، وتزيد من رغبته في التوفر على الدراسة والتفاني في تحصيل الثقافة .[1] ولم يقتصر اهتمام الناس بالعلم على الانتظام بالمدارس والجوامع، بل شغفوا بالكتب واقتنائها فراجت تجارتها ، وقرأ طلاب العلم كل ما كان يقع تحت أيديهم من الكتب الدينية، والأدبية واللغوية والطبيعية والفلكية .[2] ولم يتوقف طلب العلم عند هذه الفئات، فقد تعلق السلاطين بطلب العلم والميل له؛ فالظاهر بيبرس كان يميل إلى التاريخ وأهله ميلا زائدا ويقول : " سماع التاريخ أعظم من التجارب " [3] . وتلقى السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، علوم الفقه والقانون في دمشق ونال شهادة فيها ، ولذلك كان يشارك العلماء في كل أمر يقضون فيه [4] .

---

[1] محمد عبدالعزيز مرزوق ، الناصر محمد بن قلاوون . المؤسسة المصرية العامة ص٤٠

[2] محمد زغلول سلام ، الأدب في العصر المملوكي الدولة الأولى . دار المعارف ج١ ص ١٢٠

[3] سعيد عاشور ، العصر المماليكي في مصر والشام – دار النهضة العربية القاهرة ط٢ ١٩٧٦ ، ص٣٤١

[4] السير وليام موير ، تاريخ دولة المماليك في مصر ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ط١ ١٩٨٥ ص١٠١

وقد كان " المؤيد شيخ الحموي يحدث بصحيح البخاري عن السراج البلقيني ، بإجازة كان يصحبها معه في أسفاره لا يفارقها " [١] .كما نجد السلطان الظاهر برقوق وقد اهتم اهتماما خاصا بأهل الخير ، ومن ينتسب إلى الصلاح . وكان يقو لمن يدخل عليه منهم . حتى أنه عفى عمن أفتى بقتله من الفقهاء ، ولم يترك إكرامهم مع شدة حنقه عليهم . وكان يغدق كل سنة في أهل العلم و الصلاح ، مائتي ألف درهم للواحد إلى مائة دينار ذهبا[٢] . ولم يتوقف دعم السلاطين على الناحية المعنوية ، بل تعدى ذلك للدعم المادي ؛ فقد حظي الفقهاء برعاية السلاطير والأمراء المماليك ، فكان لهم نصيب من الصدقات والمساعدات المالية ، تعينهم على مواصلة العيش ، دون الحاجة للجوء إلى الآخرين طلبا للمؤونة والطعام [٣]

---

[١] السخاوي ، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن(٩٠٢هـ - ١٤٩٤م) الضوء اللامع لاهل القرن التاسع منشورات مكتبة الحياه بيروت بلا طبعه ج٣ ص٣٠٩

[٢] المقريزي ، احمد بن علي (ت ٨٤٥هـ - ١٤٤١م) السلوك لمعرفة دول الملوك تحقيق محمد مصطفى ، لجنة النشر والترجمه ، القاهر ١٩٥٦ ،ط٢. ج٣ ق٢ ص ٩٤٤

[٣] حياة ناصر الحجي . أحوال العامة في حكم المماليك ٦٧٨-٧٨٤هـ _ ١٢٧٩-١٣٨٢م شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع الكويت ط١ (١٩٩٤)م ص ٢٢٧

وبعد الحديث عن العلماء والطلاب وموقف السلاطين منهم ، لا بد من التعريج على الطرف الثالث في العملية التعليمية ؛ وهي المدارس ، فقد انتشرت المدارس في أنحاء البلاد في هذا العصر ، وإن اختصت القاهرة بمعظمها وفي ذلك يقول ابن بطوطة :"..... وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها "[1].ولع من أهم المدارس التي بنيت في العصر المملوكي ، " المدرسة الظاهرية الثانية " ابتناها الظاهر برقوق . يصفها القلقشندي بقوله : " فجاءت في نهاية الحسن والعظمة ، وجعل فيها خطبةً ، وقدر فيها صوفية على عادة الخوانق ودروسا للأئمة وتعالى في ضخامة البناء "[2]. ووصفها القلقشندي في أبيات من الشعر فيقول :

وبالخليلي قد راجت عمارتها		في سرعة بنيت من غير ما مه

كم أظهرت عجبا اسواط حكمته		وكم غدت مثلا ناهيك من مثل [3]

وقد ألْحِقَ في معظم المدارس بيمارستانات ؛ لعلاج المرضى ودراسة الطب [4]

وأما حول النظام المتبع في هذه المدارس ، فلا يقل في كثير منها عن الجامعات

---

[1] ابن بطوطة ، شمس الدين ابو عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي (٧٧٩هـ - ١٣٧٧م)رحلة ابن بطوطه قدم له وحققه عبدالهادي التازي ، مطبوعات اكاديمية المملكة المغربيه سلسلة التراث ١٩٩٧ ، المجلد الأول ، ص ٢٠٣

[2] القلقشندي . صبح الأعشى ج٣ ص ٣٦٣-٣٦٤

[3] المصدر نفسه ، ص ٣٦٣ - ٣٦٤

[4] المصدر نفسه ، ص ٣٦٤

المعروفة في عصرنا من حيث نظام الدراسة وهيئة التدريس [1] ولعل هذا ما يفسره قول ابن خلدون " واختص العلم بالأمصار الموفورة الحضارة ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر [2]. وفي ذروة الازدهار والقاهرة تغص بأكابر العلماء والكتاب في كل فن من الشرق والغرب برزت ظاهرة الموسوعات العلمية والأدبية الكبرى ، ولعل من أهمها " نهاية الأرب في فنون الأدب " لأحمد بن عبد الوهاب الغويري ت(٨٢١هـ - ١٣٣٣م) ، وكتاب " مسالك الأبصار في محالك الامصار " لأحمد بن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ - ١٣٤٨م) ، " وصبح الأعشى في كتابة الإنشا " لأبي العباس القلقشندي (ت ٨٢١ - ١٤١٨م) ، وأنه من التجاوز أن نسمي هذه المؤلفات المدهشة كتباً ؛ فهي في الواقع موسوعات ضخمة شاسعة ، لا تدل أسماؤها على حقيقة محتوياتها [3] .

---

(١) عمر موسى باشا أدب الدول المتتابعة. دار الفكر الحديث ط١ ،(١٣٨٦هـ - ١٩٦٧م)ص١٣١

(٢) محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ، ج١ ص ١٠٦ نقلاً عن ابن خلدون

(٣) نخبة من الاساتذة تقديم د . احمد عزت عبد الكريم (ابو العباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى) الهيئة المصرية العامة للكتاب .

القاهرة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، ص١٢.

الحياة السياسية : بدأ حكم المماليك بمصر بموت توران شـــــاه ، حيث أخذت البيعة " لشجرة الدر " سنة (٦٤٨ هـــ) [١] ، ولكنها واجـــهت المعارضة على أيدي رجال الدين ، كونها امرأة [٢] ، وأمام هذه المعارضة لم تجد وسيلة إلاّ الزواج من الاتابك أيبك التركماني ، وتتنـــازل لـــه عـــن العرش ويتلقب " بالملك المعز " ، ولكن الود لم يدم مع شجرة الدر فدبـــرت لقتله [٣] ، ويتولى الحكم بعده ابنه علي ، ويلقب بالمنصور ، وكان صبياً لـــم يتجاوز الخامس عشرة ، يمضي سحابة نهاره باللعب [٤] ، وهكذا لم يكـــن مدركاً للدسائس الداخلية و الأخطار الخارجيـــة ؛ المتمثلـــة بالتتـــار الذيـــن استولوا على بغداد معقل الاسلام و دمروها [٥] ، حيث كـــان آخـــر خلفـــاء العباسيين فيها المستعصم الذي غرق و حاشيته بالنعم و اللذات ، ولم يفطـــن لما حذرته الرعية منه [٦] ، وفي ظل هذه الظروف يتنبه قطز _ والذي ولاّه علي المنصور نيابة السلطنة بمصر _ فيقبض على الســـلطان المنصـــور ، ويعلن نفسه سلطاناً على مصر (٦٥٧ هـــ) ، ويحشد الجيـــوش ويتوجـــه

---

(١) ابو شامة القدسي ، شهاب الدين ابو محمد عبدالرحمن بن اسماعيل (٦٦٥ هــ _ ١٢٦٦ م) : الذيل على الروضتين ، عني بنشره محمد الكوثري ، دار الجيل بيروت ، ١٩٧٤ ، ط ٢ ، ص ١٩٦

(٢) السيوطي ، جلال الدين عبدالرحمن (٩١١هــ _ ١٥٠٥ م) : حسن المحاضرة في أخبار مصر و القاهرة ، تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم ، دار احياء الكتب العربية ، ط ١ ، ١٩٦٨ ، ج ٢ ، ص ٣٦

(٣) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٠٣

(٤) الحنبلي ، عبد الحي بن عماد ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، بلا تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٧١

(٥) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، تحقيق احمد ابي الفضل ابراهيم ، دار النهضة ، مصر ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٣٠٩

(٦) ابن طقطقا محمد بن علي ، بن طباطبا ، الفخري في الآداب السلطانية ، دار صادر ، بيروت ، بلا تاريخ ، بلا طبعة ، ص ٤٦

للشام و ينتصر على التتار في معركة عين جالوت (٦٥٨ هـ) ، ثم في بيسان نفسها وقتل من التتار نحو النصف [١] ، وفي طريق العودة يتفق بيبرس _ أحد قادة المعركة _ مع عدد من الأمراء على قتل قطز ، فقتلوه سنة (٦٥٨ هـ) وتركوه ملقى على الارض ، فدفنه بعض من كان في خدمته [٢] ، و أجمع المتآمرون على سلطنة بيبرس وبدخوله قلعة الجبل (٦٥٨هـ) بدأ صفحة جديدة في تاريخ المماليك في مصر و الشام ، إذ سنّ ولاية العهد في دولة المماليك البحرية ، ووراثة العرش ، ليحول بذلك دون الدسائس و المؤامرات التي يحوكها كبار الأمراء حول عرش السلطان ، كما عرف سلطاناً قائداً ، وحاكماً عادلاً يجلس للمظالم ، ويعطف على الفقراء و أصدر عدة قوانين لتهذيب الأخلاق فأمر سنة (٦٦٤ هـ) بمنع بيع الخمور وأقفال الحانات بالقاهرة ، وبناء مسجده المعروف بإسمه سنة (٦٦٥ هـ) وأصلح منارة الاسكندرية ، وردم فروع دمياط حتى لا يتمكن الافرنج من العبور اذا أرادوا الاغارة على مصر [٣] ، ولعل من أهم الاعمال التي قام بها الظاهر بيبرس ، هو إعادة الخلافة العباسية لمكانتها بعد أن قضى عليها هولاكو ببغداد [٤] ، توفي الظاهر بيبرس أثناء عودته من موقعة قيسارية ودفن في دمشق (٦٧٦ هـ) ، ومن أشهر سلاطين

---

[١] المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٣٨

[٢] علي ابراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٣ ، ص ٤٥

[٣] علي ابراهيم حسن ، تاريخ المماليك البحرية ، ص ٥١

[٤] ابن أياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣١٣-٣١٤

المماليك، الأشرف خليل بن قلاوون ، ولم يكن يستقر على العرش ، حتى بادر للخروج الى الشام لإتمام ما أراده أبوه ، فطرد الصليبين من عكا سنة (٦٩٠ هـ) وكانت خاتمة الحروب الصليبية [١] ، ويصف شهاب الدين الحلبي هذه المعركة بقصيدة طويلة مطلعها :

الحمد لله ذلت دولة الصلب وعز بالترك دين المصطفى العربي [٢]

ولكن حكم الأشرف خليل لم يتجاوز الثلاث سنوات ، بسبب غطرسته التي أوغرت قلوب الأمراء عليه فقتلوه ، وبوصول برقوق سنة (٧٨٣ هـ) الى الحكم زال الحكم عن بيت قلاوون ، وينتقل الحكم من دولة المماليك الأولى " البحرية " ، إلى دولة المماليك الثانية " البرجية " [٣]، وعدد سلاطينها اثنان وعشرون سلطانا ، كان أولهم الظاهر سيف الدين برقوق الذي أتسم بالحنكة والحلم ، ومثال ذلك عفوه عن الخليفة المتوكل حين حاول اغتياله و الجلوس مكانه فاكتفى بخلعه و تعيين الواثق بالله خليفة مكانه [٤] ، وتوفي برقوق سنة (٨٠١ هـ) ليخلفه أبنه فرج بن برقوق ، وليس في عهده ما يثير الاهتمام ، سواء مواجهة .تيمورلنك قرب دمشقوالتي هزم فيها ، ثم عقد صلحا مع تيمورلنك في السنة التي تليها (٨٠٨ هـ) ،

---

(١) محمد عبدالعزيز مرزوق ، الناصر محمد بن قلاوون ، المؤسسة المصرية العامة ، ط ١ ، ١٩٦٤ ، ص ٩٦ .

(٢) ابن شاكر محمد بن شاكر الكتبي (٧٦٤ هـ - ١٣٦٢ م) ، فوات الوفيات و الذيل عليها ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر بيروت ، ١٩٧٣ ، ج ١ ، ص ٤١٠ - ٤١١

(٣) علي حسن : تاريخ المماليك البحرية ، ص ٣٧

(٤) السير وليم مولر : تاريخ دولة المماليك في مصر ، ترجمة محمد عابدين وسليم حسن ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٥ ، ص ١٢٢

وقد كثرت الفتن وسوء تدبير الحكم في عهده ، وحين خرج لقمع الثورة في الشام (٨١٥ هـ) أسر وقتل [١] ، وتولى السلطنة بعده الخليفة المستعين بالله العباسي و لم يدم حكمه أكثر من سبعة أشهر [٢] ليتولى بعده السلطان المؤيد شيخ الحموي (٨١٥ - ٨٢٤ هـ) واشهر ما عرف له بناء المدرسة المؤيدية [٣] ، ومن خلال الاطلاع على فترة الحكم وطريقة انتقاله من سلطان لآخر ، يظهر للدارس مدى الفوضى و الاضطراب الذين كانا سائدين ، ومما ساعد على الأسراع في القضاء على حكم المماليك العوامل الخارجية ، كان أهمها ؛ اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح على يد فاسكوديجاما (٩٠١ هـ - ١٤٩٧ م) ، ففقدت مصر مكانتها التجارية كوسيط بين الشرق و الغرب ، وكذلك هجوم العثمانيين على الدولة المملوكية في " مرج دابق " (١٥١٦ م) ، ومات فيها قانصوه الغوري فكانت نهاية الدولة الملوكية [٤].

---

[١] سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر و الشام ، ص ١٦٦ - ١٦٨

[٢] عبدالباسط خليل بن شاهين الملطي (٩٢٠ هـ - ١٥١٥ م) : نزهة الاساطين فيما ولي مصر من السلاطين ، تحقيق محمد كمال الدين ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ص ١٢٤

[٣] المرجع نفسه ، ص ١٢٦

[٤] سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر و الشام ، ص ١٩٢ - ١٩٨

الفصل الأول

اسمه ، لقبه ، كنيته :

اسمه : أبو العباس أحمد بن عبد الله الشهاب بن الجمال أبى اليمن الفـــزاري القلقشندي ثم القاهري الشافعي [١] .

و هناك اختلاف في تسمية آبائه فقد ورد في " إنباء الغمـــر بأبناء العمـــــر " والمجمع المؤسس للمعجم المفهرس " لابن حجر العسقلاني "٨٥٢هـ" ، أن اســمه أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي الشافعي شهاب الدين [٢] ، ويتابعه السخاوي فــي "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع " "٩٠٢هـ" بأن اسمه أحمد بن علي بن أحمد بــن عبد الله الشهاب بن الجمال " أبو اليمن الفزاري القلقشندي ثم القاهري الشافعي [٣] "

.

---

[١] العيني ، بدر الدين محمود (٨٥٥ هـ - ١٤٥١ م) عقد الجمان (حوادث٨١٥-٨٢٤هـ) في تــاريخ أهل الزمان ، (حوادث ٨١٥-٨٢٤ هـ) تحقيق وتقديم عبد الرزاق الطنطاوي القرموط ، مطبعة عــلاء ، ٣ حزيران ، بدران القاهرة ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م ، ص ٣٣٨ _ ٣٣٩ .
المقريزي ، أحمد بن علي (٨٤٥ هـ - ١٤٤٢ م) ، درر العقود في تراجم الأعيان المفيدة ، تحقيق عدنــان درويش ، محمد المصري ، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية ، مكتبة الأسد ، دمشــق ، ١٩٩٥ ، ص ٧٥ - ٧٦ . وكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٤ ، ق ٢ ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشــور ، مطبعة دار الكتب ، جمهورية مصر العربية ، وزارة الإعلام ، مركز تحقيق التراث ، ١٩٧٢ م ، ص ٤٧٣ _ ٤٧٤ .
ابن تغري بردي (٨٧٤ هـ - ١٤٧٠ م) / النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقــاهرة ، تحقيــق : محمــد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط ١ ، ١٩٩٢ م ، ج ١٣ ، ص ٢٨٨ .
المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، تحقيق ، محمد أمين ،تقديم : سعد الدين عاشور ، الهيئـــة المصريــة العامة للكتاب ، ١٩٨٤ م ، ج ٢ ، ص ٣٥١ ، ٣٥٢ .
الصيرفي علي بن داود الخطيب الجوهري (٩٠٠ هـ) ، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ، تحقيق : حسين حبشي ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٧١ ، ج ١ ، ص ٤٣٢ .

[٢] العسقلاني ، ابن حجر (٨٥٢ هـ - ١٤٤٩ م) : إنباء الغمر بأبناء العمر فــي التــاريخ ، دار الكتــب العلمية بيروت ، لبنان ط ١ ، ١٩٨٦ م ، ج ٧ ، ص ٣٣٠ - ٣٣١ .
المجمع المؤسس للمعجم المفهرس ، تحقيق محمد شكور ، مؤسسة الرسالة ، بــيروت ، ط ١ ، ١٩٩٦ ، ص ٤٥٠ .

[٣] السخاوي ، شمس الدين محمد عبد الرحمن (٩٠٢ هـ) ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، منشورات دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، بلا تاريخ ، المجلد الأول ، ج ٢ ، ص ٨ .

في حين يورد اسماعيل باشا البغدادي اسمه قائلا :" أحمد بن علي بن أحمد بن أحمد القلقشندي شهاب الدين أبو العباس المصري الشافعي [١]. ومما يجلب انتباه الباحث ، ذلك الاختصار لترجمته ، فما هي إلا كلمات تورد موجزة ، وربما كانت أطولها ترجمةُ السخاوي له ، وفيها يتهم العيني والمقريزي بالوهم ، حين أسميا والده "عبد الله " ، ولعله أخذ عن شيخه ابن حجر العسقلاني "٨٥٢هـ" ومع أن سنتي وفاة العيني "٨٢٥هـ" والمقريزي "٨٤٥هـ" أقرب لوفاة القلقشندي "٨٢١هـ" ، إذ يقول :" وسمى العيني والمقريزي والده عبد الله وهو وهم "[٢] ،" والسخاوي يرجح غير مشير إلى مأخذ ، ويخطئ غير كاشف عن مصدر هذا الخطأ ، والمؤلفان اللذان رد قولهما ، يعاصران شيخه ، أحدهما وهو المقريزي يسبقه وفاة ، والثاني وهو العيني تتأخر وفاته عن وفاة شيخه بأعوام ثلاثة [٣] " ولكن السخاوي يعود لما قاله المقريزي والعيني ، حين يترجم لنجم الدين محمد بن أبي العباس القلقشندي ، حيث يقول :" محمد بن أحمد بن عبد الله بن اسماعيل النجم أبو الفضل الشهاب أبي اليمن القلقشندي القاهري الشافعي " [٤]." وشيء أخر يسعنا في الرد على السخاوي ، أنه شارك الابن الحياة أعواما لا ندري عدتها ولكن لا نراها قليلة ، فهو حين يكتب عن

---

(١) اسماعيل باشا البغدادي هدية العارفين باسماء المؤلفين و أثار المصنفين من كشف الظنون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٢ ، المجلد الخامس ، ص ١٢٢ .

(٢) السخاوي : الضوء اللامع ، المجلد الأول ، ج ٢ ، ص ٨ .

(٣) عبد اللطيف حمزة : القلقشندي في كتابه صبح الأعشى ،عرض وتحليل ، المؤسسة المصرية للتاليف والطباعة والنشر ، ط ١ ١٩٦١ ، ص ٣٦ .

(٤) السخاوي : الضوء اللامع ، المجلد ٣ ، ج ٦ ، ص ٣٢٢ .

الابن غيره حين يكتب عن الأب ، فهو هناك ناقل لم يشهد ولم يسمع وهو هنا ناقل قد سمع وقد شاهد " [١] . ومما يدفعنا إلى التوقف أمام رواية السخاوي ، إشارته إلى كتاب "صبح الأعشى في كتابة الإنشا " فيقول : أنه يقع في أربع مجلدات ، والواقع أنها لا تقل عن سبع مجلدات ، ما زالت محفوظة في دار الكتب المصرية إلى اليوم "[٢] . وعبد اللطيف حمزة إذ يناقش القضية ، ويشكك في مقولة السخاوي إلا أنه لم يعرض لنا رأيه بل اكتفى بذلك ، وعنوان كتابه "القلقشندي في كتابه صبح الأعشى " دون ذكر اسمه كاملا ، فهو يذكر هذه الإشكالية ليبين مدى الظلم الذي وقع على أبي العباس القلقشندي من جانب التاريخ [٣]. وثمة من تبع السخاوي في هذه الترجمة ، دون طرح هذه الإشكالية فمحمود رزق سليم [٤] يوثق لرواية السخاوي ولا يتعرض لاسم القلقشندي في طرحه لمقامة القلقشندي ، ويكتفي بعنونة "مقامة لشهاب الدين القلقشندي " . وكذلك يورد محمد زغلول سلام [٥] ترجمة القلقشندي

---

(١) ابراهيم ، الابياري : في تحقيقه لكتاب نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب لأبي العباس القلقشندي ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط ٢ ، ١٩٨٠ ، ج ١ ، ص (ك) .

(٢) عبد اللطيف حمزة : القلقشندي في كتابه صبح الاعشى ، ص٣٧

(٣)) المرجع نفسه ص٣٧

(٤) محمود رزق سليم : عصر السلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، مكتبة الآداب بالجماميز ، المطبعة النموذجية ، ج ٥ ، ص٤١٢

(٥) محمد زغلول سلام : الأدب في العصر المملوكي ، دار المعارف ، بلا تاريخ ، ج٣ ، ص١٨١

تحت اسم القاضي شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي ، وإن لـــم يشـــر لرواية السخاوي مباشرة ، ونجد خير الدين الزركلي [١] يورد ترجمة القلقشندي تحت اسم أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ويميل إلى السخاوي أيضا . وآخرون غير هؤلاء من أخذ بهذه الرواية [٢] أما جرجي زيدان فيذكر أنه رأى اســـمه فـــي صدر كتابه : " قلائد الجمان في التعريف بقبائل العربان ، هكذا : شهاب الدين أبـــو العباس ، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن سليمان بن اسماعيل القلقشـــندي ، المصري ، الشافعي الشهير بابن أبي غدة " [٣]. وإلى هذا ذهب عبد الستار أحمـــد فراج حين حقق كتاب " الأنافة في معالم الخلافة " للقلقشندي حيث وجد اسمه هكـــذا في المخطوطة ويعتقد أن تسمية "أحمد بن عبد الله " هي الصحيحة لما في المخطوطة التي حققها من مزايا تجعل الباحث يطمئن إليها [٤]. والشيء نفسه وقع فـــي تســـمية كتابه " صبح الأعشى في كتابة الإنشا " [٥] مع أنه من أهم كتبه وأفضل تصانيفـــه[٦]

---

[١] الزركلي ، خير الدين : الأعلام قاموس تراجم اشهر الرجال ، دار الملايين ، بـــيروت ، ط ٤ ، ١٩٧٩ ، ج ١ ، ص١٧٧

[٢] عمر كحالة : المستدرك على معجم مصنفي الكتب العربية في التاريخ، ص٦٧.
مصطفى الشكعه : الأصول الأدبية في صبح الأعشى ، دار الأمل (البحري إخوان) ، بيروت ، بـــدون تـــاريخ ص٧٥

[٣] جرجي زيدان : تاريخ اداب اللغة العربية ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ،لبنان ١٩٨٣ ، ج٣،ص١٤٠

[٤] الابياري : في تحقيقه صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنـــان ط١٩٨٧،١م، ج١ ،ص٧

[٥] القلقشندي ، أحمد بن عبد الله : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، مصورة عن الطبعة الأميرية ، المؤسســة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر، ج١ ، ص١٠

[٦] الزركلي ، خير الدين : الأعلام ، قاموس تراجم اشهر الرجال ، دار الملايين، بـيروت ، ط٤ ، ١٩٧٩م ، ج ١ ، ص١٧٧

ويقول فيه طه حسين :" لو لم يكن له إلا ذلك لكفاه " (١) ، ففي هذا الكتاب اشـــــتهر القلقشندي وعرف، ومع ذلك يورده ابن حجر العسقلاني مرة " صبح الأعشى في فن الإنشا " (٢). وأخرى "صبح الأعشى في معرفة الإنشا " (٣) ويثبته ابن تغري بـــردي "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" (٤) وأما المقريزي فيورده تارة "صبح الأعشى في قوانين الإنشا " (٥) ونارة "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" (٦) . السخاوي يشير لـــه "بصبح الأعشى فـــي صناعـــة الإنشا " (٧) ويأتـــي العيني (٨) والصيرفي (٩)

---

(١) عمر موسى باشا : تاريخ الأدب العربي (العصر المملوكي) ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، لبنان ، دار الفكر ،دمشق ،سوريا ط١،١٩٨٩ص٥٤٩ وجرجي زيدان : المرجع السابق ج٣ص١٤١

(٢) العسقلاني ، ابن حجر : المجمع المؤسس للمعجم المفهرس ،ص٤٥٠

(٣) ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمر في أبناء العمر ،ج٧ ص ٣٣٠-٣٣١

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في معرفة ملوك مصر والقاهرة ج١٢ ص٢٨٨ ابن تغري بردي المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ج١ ص٣٥١-٣٥٢

(٥) المقريزي ، أحمد بن علي : درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ، القسم الثني ، ٧٦-٧٧

(٦) المقريزي : السلوك في معرفة دول الملوك ج٤ق٢،٤٧٣-٤٧٤

(٧) السخاوي ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن : الضوء اللامع ، ج٢ص٨

(٨) العيني ، بدر الدين محمود : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ٠ (حوادث ٨١٥-٨٢٤هـ)ج ص٣٣٨-٣٣٩

(٩) الصيرفي ،علي بن داوود الجوهري : نزهة النفوس والأبدان في تواريخ أهل الزمان ،ج٢،ص٤٣٢

بتسمية أخرى :"صبح الأعشى في كتاب الإنشا " مع أن القلقشندي ذكـــر اسم كتابه مرتين باسم "صبح الأعشى في كتابة الإنشا"[1]، فإذا كانت المعاني الـواردة في تسمية الكتاب تؤدي المعنى نفســه تقريبـا ، يسـتدرجنا للاعتقـاد باهتمامـهم بالمضمون مع أنه عصر الاهتمام بالصنعة اللفظية ، فإن اسم والـــد المؤلـف ، لا يبرره الاعتقاد السابق ، وليس ثمة قرب بين علي وعبـــد الله لِنَسْـيه للتصحيـف ، وبغض النظر عن أسباب الاختلاف ، فإنه دفعنا للاعتقاد بما ذهب إليه كـــل مـن العيني "٨٢٥هـ" والمقريزي "٨٤٥هـ" لاتفاقهما في الرواية وقرب وفاتهما من وفاة القلقشندي "٨٢١هـ" مقارنة مع وفاة ابن حجر "٨٥٢ هـ" المخالف لهما .

ولترجمة السخاوي لابن القلقشندي وهو معايش له سـنين عـدة وموافقتـها لرواية العيني والمقريزي وكذلك ما أورده جرجي زيدان من أنه رأى اسمه موافقـا لمقولة العيني والمقريزي في صدر كتابه قلائد الجمان وعبد الستار أحمد فراج أنـــه ورد في المخطوطة التي حققها من مآثر الأنافة كتب عليها :" كتاب الأنافة في معـالم الخلافة ، تأليف الفقير إلى الله أحمد بن عبد الله القلقشندي الشافعي .وبهذا نقدم اسـمه أحمد بن عبد الله القلقشندي.

---

(1) القلقشندي ، أحمد بن عبد الله : مقدمة صبح الأعشى ج١ص١٠
القلقشندي : مآثر الانافة في معالم الخلافة ، مصورة ، ط٢ ، مطبعة حكومة الكويت ، ج٣ ،ص٩٨

كنيته :

الكنية عند النحاة ، أحد أقسام العَلَمْ ، والمراد بها ما صدّر بأب أو أم ، مثل : أبي القاسم وأم كلثوم ، وقد كان للعرب بالكنية أتم العناية ، حتى أنهم كنّوا جملة من الحيوان ، بكنى مختلفة : فكنّوا الأسد بأبي الحارث والثعلب بأبي الحصين (١) . أما حول جواز الكنى ، واستحباب مخاطبة أهل الفضل بها فيقول الإمام النووي :" هذا الباب أشهر من أن نذكر فيه شيئا منقولا ، فإن دلائله يشترك فيها الخواص والعوام . والأدب أن يخاطب أهل الفضل ومن قاربهم بالكنية ، وكذلك أن كتب إليه رسالة ، وكذا أن رويت عنه رواية" (٢). وقد كُنّي القلقشندي " بأبي العباس" (٣) وبحسب المصادر التي بين يدي لم أطلع على ولد له بهذا الاسم- وإن ذكر له ولد باسم "محمد"سيأتي ذكره- وقد يكنى الرجل بغير أولاده حتى قيل هذا باب واسع ، لا يحصى من يتصف به ولا بأس في ذلك (٤). وليس هذا بغريب ، حين نعلم أنه كني من ليس له ولد ، فمن ذلك ما ورد في الأسانيد الصحيحة عن عائشة _ رضي الله عنها _ قالت :" يا رسول الله : صواحبي لهن كنىً ، فقال : فاكتني بابنك عبد الله -

---

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٥ ،ص٤٣٠

(٢) النووي ، يحيى بن شرف الدين : الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ،ط١٩٨٣،٦ ص٢٦٠

(٣) اسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين من كشف الظنون ج٥ص١٢٢
عمر موسى باشا : تاريخ الأدب العربي "العصر المملوكي " ص٥٤٠
عمر كحاله : المستدرك على معجم مصنفي الكتب العربية في التاريخ، ص٤٧، معجم مؤلفي الكتب ص٦٧
ناظم رشيد : في أدب العصور المتأخرة ،ص١٤٠
القلقشندي : قلائد الجمان في التعريف بقبائل العربان
الابياري : في تحقيقه لكتاب، صبح الأعشى ج١ ص٣

(٤) النووي : الأذكار ص٢١١

يعني عبد الله بن الزبير – وهو ابن أختها أسماء ، وكانت عائشة _ رضي الله عنها _ تكنى بأم عبد الله " (١)، وكذلك جاز تكنية الصغير ، يقول النووي : " روينا في صحيحي البخاري ومسلم عن أنس _ رضي الله عنه_ قال : كان النبي __صلى الله عليه وسلم__ أحسن الناس خلقا ، وكان لي أخ يقال له أبو عمير – قال الراوي : أحسبه قال فطيم – وكان النبي __صلى الله عليه وسلم__ إذا جاءه يقول : يا آبا عمير ، ما فعل النقير نقير كان يلعب به " (٢)، وقد يكون للرجل أكثر من كنية ، فقد كان لأمير المؤمنين عثمان بن عفان _ رضي الله عنه _ ثلاث كنىً : أبو عمرو ، وأبو عبد الله ، وأبو ليلى (٣).

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٤٣٥

(٢) النووي : الأذكار ، ص ٢٦١

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج٥ ، ص ٤٣٥

ألقابه ونعوته

الألقاب والنعوت يستعملان في المدح والذم جميعا، وعرّفت النحاة اللقب بأنه: ما أدى إلى مدح أو ذم ، فالمدح كأمير المؤمنين ، وزين العابدين ، والذم : كأنف الناقة ، والنعت تارة يكون صفة مدح وتارة يكون صفة ذم ، ولا شك أن المراد هنا من النعت واللقب صفة المدح (١). ولا نزاع في إطلاق اللقب والنعت ، فمن حيث أنها صفات مؤدية إلى المدح يطلق عليها اسم اللقب ، ومن حيث أنها صفات لذوات قائمه ، يطلق عليها اسم النعت (٢) . وقد لقب القلقشندي بألقاب ونعوت كثيرة ، منها شهاب الدين(٣) . والشهاب في اللغة : الشعلة الساطعة وفي التنزيل العزيز: ﴿أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون﴾ والنجم المضيء اللامع . ويقال للماضي الماهر في الأمور أو الحرب : هو شهاب علم أو شهاب حرب ونحوها(٤). ويذكر القلقشندي " أنه كان في الزمان الأول : لغالب أسمائهم ألقاب ، لا يتعدونها ، كقولهم في محمد "شمس الدين " وفي أحمد:"شهاب الدين " (٥) ولما كان اسم القلقشندي

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٥ ص ٤٣٨ - ٤٣٩

(٢) المصدر نفسه ج٥ ص ٤٢٨ - ٤٣٩

(٣) ابن حجر العسقلاني : المجمع المؤسس ص ٤٥٠، المقريزي : درر العقود الفريدة القسم ٢ ص ٧٥ ، السلوك ج٤ق١ص٤٧٣
ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج١٣ ص٢٨٨ ، المنهل الصافي ج١ ص٣٥١ ، محمود رزق سليم : عصر السلاطين المماليك ج ٥ ص ٤١٢

(٤) إبراهيم مصطفى ، أحمد حسن الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد النجار ": المعجم الوسيط ، دار الدعوة ، استنبول تركيا ، جمهورية مصر العربية ، مجمع اللغة العربية مادة "شهب "

(٥) القلقشندي : صبح الأعشى ،ج٥ ص٤٨٩

"أحمد" حمل هذا اللقب ، على أن لقب "شهاب الدين " من الألقاب التي تطلق على العلماء و القضاة (١) . وقد وردت الإضافة للدين في الألقاب عند كتاب القبط فقالوا في عبد الله : "شمس الدين " وفي عبد الرزاق :"تاج الدين " وربما سعد الدين(٢) . وقد كان أول من تلقب بالإضافة "للدين" أبو نصر بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه ، زيد على لقبه "بهاء الدولة ""نظام الدين " ثم تزايد التلقيب به وافرط ، حتى دخل فيه الكتاب والجند والأعراب والأكراد ، حتى قال أحدهم :

طلع الدين مستعينا إلى اللـه وقال العباد قد ظلموني

يتسمون بي وحقك لا أعـرف منهم شخصا ولا يعرفوني (٣)

ومن ألقابه : القاضي (٤)، واستقضي فلان أي جعل قاضيا يحكم بين الناس ، قال أهل الحجاز القاضي معناه في اللغة : القاطع للأمور المحكم لها(٥)

وهو من يتولى فصل الأمور بين المتداعين في الأحكام الشرعية ، وهي وظيفة قديمة ، كانت زمن النبي _صلى الله عليه وسلم_ . فقد ذكر القضاعي أنه _صلى الله عليه وسلم_ ، ولّى القضاء باليمن لعلي بن أبي طالب ،

---

(١) المصدر نفسه ج٥ ص٤٨٩
(٢)) المصدر نفسه ج٥ ص ٤٩٠
(٣)) المصدر نفسه ج٥ ص ٤٤٢ - ٤٤٣
(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج١٣ ص ٢٨٨ ، المنهل الصافي ، ج١ ص ٣٥١ ، محمد زغلول سلام : الأدب في العصر المملوكي ، دار المعارف ، بلا تاريخ بلا طبعه ، ج٣ ،ص١٨١
(٥) ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت لبنان مادة "قضي "

ومعاذ بن جبل وأبي موسى ألا شعري ، وهو مشتق من القضاء ، واختلف في معناه ، فقيل في أحكام الشيء والفراغ منه ، وذلك في قوله تعالى :﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾ أي أخبرناهم بذلك وفرغنا لهم منه ، ومثل معناه القطع ، يقال : قضي الشيء إذا قطعه ، ومنه قوله تعالى:﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾ وسمي القاضي بذلك لأنه يقطع الخصومة بين المتخاصمين بالحكم . واشتق منه القضائي والقاضوي وأطلق على أرباب الأقلام في الجملة سواء كان صاحب اللقب يعمل في هذه الوظيفة أو غيرها ، كسائر العلماء والكتاب ومن في معناهم ، وعلى ذلك عرف العامة[١] . ونعت القلقشندي بالفقيه [٢] ، وهو من ألقاب العلماء ، ويخص به المجتهد دون المقلد ، وأطلق على فقهاء المكاتب ونحوهم على سبيل المجاز . وكان استعماله في مصر قليل ونادر ، واستصغره جهلة الكتاب وعدوه نقصا ، ويعظمه أهل المغرب ، والفقيهي نسبة إليه للمبالغة وهو مستعمل في ألقاب العلماء [٣] ، وقد حصل القلقشندي على إجازة [٤] من الشيخ ابن الملقن ، أذن له فيها بتدريس المذهب

---

[١] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٥ ص ٤٥١

[٢] ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ،ج١٣ ، ص٢٨٨ ، المنهل الصافي ج١ ص ٣٥١ ، السخاوي : الضوء اللامع ج٢ ص٨

ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر بالتاريخ ،ج٧ ص٣٣٠، المقريزي : درر العقود، القسم الثاني ٧٥-٧٦، السلوك ،ج٤ ق١ ص٤٧٣

محمد زغلول سلام : الأدب في العصر المملوكي ، ج٣ ص ١٨١ ، شوقي ضيفي : عصر الدول والإمارات "مصر والشام" ، دار المعارف القاهرة ، مصر ١٩٨٤ ص ، محمود رزق سليم : عصر السلاطين المماليك ، ج ٥ ص٤١٢

[٣] القلقشندي : صبح الأعشى ،ج٦ ،ص٢٢

[٤] القلقشندي : صبح الأعشى ج١٤ ص ٣٢٢-٣٢٧

الشافعي ورواية مؤلفاته في الفقه والحديث ،وكل ما كان يرويه من الصحاح الستة ، ومسند الشافعي ومسند ابن حنبل ، وكذلك ألف شرحا في الفقه الشافعي ، على كتاب جامع مختصرات الجوامع سماه "الغيوث الهوامع " ولعل هذا ما كان وراء حمله لهذا اللقب .

ونعت أبو العباس القلقشندي بأنه بارع [١] وفي اللسان : " برع يبرع بروعا وبراعة ، فهو بارع : تم في كل فضيلة وجمال وفاق أصحابه في العلم وغيره ، فقد توصف به المرأة " [٢] " وهو من ألقاب أرباب الأقلام ، وفاعل من البراعة وهي النهضة بالشيء والتقدم به " [٣].

وذكر معاصروه أنه برع في اللغة العربية والفقه والأدب ، وفي آثاره التي تركها لنا في الفقه واللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا لدليل على أحقيته لهذا اللقب.

وكما أطلقوا على أبي العباس القلقشندي لقب " إمام" [٤] وهو من ألقاب الخلفاء كما يقال في المكاتبات عنهم : " من عبد الله ووليه الإمام الفلاني " وأول من تلقب به إبراهيم بن محمد [٥] أول من بويع له بالخلافة من بني عباس ، ويقع في

---

[١] المقريزي : السلوك ج٤ ق١ ٤٧٣ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٣ ، ص ٨٢١ ، المنهل الصافي ج١ ص ٣٥١ ، السخاوي : الضوء اللامع ج٢ ص٨

[٢] ابن منظور : لسان العرب مادة "برع"

[٣] القلقشندي : صبح الأعشى ج٦ ص١١

[٤] ان تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ١ ، ص ٣٥١ ، السخاوي : الضوء اللمع ، ج٢ ، ص ٨ ، عمر كحالة : المستدرك على معجم مصنفي الكتب العربية في التاريخ، ص ٦٧

[٥] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٥ ص ٤٤٠

ألقاب أكابر العلماء ، وأصل الإمام في اللغة الذي يقتدى به ، ولذلك وقع على المجتهدين كالأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المشهورة ، وهم الشافعي ومالك وأبو حنيفة ، وأحمد بن حنبل [١] وفي اللسان : " أممت القوم في الصلاة إمامة . وأتم به أي : اقتدى به . والإمام المثال ، قال النابغة :

أبوه قبله ، وأبو أبيه بنوا مجد الحياة على إمام [٢]

ولعله لقب بذلك لسعة علمه ومعرفته وعمله بالفقه تدريسا وتصنيفا فيقول به صاحب المنهل الصافي :" كان إماما فقيها بارعا في العربية ومشاركا في الفقه والفرائض ، ناب في الحكم وصنف في الفقه وغيره ، وكان له فضل وأفضال "[٣].

ونعته بعض الباحثين بالمؤرخ [٤] وذلك لعلمه في التاريخ ونجد في كتابه : " صبح الأعشى في كتابة الإنشا " الشيء الكثير من التاريخ ، إضافة إلى كتب مستقلة بذاتها مثل " الأنافة في مسائل الخلافة " وأخرى في النسب مثل :" نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب " و" قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان " ويصف الأبياري منهجه في كتابة التاريخ قائلا :" منهجه في الكتابة التاريخية متميز على جميع من سبقه في الكتابة عن تاريخ مصر في العصور الوسطى " [٥] .

---

[١] المصدر السابق نفسه : ج٦ ص١٠

[٢]) ابن منظور : لسان العرب مادة أم

[٣] ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج١ ص٣٥١

[٤] الزركلي : الأعلام،جـ١،ص ١٧٧

[٥] الابياري : تحقيق كتاب صبح الأعشى ج١،ص ١٧

ونعت بالأديب [١] : وهذا مأخوذ من الأدب وعنايته به، وما له من إبداعات أدبية من رسائل إخوانية وديوانية ومفاخرات ومناظرات ومقامة وغير ذلك وقد ذكره معاصروه بأن له نظم ونثر [٢].وقد وصف بأنه "فاضلا" فيقول السخاوي في ذلك : " وكان أحد الفضلاء ممن برع في الفقه والأدب " [٣] ويذكر صاحب المنهل الصافي بقوله :" وكان له فضل وأفضال " [٤] . ويصفه المقريزي في مثل ذلك بقوله : "وكان فاضلا ، يذاكر بالفقه والنحو والأدب ، ويقول الشعر [٥] وابن حجر بقوله : " أحمد بن علي بن أحمد... أحد الفضلاء " [٦]. ومن أوصافه " ماهراً " يقول ابن تغري بردي :" وكتب في الإنشاء وكان ماهرا في ذلك [٧] ، وفي ترجمة ابن حجر العسقلاني له قوله :" تفقه وتمهر وتعانى الأدب " [٨]

---

[١] الزركلي : الأعلام ، ج١، ١٧٧ ، محمود رزق سليم : عصر السلاطين المماليك ، ج٥، ٤١٢

[٢]) المقريزي : السلوك ، ج٤ ق١ ص٤٧٤-٤٧٥ ، السخاوي : الضوء اللامع ج٢ ص٨ ، ابن تغري بردي المنهل الصافي ج١ ٣٥٢

[٣] السخاوي : الضوء اللامع ، ج٢ ، ص٨

[٤] ابن تغري بردي : المنهل الصافي ج١ ص ٣٥٢

[٥] المقريزي : العقود الفريدة ، ق ٢ ، ص ٧٥-٧٦

[٦] ابن حجر العسقلاني : المجمع المؤسس ص٤٥٠

[٧] ابن تغري بردي المنهل الصافي ج١ ص ٣٥٢

[٨] ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر ، ج ٧ ، ص ٣٣٠

وكذلك يورد في المجمع المؤسس للمعجم المفهرس قوله : " مهر في الأدب ، وصنف صبح الأعشى في صناعة الإنشا " [1] ونعته الزركلي بالبحاثة [2] والمستعرض لكتاب صبح الأعشى في كتابة الإنشا، لأبي العباس القلقشندي كمثال من مؤلفاته ،

يدرك كم من المراجع عاد إليها المؤلف وبحث فيها . منها ما ذكرها ومنها ما اكتفى بذكر اسم مؤلفها ، ومنها ما لم يشر إليه بصراحة .

وأطلق عليه لقب كاتب [3] من الكتابة ، مصدر كتب ، وتطلق الكتابة على العلم ومنه قوله تعالى :﴿ أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ أي يعلمون ، وعلى حد ذلك قوله ﷺ في كتابه لأهل اليمن حيث بعث إليهم معاذا وغيره : " أني بعثت إليكم كاتبا " قال ابن الأثير في غريب الحديث : أراد عالما ، سمي بذلك لأن الغالب على من كان يعلم الكتابة أن عنده علما ومعرفة ، وكان الكاتب عندهم قليلا وفيهم عزيزا على أن الكتابة وإن كثرت أقسامها وتعددت أنواعها لا تخرج عن أصلين : هما كتابة الإنشا وكتابة الأموال ، ثم غلب في الديار المصرية اسم الكاتب على كاتب المال . وصار لصناعة الإنشاء ، اسمان : خاص ، يستعمله أهل الديوان ، وهو كتابة الإنشاء ، وعام يتلفظه العامة وهو التوقيع .

---

(1) ابن حجر العسقلاني : المجمع المؤسس ص ٤٥٠

(2)) الزركلي : الأعلام ، ج١ ، ص ١٧٧

وأما التخصيص بالإضافة إلى الإنشا ، الذي هو أصل موضوعها وهو مصدر أنشأ الشيء إذا ابتدأه أو اخترعه على غير مثال يحتذيه ، بمعنى أن الكاتب يخترع ما يؤلفه من كلام ويبتكره من المعاني فيما يكتبه من المكاتبات والولايات وغيرها ، أو أن المكاتبات والولايات تنشأ عنه [1] .

وأرى أن محمود رزق سليم ما أراد بمقولته واصفا القلقشندي ، إلا كاتب الإنشاء والمبدع إذ يقول :" كاتب منشئ أديب وبعبارة أخرى لقد كان كاتبا من كتاب الدرج المنشئين [2]. ومما يدل على ما ذهبنا إليه قول معاصريه :" كتب في الإنشاء [3] وكذلك قولهم :" وكان يعاني جميع ما يتعلق بصنعة الإنشاء[4] . ويقول ابن حجر العسقلاني :" وباشر التوقيع " [5]. والتوقيع التأثير الخفيف أو كل ما خف ، حكى أن أعرابية قالت لجارتها :"

حديثك ترويع وزيارتك توقيع " تريد أن زيارتها خفيفة وله معاني كثيرة يوردها القلقشندي [6] .

---

(1) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١ ص ٥١-٥٢

(2) محمود رزق سليم : عصر السلاطين المماليك ج ص ٤١٢

(3) ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمر، ج٧ ،ص ٣٣٠ ،السخاوي : الضوء اللامع ج٢ ص٨ ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي ج١ ٣٥١ النجوم الزاهرة ج١٣ ص ٢٨٩ ، المقريزي : السلوك ج٤ ق١ ص ٤٧٤-٤٧٥

(4) العيني : عقد الجمان (حوادث٨١٥-٨٢٤هـ) ،ص٣٣٩ / الصيرفي : نزهة النفوس ج٢ ص٤٣٣

(5) ابن حجر العسقلاني : المجمع المؤسس ٤٥٠

(6) القلقشندي : صبح الأعشى ج١ ص ٥٣

ووجه إطلاقه على كتابة الإنشاء ، أن التوقيع في الأصل اسم لما يكتب على القصص ، فإن ما يكتب في ديوان الإنشاء من مكاتبات وولايات إنما يبتنى على ما يخرج من الديوان من توقيع يخطه صاحب ديوان الإنشاء أو كاتب الدست ومن في معناهم ، فيكون التوقيع هو الأصل الذي يبنى عليه المنشئ وقد يكون سمي بالأصل الذي نشأ عنه مجازا [1] ويذكر المقريزي أنه كتب في توقيع الدرج [2] أما صاحب المنهل الصافي فيصفه بقوله "... أحد موقعي الدست ..." [3] أما حول قولهم الشافعي [4] فإنه عرف في عصرهم نسبة العالم إلى المذهب الذي يتبعه أو يدرسه ويدرِّسه [5] وقد مر بنا أن أبا العباس القلقشندي قد حصل على إجازة بتدريس المذهب الشافعي وأنه درس فيه .وقولهم "القاهري" [6] فذلك لنزوله في القاهرة [7] إذ استقر فيها عند عمله في ديوان الإنشاء وأكثر ما اشتهر به قولهم :" القلقشندي " إذ ينسبوه إلى بلدة القلقشندة ويقول القلقشندي في معرض حديثة عن القليوبية : وموقعها في

---

(١) المصدر السابق : ج١ ص ٥٣
(٢) المقريزي : درر العقود ،ق ٢ ، ص ٧٥
(٣)) ابن تغري البردي : المنهل الصافي ، ج١ ص ٣٥١-٣٥٢
(٤) المقريزي : درر العقود ، ق ٢ ، ص ٧٥ ، السلوك ،ج٤ ،ق١ ،ص ٤٧٣-٤٧٤ ، ابن حجر : المجمع المؤسس ٤٥٠ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج١٣ ص ٢٨٩ المنهل الصافي ج١ ص ٣٥٢ العيني : عقد الجمان (حوادث٨١٥-٨٢٤هـ) ، ص ٣٣٩ السخاوي : الضوء اللامع ج٢ ص٨
(٥) مصطفى الشكعه : الأصول الأدبية في صبح الأعشى ، دار الأحد "بحتري أخوان " بيروت لبنان ، ص٥٦
(٦) السخاوي : الضوء اللامع ،ج٢ ص٨
(٧) الصيرفي : نزهة النفوس ، ج ٢ ، ص٤٣٣ ، العيني عقد الجمعان (حوادث٨١٥-٨٢٤هـ) ، ص ٣٣٩ ، ابن حجر إنباء الغمر ج٧ ص ٣٣٠

الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة غير أنها من القاهرة في جهة الشمال على نحو فرسخ ونصف من القاهرة .

ومن بلادها بلدتنا " قلقشندة " وهي بلدة حسنة المنظر غزيرة الفواكه . أما ابن خلكان فيشكلها بفتح القاف وسكون اللام ، وفتح القاف الثانية والشين المعجمة وسكون النون وفتح الدال المهملة وبعدها ساكنه "قَلْقَشَنْدَة " وهكذا هي مكتوبة في دواوين الديار المصرية ، وأبدل ياقوت في "معجم البلدان " اللام راء (١) وهو الجاري على أَلْسِنَة العامة .

وكذلك أوردها المقريزي في "درر العقود " وكذلك في السلوك بالراء بدلا من اللام فينسبه بقوله "القرقشندي" .وقال ابن خلكان : " وهي على ثلاثة فراسخ من القاهرة وهي بلدة حسنة المنظر كثيرة البساتين غزيرة الفواكه .وذكرها غير هؤلاء المؤرخين باللام لا الراء (٢) أما حمزة عبد اللطيف فيقول : إنها المدينة التي يحق لها أن تباهي المدن المصرية بنجابة أبنائها فهي التي أنجبت ثلاثة من الرجال العلماء أولهم الليث بن سعد من أعظم فقهاء مصر في القرن الثاني الهجري حتى قال فيه الإمام الشافعي :" والليث أفقه من مالك ، إلاّ أن أصحابه لم يقوموا به " وقال فيه ابن وهب :" ما رأينا قط أحدا أفقه من الليث "

---

(١) الحموي ، ابو عبدالله ياقوت بن عبدالله البغدادي : معجم البلدان ، دار صادر – دار بيروت للطباعة و النشر ، ١٩٨٤ ، ٣٢٧ .

(٢) ابن حجر العسقلاني : المجمع المؤسس ص٤٥٠ ، إنباء الغمر،ج٧ ، ص٣٣٠ ، العيني : عقد الجمان (حوادث٨١٥-٨٢٤هـ) ص ٣٣٩ ، الصيرفي : نزهة النفوس ج٢ ص ٤٣٣ ، السخاوي : الضوء اللامع ج١ ص٨ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ،ج١٣ ، ص ٣٨٩ ، المنهل الصافي ، ج١ ، ص ٣٥٢

ومات الليث سنة خمس وسبعين ومائة وقيل في رثائه :

ذهب الليث فلا ليث لكم   ومضى العلم قريبا وقبر

وفي القرن الثامن للهجرة أنجبت مدينة قلقشندة رجلها الثاني صاحب بحثنا هذا ومن بعده أنجبت ابنه محمد شمس الدين الذي سنأتي عليه بالحديث [1] .

---

(1) حمزة عبد اللطيف : القلقشندي في كتابه صبح الأعشى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٦٣ص٣٩-٤٠

مولده ونشأته :

ولد أبو العباس ، أحمد بن عبد الله القلقشندي سنة ست وخمسين وسبعمائة للهجرة الموافق خمس وخمسين وثلاثمائة وألف للميلاد ، ذكر ذلك السخاوي [١] على أن هذا التاريخ لولادته متفق عليه ضمنا عند كل المؤرخين الذين ترجموا له ، وإن لم يذكروا سنة ولادته . ولعل ذلك عائد للاهتمام بسنة الوفاة ، إذ لا تعرف أهمية المولود إلا بعد نضجه وظهور عطائه ، فقد تكررت عبارة :" توفي "يوم أو ليلة " السبت عاشر جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وله خمس وستون سنة " [٢] ومن هذه العبارة نستخلص تاريخ ولادته التي أشرنا إليها عند السخاوي .

ويعود نسبه إلى بني بدر ، وفيهم كانت رياسة بني فزارة في الجاهلية ، وكانوا يترأسون جميع غطفان ، وتدين لهم قيس وإخوانه من بني ثعلبة بن عدي ، ومنهم كان حذيفة بن بدر بن عمر بن حربة بن لوذان بن ثعلبة بن عدي ابن فزارة ، وهو صاحب الفرس الموسومة بالغبراء التي أجريت مع الفرس الموسومة بداحس ، وكان بسببها الحرب المعروفة بحرب داحس بين عبس وغطفان ، على ما هو مذكور في كتب السير .

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ج٢ ص٨

(٢) المقريزي : درر العقود،ق٢ ص ٧٦، السلوك ج٤ ق١ ص٧٣؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج١٣ ص ٢٨٨ ، المنهل الصافي ج١ ص٣٥٢ السخاوي : الضوء اللامع ج٢ ص٨

و في ذلك يقول القلقشندي : " قلت وبنو بدر هؤلاء قبيلتنا التي إليها نعتز وفيها ننتسب ، ومنها جل عرب بلاد قليوبية من الديار المصرية ، ويجاورهم فيها بنو عمهم من بني مازن من فزاره ، ولكل منها بلاد تخصه ، ولا زالت بينهما العداوة والشحناء ولبني بدر منهم الرياسة والقوة والغلبة " [١].

وكان مولده في قلقشندة من أعمال قليوبية وفيها نشأ نشأة علميه وتربى تربية صحيحة ، ونال قسطا وافرا من العلوم [٢] فكان صاحب تواضع ومروءة [٣]ولعلنا نلمس هذا التواضع في كتاباته ، إذ نجده مع ما حصل من علم وتمكن في التأليف ، يقول في خطبة كتابه "صبح الأعشى في كتابة الإنشا " مشيرا لمقامته :" وأشرت فيها إلى وجه تعلقي بحبال هذه الصنعة وإن لم أكن بمطلوبها مليا ، وانتسابي إلى أهلها ، وإن كنت في النسبة إليها دعيا

وليس دعي القوم في القوم كالذي حوى نسبا في الأكرمين عريقا [٤]

ويقصد صناعة الكتابة وليس غريبا أن نجد هذا التواضع وهو من نشأ يتعلم القرآن الكريم ، ونال حظا وافرا من الثقافة على يد العلماء الأوائل ، وكان لهم أكبر الأثر في

---

[١] القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة انساب العرب ،ج ١ ، ص ١٥٠
[٢] ناظم رشيد : في أدب العصور المتأخرة ، مكتبة بسام ، الموصل - العراق ،١٩٨٥ ص١٤٧ عبد اللطيف حمزة : القلقشندي في كتابه صبح الأعشى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر مطبعة مصر ص٤١

[٣] السخاوي : الضوء اللامع ، ج٢ ، ص٨
[٤] القلقشندي : صبح الأعشى ج١ ص٩

تكويـــن شخصيته الأدبية والعلميـــة [1] وهذا التواضع والتأدب يدفعنا إلى عـــرض خاصية أخرى امتاز بها القلقشندي وهي الجرأة الأدبية ، يتضح لنا ذلـــك مـــن قولـــه : " الحمد لله الذي جعل للعرب جمالا ، تتهافت عليه سائر الأمم وخصهم من كثرة القبـــائل بما طلع في كل أفق نجم ، ورفع لهم في كل قطر علماً ، وأنالهم من الشرف الباذج مـــا لا تمتد إلى مثله يد ، ولا تتخطى إلى نظيره قدم " [2] هذا في عصر كان فيه السلاطين مـــن غير العرب [3] والقادة وكبار الساسة من غيرهم فلم يمنعه ذلك مـــن الافتخـــار بأصلـــه وعروبته من غير مواربة أو مهادنة .

ثقافته:

يذكر السخاوي [4] في ترجمته لأبي العباس القلقشندي ، أهم العلوم التي اطلع عليها . فإضافة لبراعته في الأدب ، فقـــد كتـــب فـــي الإنشـــاء ، وشـــرح جـــامع المختصرات - لكمال الدين أحمد بن عمر بن أحمد بن مهدي المتوفى ٧٥٧هـــــ - بل وعمل في نظمه . ومما يدل على قوة ذاكرته أنه كان يستحضر معظم ذلك .كما ويذكر أنه نظم سيرة المؤيد لابن ناهض مما يجعلنا نستشف من هذه الترجمة أن أبا العباس القلقشندي قد كتب نثرا ونظم شعرا .

---

[1] عمر موسى باشا ، تاريخ الأدب العربي "العصر المملوكي " ص٥٤٤

[2] القلقشندي : نهاية الأرب،ج ١ ، ص ١

[3] عمر موسى باشا : المرجع السابق ٥٤٣

[4] السخاوي : الضوء اللامع ،ج٢ ص٨

وهذا ما نجد الإشارة إليه واضحة عند ابن تغري بردي في قولـــه : "ونظـــم ونثر " [١] وهو بذلك مثل معظم علماء عصره ممن تعاني النظم مع النثر . وإن لـــم يكن له ديوان أفرد فيه شعره ، فقد وجدنا عددا مـــن المقطوعـــات المنظومـــة فـــي موسوعته "صبح الأعشى في كتابة الإنشا " جاءت في مجالات من الاستشهاد ، هـــذا مع كونه مناهضا للشعر منتصرا ومنحازا للنثر فيقول :" والنثر أرفع منـــه درجـــة وأعلى رتبة ، وأشرف مقاما ، وأحسن نظاما ، إذ الشعر محصور في الوزن والقافية يحتاج الشاعر معها إلى زيادة الألفاظ والتقديم والتأخير ... والكلام المنثور لا يحتاج إلى شيء من ذلك . فتكون ألفاظه تابعة لمعانيه ، ويؤيد ذلك إذا اعتبرت ما نقل مـــن معاني النثر إلى النظم وجدته قد انحطت رتبته [٢]، فقد كان باعه في النثر أطول ، إذ اهتم في الإنشاء ، وعمل موسوعته المذكورة :" وجمع فيها جمعا كبيرا مفيـــدا " [٣] ولعل ذلك عائد لعمله في ديوان الإنشاء في عهد السلطان الظاهر برقوق ، وتعـــود أهمية هذا الديوان في ذلك العصر خاصة ، أنه كان لا يعمل فيه سوى أقطاب النـــثر والبلاغة ، الذين تؤهلهم معارفهم الواسعة للوقوف على شـــؤون الحكـــم والسياســـة الداخلية والخارجية ، وسير العلائق الدبلوماسية بين المماليك وباقي الأمم ، ولديـــوان الإنشاء بمصر ... منذ أيام الدولة الفاطمية تاريخ حافل ، وقد لبث عصورا مدرســـة أدبية زاهرة ، يجتمع فيها أقطاب الكتاب وأئمة النثر والبلاغة [٤] حتى وصف أبو

---

[١] ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج١٣ ص٢٨٨

[٢] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١ ص ٥٨

[٣] ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج١٣ ص٢٨٨

[٤] نخبة من الأساتذة : أبو العباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى ، ص ١٥

العباس القلقشندي علم الكاتب بقوله :" على أن كاتب الإنشاء في الحقيقة لا يستغني عن علم ، ولا يسعه الوقوف عند فن " [١]وينقل عن ابن الأثير قوله في المثل السائر :" أن صاحب هذه الصناعة يحتاج إلى التشبث بكل فن من الفنون حتى أنه يحتاج إلى معرفة ما تقوله النادبة بين النساء والماشطة عند جلوة العروس ، وإلى ما يقوله المنادي في السوق على السلعة ؛ فما ظنك بما فوق هذا وذاك لأنه مؤهل أن يهيم في كل واد ، فيحتاج إلى أن يتعلق بكل فن " [٢] حتى أنهم لم يجيزوا تعريف صاحب الكتابة بالكاتب ، في حين جاز تعريف صاحب الفقه بالفقيه وصاحب الكلام بالمتكلم ، وصاحب النحو بالنحوي ، إلا صاحب الكتابة فلا يقال فلان الكاتب لما يفتقر إليه من الخوض في كل فن [٣] .

على أن المعرفة التي اشترطوها في كاتب الإنشاء لم يجعلوها على نفس الحد من الإلمام ، فمنها ما يحتاج إلى المعرفة الدقيقة كاللغة التي منها يستمد الألفاظ ، والنحو الذي به استقامة الكلام وعلوم البلاغة من المعاني والبيان والبديع التي بها يحصل التحسين والتقبيح. ومنها ما يعرف بطريقة العرض كالطب والهندسة والهيئة "الفلك" وغيرها من العلوم. حتى أنه ربما يحتاج معرفة مصطلح سفل الناس ، لكتابة أمور هزلية:كمعرفة أحوال الطفيلية فيما يكتب به الطفيلي امتحانا للخاطر

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١ ص١٤٥

(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٤٥

(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٤٦

أو ترويحا عن النفس[١].

كما كان للكاتب صفات وآداب منها ما هو واجب لا يسع إهمالها وهي عشر صفات : الإسلام ، والذكورة ، والحرية ، والتكليف ، والعدالة ، والبلاغة ، ووقور العقل ، وجزالة الرأي ، والعلم بمواد الأحكام الشرعية والفنون الأدبية ، وقوة العزم ، وعلو الهمة ، وشرف النفس ، والكفاية لما يتولاه . والصفات العرفية ؛ فيكون أديبا حاد الذهن ، قوي النفس ، حاضر الحس ، جيد الحدس ، حلو اللسان ، له جراءة ، وفيه تؤدة ، شريف الأنفة ، عظيم النزاهة ، كريم الأخلاق ، مأمون الغائلة، مؤدب الخدام ، معتدل القامة ، صغير الهامة ، صادق الحس ، لطيف المذهب ، نظيف المجلس ، ظاهر المروءة ، عطر الرائحة ، دقيق الذهن ، حسن البيان ، رقيق حواشي اللسان ، حلو الإشارة.

وأما في آدابهم فهي أن يكون حسن السيرة وشرف المذهب ، وحسن العشرة[٢] كما ويشير القلقشندي إلى عدد من الأنبياء _عليهم السلام_ الذين كتبوا لغيرهم : كيوسف _عليه السلام_ ، إذ كان يكتب للعزيز ، وهارون ويوشع _عليهما السلام_ كانا يكتبان لموسى _عليه السلام_ وسحبان بن داود كان يكتب لأبيه ، ويحيى بن زكريا كان يكتب للمسيح _عليه السلام_ [٣] .

---

[١] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٤٦

[٢] المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٦١-٧٠

[٣] المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٩

وإذا كانت هذه الصفات من شروط العمل في ديوان الإنشاء ، فإننا نستدل على توافرها في أبي العباس أحمد بن عبد الله القلقشندي ، والذي عمل فيه ما بين عامي "٧٩١-٨١٦"هـ على أقل تقدير وربما حتى تاريخ وفاته .

وإذا لم يتمكن القلقشندي طوال هذه الفترة من أن يكون على رأس ديوان الإنشاء فإن ذلك لا يعني أنه لم يكن يمتلك المؤهلات الأدبية والعلمية لذلك ، بل ربما كان يربأ بنفسه عن أن يسلك إليه سبل التزلف والرشوة ، كما كان سائدا في ذلك العصر [١] وليس أدل على قدرته من شهادة المترجمين له مشيرين إلى قدرته في الإنشاء إذ يصفه العيني بقوله : "وكان يعاني جميع ما يتعلق بصنعة الإنشاء" [٢].

وقول ابن تغري بردي " وكتب في الإنشاء وكان ماهرا في ذلك " [٣]وكذلك قول الصيرفي :" وكان يعاني صناعة الإنشاء ، وصنف فيه كتابا أسماه صبح الأعشى في كتابة الإنشا " [٤]على أن ثقافة القلقشندي اتسعت لتشمل علوم الفقه والفرائض ،وفي ذلك يقول المقريزي :" وشارك في الفقه وعرف الفرائض .. وكتب في الفقه وغيره " [٥] ومثل ذلك وصف ابن تغري بردي في كتابيه "النجوم الزاهرة " و "المنهل الصافي " فيقول " أحد موقعي الدست إماما فقيها بارعا في العربية ،

---

(١)) الأبياري : تحقيق كتاب القلقشندي : صبح الأعشى التقديم ص ١٠
وانظر المقريزي ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، دار الهلال ، ١٩٩٠ ، ص ٨٢

(٢) العيني : عقد الجمان (حوادث٨١٥-٨٢٤هـ) ، ص ٢٣٩

(٣) ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ١ ، ص ٣٥١-٣٥٢

(٤) الصيرفي : نزهة النفوس والأبدان ج ٢ ، ص ٤٣٢

(٥) المقريزي : السلوك ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٤٧٣ - ٤٧٤

مشاركا في الفقه و الفرائض ، ناب في الحكم سنين ، كتب في الإنشاء ، وكان ماهرا في ذلك ، له نظم ونثر ، صنف في الفقه ، كان له فضل وأفضال وقورا في الدولة "[1] .

وكما لاحظنا خلال هذه الترجمات أنه شغل منصبا أخر في الدولة،ساعده في الإطلاع على أمور أخرى من مناحي الحياة والدولة ، وهو اشتغاله في ديوان الأحباس. ذكر ذلك العيني في "عقد الجمان" بقوله :" وكانت له مباشرة في ديوان الأحباس "[2] وكذلك ما أورده صاحب " نزهة النفوس والأبدان " بقوله :" وكانت له مباشرة في ديوان الأحباس "[3] .

ويحدثنا أبو العباس القلقشندي فيما ينقله عن ابن طوير حول ديوان الأحباس بقوله :" وهي أوكد الدواوين مباشرة ، ولا يخدم فيها إلا أعيان كتاب المسلمين من الشهود المعدلين"[4] .

ولعل أكثر ما يهمنا في هذا الديوان من أنه أوكد الدواوين أي أدقها تنظيما ، وكذلك أنه لا يقدم فيها إلا أعيان كتاب المسلمين ، من الشهود المعدلين ، وهذا ما يدلنا على أن هذه الصفات قد توافرت في أبي العباس من العدالة والدقة وعلو المكانة بين أعيان كتاب المسلمين ، فوصل إلى المباشرة في هذا الديوان .

---

(1) ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ١ ، ص ٣٥١ - ٣٥٢ / النجوم الزاهرة ج ١٣ ، ص ٢٨٨

(2) االعيني : عقد الجمان (حوادث٨١٥-٨٢٤هـ) ، ص ٢٣٩

(3) الصيرفي : نزهة النفوس والأبدان ج ٢ ، ص ٤٣٢

(4) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٩٠

وتشي هذه الإشارات التي تشير بأن القلقشندي كان يمتلك ثقافة حسابية ، وأنه امتلك أدوات الحساب ، واستخراج الأموال في وجوهها ، واستيفاء الحقوق السلطانية فيها على أن القلقشندي الذي عمل في كلا المركزين – ديوان الأحباس وديوان الإنشاء– يفضل كتابة الإنشاء على سائر الكتابات ، إذ يرى أن كتابة الإنشاء مستلزمة للعلم بكل نوع من الكتابة ، فكاتب الإنشاء يحتاج فيما يكتبه من ولايته ومكاتباته فيما يتعلق بكتابة الأموال ، إلى أن يمثل لهم في وصايا من صناعتهم ما يعتمدونه . ويبين لهم ما يأتونه ويذرونه ، فلا بد أن يكون عالما بصناعة من يكتب له ، بخلاف كاتب الأموال ، فإنه يعتمد على رسوم مقررة وأنموذجات محررة لا يكاد يخرج منها ، ولا يحتاج فيها إلى تغيير ولا زيادة ولا نقص . وكذلك اشتمال كتابة الإنشاء على البيان الدال على لطائف المعاني ، التي هي زبد الأفكار ، جواهر الألفاظ فيها يتنافس أصحاب المناصب الخطيرة ، والمنازل الجليلة أكثر من تنافسهم في الدر والجوهر [1] .

وثمة عمل أخر باشره القلقشندي كان مدعاة للتوسع في ثقافته إذ خدم نائب الإسكندرية [2] صلاح الدين بن عرام [3] مدة [4]

---

(1) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٥٥

(2) كانت الإسكندرية نيابة جليلة في أيام المماليك تضاهي طرابلس وحماة وصفد ، من المملكة الشامية ، وبها كرسي سلطنة ، ونائبها من الأمراء المقدمين ، يركب المواكب السلطانية ، وكان ابتداء ترتيب هذه النيابة في سنة ٧٦٧هـ حيث أغار الفرنج عليها ، فتكوا بأهلها في زمن شعبان بن حنين وكانت قبل ولاية تعهد في جملة الولايات . انظر القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٤

(3) هو الخليل بن علي بن عرام (٧٨٢ هـ – ١٣٨٠ م) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج ١ ، ص ٢٢٣ – ٢٢٤ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١١ ، ص ١٨٣ – ١٨٤

(4) المقريزي : درر العقود ، ق ٢ ، ص ٧٥

ناب في الحكم[1] عن قاضي القضاة جلال الدين البلقيني [2] في مقر القاهرة [3]وموضوع قضاء القضاة التحدث في الأحكام الشرعية وتنفيذ قضاياها ، والقيام بالأوامر الشرعية، والفصل بين الخصوم ، ونصب النواب للتحدث فيما عسر عليه مباشرته بنفسه، وهي أرفع الوظائف الدينية ، وأعلاها قدرا وأجلها رتبة [4] وهذا ما يوصلنا للاعتقاد بأن القلقشندي قد احتك بأمور الحياة السياسية في خدمته لنائب الإسكندرية وفي التعامل مع أمور العامة والخاصة في نيابته في الحكم عن القاضي البلقيني مما يجعله مطلعا على ما كانت تعانيه طبقات المجتمع المختلفة ، وما يدور فيها من تدبير ، ودسائس وتغيير حقائق ، ويدفعه هذا لتحري الدقة فيما يكتب ونشير وعلى وجه الخصوص في تلك الفترة التي عاصرها .

وإذا كنا لا نستطيع القول بأن القلقشندي كان جغرافيا – وهو لا يدعي ذلك – وإنما رؤيته الموسوعية جعلته يرى في الجغرافيا ، أداة ضرورية لتكوين الكاتب المثالي ، إذ كان في عهده هو النموذج الطيب للرجل المثقف بلغة العصر ،

---

[1] المقريزي : درر العقود ، ق ٢ ، ص ٧٥ ،السلوك ، : ج ٤ ، ق ١ ، ص ٤٧٣ ، ابن حجر :المجمع المؤسس ، ص ٤٥٠ ، إنباء الغمر ، ج ٧ ، ص ٣٣٠ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢ ، ص ٨ ، المنهل الصافي ، ج ١ ، ص ٣٥٢

[2] العيني : عقد الجمان (حوادث٨١٥-٨٢٤هـ) ، ص ٣٣٠ ، الصيرفي : نزهة النفوس ، ج ٢ ، ص ٤٣٢

[3] ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٣ ، ص ٢٨٨

[4] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٣٤ – ٣٥

ولذا لم يكن غريبا أن يفرد للجغرافيا المقالة الثانية من المقالات العشر التي تضمنها كتابه صبح الأعشى في كتابة الإنشا [١].

وهو في ذلك يتحدث عن الجغرافيا السياسية ويتحدث عن الديار المصرية ، ثم ما يحيط بها من بلدان حتى يشتمل العالم الإسلامي في عصره ثم يتحدث في الجغرافيا الطبيعية .

فيذكر ما يكون في البلدان من بحار ويعكف على الأنهار ، فيصف النيل وما يكون فيه من فيضانات ، والمقاييس المُقامة عليه وما له من خلجان وتفرعات ، ويذكر أنهارا أخرى مثل العاصي في الشام ، والفرات في العراق ، ثم يتحدث عن طبيعة الأرض ، ويخص بالتفصيل الأرض المصرية ومما تتصف بها من صفات وصلاحيتها للزراعة ، والمعوقات التي تواجهها ، فيدخل في الجغرافيا الاقتصادية فلم يقتصر في حديثه على مصر وأحوالها ، بل تحدث عن الغرب وخاصة تلك التي كانت على علاقة تجارية مع مصر ، كإيطاليا بمدنها التجارية المشهورة ؛ كالبندقية وجنوة وبيزة ، ولم يكتف القلقشندي بإبراز طبيعة العلاقات بين مصر والمدن الإيطالية ، بل أوضح أيضا أن مصر كانت تكاتب صاحب البندقية كلما دعت الحاجة إلى ذلك [٢].

---

(١) نخبة من الأساتذة : أبو العباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى ، ص ٢٠٣

(٢) المرجع نفسه : ص ١٤٩ ، ص ١٦٥

وهذا يذكرنا بإطلاع القلقشندي بالتاريخ واهتمامه به ، ومؤلفاته تدل على سعة ثقافته التاريخية ، إذ ألف في شؤون الخلافة ومتعلقاتها ، كما كتب في الأنساب والسير ولعل ذلك ما دفع سعيد عاشور للقول :" أن القلقشندي يتمتع بحاسة تاريخية قوية ، فهو إلى جانب كونه أديبا فقيها ، يبدو في كتاباته في صورة المؤرخ الواعي المحيط ببواطن الأمور ، القادر على الربط والاستنتاج ، المستوعب لكثير من كتب السير والتاريخ وهو عندما يتعرض للتاريخ يقول ما نصه : " اعلم أن التاريخ بحر لا ساحل له ، وقد أكثر الناس فيه من التصنيف على اختلاف فنونه ، ما بين مختصر ومبسوط ، من مقتصر على فن ومستوعب لفنون " [1]. وفي الحديث حول ثقافة القلقشندي يشير لإحدى رسائله تلك المناظرة التي يعقدها بين العلوم[2] والتي تزيد على سبعين علما يظهر لنا من خلالها ، مدى معرفته بهذه العلوم ودرايته بما اختص به كل علم منها ، فيصفها مبينا ما يزيد في مكانتها على غيرها ويعرض لها من مثالب قد ترفع غيرها درجة . ولعل القلقشندي ما أراد من هذا العرض إلا إظهار ما أحاط به من علم وسعة إطلاع ودراية بشتى العلوم التي كانت معروفة بعصره .أضف إلى ما تقدم فإن هناك العديد من العوامل التي ساهمت في اتساع ثقافة القلقشندي لعل من أهمها ؛ تلك الجولات والأسفار العديدة في البلاد الخاضعة لحكم المماليك [3] .

---

[1] المرجع السابق ، ص ٢٩ ، وانظر القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٤١٢

[2] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٢٠٦

[3] نخبة من الأساتذة : القلقشندي وكتابه صبح الأعشى ، ص ١٤٧

آثاره :

وأنتجت هذه الثقافة الواسعة لأبي العباس القلقشندي ، العديد من المؤلفات التي ساهمت في إغناء المكتبة العربية ، وقد طبع قسم منها ، وينتظر القسم الأخر التحقيق والنشر وهي :-

١. "الغيوث الهوامع في شرح المختصرات والمختصرات الجوامع " وهو شرح لجامع المختصرات المنسوب للشيخ كمال الدين أحمد بن مهدي المدلجي المتوفى سنة "٧٥٧هـ" . وقد اختبر في هذا الكتاب ضمن الإجازة التي منحها له ابن الملقن ، وأشار في تلك الإجازة لبراعة القلقشندي في ذلك الشرح وجلاء غامضه : " فاستحضر بحضرتي مواضع منه جمة ، وأزال ببديع فصاحته جملة مدلهمه ، وأظهر من مشكلاته ما يعجز عنه اللبيب ومن أغاريبه ما يقف عنده البارع الأريب " [١] .

٢. " شرح الحاوي الصغير في الفروع " [٢] لنجم الدين عبد الغفار القزويني المتوفى سنة "٦٦٥هـ".

٣. " كنه المراد في شرح بانت سعاد " وهي قصيدة لكعب بن زهير في مدح النبي *صلى الله عليه وسلم* أشار إليه القلقشندي في كتابه نهاية الأرب ص٤٢٠ فيقول :"وقد وضعت على هذه القصيدة شرحا بديعا سميته " كنه المراد في شرح بانت

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٢٦

(٢) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢ ، ص ٨ ، عبد اللطيف حمزة : القلقشندي في كتابه صبح الأعشى ، ص ٤٣ ، ناظم رشيد : في أدب العصور المتأخرة ، ص ١٤٧

سعاد" فتح الله فيه بمعان لم أقف عليها في شرح لها من قبل " [١] .

وقد ذكر بروكلمان: أن للقصيدة تسع نسخ من الشرح ، تحت العنوان نفسه ومنسوبة للسيوطي [٢] . ولعل عبد اللطيف حمزة أصاب في مقولته : أن لهذه القصيدة شروحا كثيرة ، من الجائز أن يكون شرح القلقشندي واحداً منها[٣] .

٤. " حلية الفضل وزينة الكرم ، في المفاخرة بين السيف والقلم " وهي رسالة أنشأها للمقر الزيني أبي زيد الدودار القاهري ، وقد أوردها في كتابه صبح الأعشى [٤].

٥." الكواكب الدرية في المناقب البدرية " وهي المقامة ، التي أنشأها في مدح البدر بن فضل الله العمري رئيس ديوان الإنشاء ، وكانت البنية الأولى لتأليف موسوعته "صبح الأعشى في كتابة الإنشا" ومن بعده مختصره " ضوء الصبح المسفر وجني الدوح المثمر " اللذان سنأتي عليهما ، ويقدم لهذه المقامة بقوله :"إني أنشأتها في حدود سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ، عند استقراري في ديوان الإنشاءفي الأبواب الشريفة وأنها اشتملت – مع الاختصار– على جملة جمة من صناعة الإنشاء " [٥] .

---

[١] أنظر عبد اللطيف حمزة : القلقشندي في كتابه صبح الأعشى ، ص ٤٤

[٢] بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، نقله الى العربية عبدالحليم النجار ، دار المعارف القاهرة ، ط ٥ ، ١٩٨٣ ج ١ ، ص ١٥٨ – ١٥٩

[٣] عبد اللطيف حمزة : القلقشندي في كتابه صبح الأعشى ، ص ٤٤

[٤] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٢٣١

[٥] المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ١١١

وقد جاءت هذه المقامة بين المدح لرئيس الديوان ، وإظهار أهمية الكتابة وكتابة الإنشاء على وجه الخصوص ، ولغتها مكثفة لدرجة أنه أشار عليه أصحاب الرأي بشرحها وبسط معانيها .

٦ . " صبح الأعشى في كتابة الإنشا" وهي موسوعة مطبوعة وتعد أهم ما كتب القلقشندي ذيوعا وانتشارا ، وأنها التي يعرف بها هذا الرجل[١] .

ويقول فيه الدكتور طه حسين " وهي خير ما أخرج للناس في هذا العصر ، عصر الموسوعات الكبرى ، ولو لم يكن له إلا ذلك لكفاه " [٢] ولما كانت هذه الموسوعة المرجع الرئيس للبحث فقد ارتأيت أن أعرضها بشيء من التفصيل ، فحول دوافع تأليفها يقول القلقشندي :" إلا أنه قد وقعت موقع الوحي والإشارة ، ومالت إلى الإيجاز ، فاكتفت بالتلويح عن واسع العبارة ، فعز بذلك مطلبها – الإشارة لمقامته سابقة الذكر– .....فأشار من رأيه مقرون بالصواب ، ومشورته عرية عن الارتياب ، أن اتبعها بمصنف مبسوط ، يشتمل على أصولها وقواعدها ....ناقلا للناظر في هذا المصنف عن رتبة أن يَسْأل فلا يُجاب إلى رتبة أن يُسْأل فيجيب .....فسميته " صبح الأعشى في كتابة الإنشا" راجياً من الله تعالى أن يكون المقصود وافيا وللعليل شافيا " [٣] .

---

[١] عبد اللطيف حمزة : القلقشندي في كتابه صبح الأعشى ص ٥٠ / نخبة من الأساتذة : أبو العباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى ، ص ١٤٧

[٢] عمر موسى باشا :تاريخ الأدب العربي (العصر المملوكي) ص ٥٤٩

[٣] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٩ – ١٠

وقد جاءت هذه الموسوعة في عشر مقالات ، تتوسط مقدمة وخاتمة . أما المقدمة فقد اشتملت على خمسة أبواب ،أولها يبين فضل الكتابة ، ورفعت مكانتها ، والباب الثاني يوضح مدلول الكتابة لغة واصطلاحا ، ومعنى الإنشاء وعلاقته بالكتابة . أما الثالث : فيختص بصفات الكتاب وآدابهم ،والرابع : يتحدث حول حقيقية ديوان الإنشاء منذ وضعه الأول في الإسلام ، حتى عصر المؤلف . والخامس : يتناول قوانين ديوان الإنشاء ،وترتيب وأوضاع أهله ومكانتهم

والمقالة الأولى من المقالات العشر، تتحدث حول ثقافة الكاتب ،وما يحتاج إليه من المعارف والأدوات ،مقسما إياها إلى قسمين كبيرين هما : الأمور العلمية ، والأمور العملية ، أما الأمور العلمية ،فهي ما يتعلق بعلوم العربية ،والقرآن الكريم والحديث الشريف ،والخطب والمكاتبات ،ودواوين الشعراء والأمثال. والتاريخ والأنساب والفقه، وكذلك الوصف للدواب بأنواعها ، والصيد والآلات المملوكية ، وإلى ذلك الإلمام باللغات الأعجمية ، وأما الأمور العملية : فهي فيما يحتاجه الكاتب من أمور الخط وتوابعه . وجعل المقالة الثانية : للحديث عن المسالك والممالك . وهي أربعة أبواب : يتحدث الأول منها عن الأرض ، من حيث الشكل والجهات ، وخطوط الطول ودوائر العرض ،والأقاليم والبحار والبلدان ، والثاني في الحديث عن الخلافة . والثالث: يخص به " الديار المصرية " منذ دخولها في الإسلام حتى عصره ، محاولا إظهار فضل مصر على غيرها من البلدان ،وما فيها من آثار ومزروعات ، ونيلها بفيضانه وخلجانه ، وكذلك قواعدها القديمة، ثم يتبع ذلك الحديث عن المملكة الشامية والحجاز، من حيث الحدود والخواص، والعجائب

والعمائر ، والوحش والمواشي والطيور ، والزروع والرسوم ، ومن ملكها منذ القدم حتى عصر المؤلف.

أما الباب الرابع ، فيتحدث فيه عن الممالك المحيطة بالديار المصرية . أما المقالة الثالثة : فقد شملت أربعة أبواب . تحدث في الباب الأول: عن الأسماء والكنى . والألقاب والنعوت . وما يخص منها أهل الإسلام ، وما يخص اليهود والنصارى ، أما الباب الثاني : في بيان الورق ومقادير القطع ، وما يناسبها من الأقلام، والباب الثالث : بيان كتابة الملخصات ومقادير قطع الورق ، وأخيرا الباب الرابع : ويشمل الفواتح والخواتم ، واللواصق كالترتيب ، وما يترتب به وكذلك التاريخ العربي والعجمي، والمقابلة بين التاريخين .

المقالة الرابعة :-

تدور حول المكاتبات الصادرة عن ملوك مصر ،وتأتي هذه المقالة في بابين: جاء الأول ، في الأمور العمومية للمكاتبات ،وهو في فصلين: الأول في المقدمات ،وما يناسبها ،والثاني: في أصول المكاتبات وترتيبها ، وما يخاطب به أهل الإسلام وغيرهم ،وكيفية طي الكتاب، وفتحه وفضه وقراءته وحفظه .

أما الباب الثاني: فيدرس مصطلح المكاتبات الدائرة بين كتاب الإسلام ،وهو في ثمانية فصول . الأول :في الكتب الصادرة عن الرسول، _صلى الله عليه وسلم_ ، والثاني :الكتب الصادرة عن الخلفاء ، ابتداء وجوابا . والثالث :في الكتب الصادرة

عن الملوك ومن في معناهم . الرابع :في الكتب الصادرة عن ملوك الديار المصرية وأهل المملكة في مصر والشام والحجاز ومن لهم صلة بدولتهم . والخامس ،في الكتب الواردة إلى السلطان من مصر ، أما السادس: فهو في المكاتبات الإخوانية مما كان عليه المصطلح حتى استقر عليه الحال في عصر المؤلف . والفصل السابع: في مقاصد المكاتبات من الأمور الخاصة بالملوك والخلفاء ، كالبشارة بولاية الخلافة والدعاية للدين ، والفصل الثامن :في طريقة إخفاء ما كتب في الكتب، وله عدة طرق :أما بالترجمة أو بالمعالجة .

المقالة الخامسة :- في الولايات، وفيها أربعة أبواب .

الباب الأول :- في بيان طبقات الولايات ،وما على الكاتب مراعاته من الكتابة .

الباب الثاني :- في البيعات ، في معنى البيعات، وما يكتب للخلفاء فيها، واختلاف مذاهب الكتاب في ذلك .

الباب الثالث :- في العهود ، بيان معنى العهد ، وبيان أنواع العهود ،مما يكتب به للخلفاء عن الخلفاء، وما يكتب به للملوك عن الخلفاء ، ومذاهب الكتاب في ذلك ، وقد ذكر نسخ من ذلك .

الباب الرابع :- في الولايات الصادرة عن الخلفاء لأرباب المناصب من أصحاب السيوف والأقلام، وهو في ثلاثة فصول ، الأول: فيما يكتب عن الخلفاء ،من الصحابة وخلفاء بني أمية وبني العباس .... الثاني: فيما يكتب من الولايات عن

الملوك لأرباب السيوف والأقلام . والفصل الثالث: فيما يكتب عن نواب السلطنة في الممالك الشامية لأرباب السيوف والأقلام .

المقالة السادسة :- وفيها أربعة أبواب ، الباب الاول: في القضايا الدينية ،فيما كتبه القدماء، ومن كتب في عصر المؤلف . والباب الثاني: فيما يكتب في الاطلاقات والباب الثالث : في الطرخانيات ، أرباب السيوف والأقلام . الباب الرابع : في تحويل السنين ، وما يكتب في التوفيق بين السنين الشمسية والقمرية .

المقالة السابعة :-

وفيها بابان : الباب الأول في ذكر مقدمات الاقطاعات من أمور تتعلق بمعناها ، وأصل وصفها في الشرع ، وأول من وضع ديوان الجيش في الإسلام ، وفي بيان حكم الإقطاع ، وانقسامه إلى قطاع تمليك واستغلال ، الباب الثاني : فيما يكتب في الإقطاعيات في القديم والحديث . وفي أصل ذلك في الشرع وما أقطعه الرسول _صلى الله عليه وسلم_ .

المقالة الثامنة :-وهي في بابين . الأول : فيما يتعين على الكاتب معرفته من أقسام الأيمان ، وما يقع به القسم من الأقسام التي أقسم الله تعالى بها . والباب الثاني : في نسخ الأيمان المتعلقة بالخلفاء ، والمتعلقة بالملوك..

المقالة التاسعة :-

وهي في العقود والفسوخ وتقع في خمسة أبواب :-

الباب الأول : في عقد الأمان لأهل الإسلام وأهل الكفر ، و إيراد نسخ

من ذلك.

الباب الثاني : في الدفن وأصوله العربية ، وما يكتب في الدفن عن الملوك.

الباب الثالث : فيما يتعلق بأشل الذمة وما يكتب لهم ، وإلزامهم على ما يعقـــد لهم به .

الباب الرابع : من الهدن بين ملوك الإسلام وملوك الكفر ، وما على الكـــاتب معرفته ، من معاني وألفاظ ، واختلاف مذاهب الكتاب بين الشرق والغرب في ذلك ، وإيراد نسخ من ذلك ، وما كان بالديار المصرية .

الباب الخامس : في عقود الصلح بين ملكين مسلمين ، وفيما يكتب في هـــذه العقود ، وذكر أمثلة على ذلك .

المقالة العاشرة :-

وهي في المكاتبات الإبداعية ، الخارجة عن مجال الكتابة الديوانية ، وهي في بابين الباب الأول : في الجديات مثل : المقامات والرسائل، والمناظرات والمفاخرات ومقدمات البندق ، والصدقات والإجازات ، وعراضات الكتب والمرويات والقصائد .

الباب الثاني : في الهزليات فيما اعتنت به الملوك وغيرهم .

الخاتمة:

وهي في أربعة أبواب : الباب الأول : في البريد ، معرفة معنى البريد لغـــة واصطلاحا ، وأول من وضعه في الجاهلية والإسلام ، وذكر مراكز البريد في الديار المصرية والشامية . الباب الثاني : في الحمام الرسائلي ، وذكر أبراجه المصريـــة والشامية ، واعتناء الملوك بشأنه في القديم والحديث ، الباب الثالث : فيتحدث فـــي

مراكب الثلج ، الآتي من البلاد الشامية إلى مصر . الباب الرابع : في المناور والمحرقات ، فالمناور ، مواضع رفع النار ليلا والدخان نهارا ؛ للتنبيه لحركة التتار على البلاد الشامية ، والمحرقات : هي إرسال الثعالب والكلاب المشتعلة ؛ لحرق زروع التتار.

٦. " ضوء الصبح المسفر وجني الدوح المثمر " وهو مختصر لكتابه " صبح الأعشى في كتابة الإنشا " ، ولم يطبع منه سوى الجزء الأول في مطبعة الواعظ في القاهرة سنة ١٣٢٤هـ ، ومنه نسخة في دار الكتب المصرية في ٤٨٤ صفحة " [١].

٧. " نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب " ألفه للمقر الجمالي يوسف الأموي[٢] ، كما ذكر ذلك القلقشندي في خطبته ، وذكر صاحب "كشف الظنون" أنه ألفه لأبي الجود بقر بن راشد أمير العربان في البلاد الشرقية والغربية ، وقد ناقش الأبياري هذا التضارب في مقدمة تحقيقه لهذا الكتاب ، وكانت النتيجة قوله :" أكاد أجزم بأن الابن ، أهدى مؤلف أبيه بعد وفاته إلى أبي الجود هذا وأنه أمضى – أي وَقَع– على الإهداء باسمه ولعله نسخ منه نسخة فرغ منها سنة ٨٦١هـ ، وهي النسخة الأم لهذا الكتاب ، فمنها نقلت النسخ الأخرى [٣] وهو مؤلف في الأنساب وتاريخ العرب في الجاهلية .

---

(١) جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٣ ، ص ١٤٢

(٢) محمد عبد الرسول إبراهيم : تعريف بصبح الأعشى ، الطبعة الأميرية ، ج ١ ، ص ٢٤

(٣) الأبياري : مقدمة نهاية الأرب

٨. " قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان "

وهو أيضا كتاب في الأنساب ، ولعله استدرك فيه ما فاته في كتابه السابق – نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب– وقام بتعديل بعضه الأخر ، كما نلحظ التداخل في المؤلفين ، يقول في المقدمة مشيرا إلى " نهاية الأرب" يحتوي على ذكر القبائل التي لا يستغني كاتب الإنشاء ، عن معرفتها والأخذ بتفاصيلها إنما هي ما يحتويه نطاق الديار المصرية من عربان الزمان إذ قد تدعو حال السلاطين إلى مكاتبتها[١]

.

٩. " مآثر الأنافة في معالم الخلافة"

وقد ألفه للديوان " العزيزي العالي المولوي السيدي النبوي الامامي الأعظمي المعتضدي [٢] ، وقد أشار فيه إلى أهمية الخلافة ، وأنها رفعت من قدر الديار المصرية ، بعد أن حلت فيها بقوله :" أحمده على أن رفع قدر الديار المصرية ، بنقل الخلافة إليها وقدمها على سائر الممالك ، فأمست ومدارها في المهمات عليها "[٣] .

وأشار في حديثه عن الخليفة المعتضد بالله أبي الفتح داود ، وإلى أنه أراد من تأليف هذا الكتاب خدمة الخزانة العالية : فقال :" أحببت أن أخدم خزانته العالية

---

(١) القلقشندي : قلائد الجمان في التعريف بقبائل العربان أ – ٤

(٢)عبد الستار أحمد : مقدمة تحقيقه لمآثر الإنافة في معالم الخلافة للقلقشندي ج ١ ، ص (ب).

(٣) القلقشندي : مآثر الأناقة في معالم الخلافة ، ج ١ ، ص ١

بتأليفه في معالم الخلافة ، يشتمل على دقائق حقائقـــها ، ويتكفـل بذكـر لوازمـــها المستطرفة ولواحقها ، محليا له من جواهر المناقب المعتضديه ، بما يعلو به قدره وتعلو به قيمته ، ويرتفع به ذكره ، سيسير هذا التأليف بانتسابه إليه في الآفاق سير المثل ، ويخلد بذكر مناقبه الشريفة ذكره على مر الدهـــور وتعـــاقب الـــدول ، وسميته "مآثر الأنافة في معالم الخلافة " (١) .

ومن خلال هذا التعداد والمطالعة في مؤلفات القلقشندي ، وإذا مـــا اســـتثنينا شروحه في الفقه وشرحه " لبانت سعاد " فنجد أن " ضوء الصبح " جاء اختصـــــارا لصبح الأعشى و أن " نهاية الأرب" جاء توسعا لما ورد في " الصبح" مـــن مســـائل الأنساب وجاء " قلائد الجمان" استدراكا عليه ليتمكن كاتب الإنشاء من الإحاطة بخبر العربان وحتى كتابه الأنافة في معالم الخلافة ما هو إلا توسعا في ما جاء من أمـــور وهي عمل إبداعي أدبي فأرى أن معظم كتابة القلقشندي تعود إلى هذا العمل المقامي الإبداعي وأنها أصل له ، وهي البنية الأولى في بنيات الإبداع عند القلقشنـــدي .

---

(١) القلقشندي : مآثر الإنافة في معالم الخلافة ج ١ ، ص ١

إجازات القلقشندي :

أولها : إجازته بالفتا :

أما الإجازة بالفتيا ، فقد جرت العادة أنه إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس ، أن يأذن له شيخه في أن يفتي ويدرس ويكتب له بذلك [١] .

ولما كان القلقشندي ممن شارك [٢] ، وذاكر في الفقه [٣] وبرع [٤] ، وصنف فيه ، وكان إماما فقيها له ، بل وأضاف إلى ذلك براعته في العربية [٥] وعلوم البلاغة و الإنشاء [٦] فقد أجاز شيخه سراج الدين أبو حفص عمر بن أبى حسن ابن الملقن بالفتا والتدريس ، على مذهب الإمام الشافعي _ "رضي الله عنه" _ ، عند قدوم ابن الملقن ثغر الاسكندرية ، في سنة ثمان وسبعين وسبعمائة للهجرة . وكان " سن أبي العباس أحمد بن عبد الله القلقشندي وقت ذاك : إحدى وعشرون سنة ويقول في ذلك وأن يفتي من قصد الاستفتاء ، خطاً ولفظاً على مقتضى مذهبه الشريف المشار إليه ...لعلمه بديانته وأمانته ، ومعرفته ودرايته وأهليته لذلك وكفايته" [٧]

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٢٢

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٤٧٣

(٣) المقريزي : درر العقود ، ق ٢ ،ص ٧٥ – ٧٦

(٤) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢ ، ص ٨

(٥) ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ١ ، ص ٣٥٢

(٦) محمد زغلول سلام : الأدب في العصر المملوكي ، ج ٣ ، ص ١٨١

(٧) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٢٥

ب) الإجازة بالتدريس :-

وقد كتب تلك الإجازة القاضي تاج الدين بن غنوم ، موقـــع الحكـــم العزيـــز بالإسكندرية ، جاء فيها بعد التحميد ، وبيان فضل العلم ، وعلم الشريعة خاصـــة : " ولما كان فلان.... أدام الله تعالى تسديده وتوفيقه ، ويسر إلى الخـــيرات طريقـــه - ممن شب ونشأ في طلب العلم والفضيلة ، وتخلق بالأخلاق المرضية الجميلة الجليلـة ، وصحب السادة من المشايخ والفقهاء ، والقادة من الأكابر والفضـــلاء ، واشـــتغل عليهم بالعلم الشريف اشتغالا يرضي وإلى نيل السعادة يفضي ، استخار الله تعـالى ، سيدنا.... سراج الدين.... وأذن وأجاز لفلان المسمى فيه ، أدام الله معاليه أن يدرس مذهب الإمام المجتهد المطلق ، العالم الرباني ، أبي عبد الله محمـــــد بـــن إدريـــس المطلبي الشافعي ، رضي الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة مثواه ، وأن يقرأ ما شـــاء من الكتب المصنفة فيه ، وأن يفيد ذلك لطالبيه حيث حل وأقام كيف شاء متى شـــاء وأين شاء [١]فهذه الإجازة في التدريس ، فبالإضافة إلى إشارتها لمصاحبة القلقشـندي للعلماء ، والأخذ عنهم ، فإنها تشير إلى شيء آخر ، وهو الحرية التامة التي منحـــها "ابن الملقن" للقلقشندي في التدريس . ولعلنا نستشعر من ذلك مـــدى ثقـــة الأســـتاذ بالطالب ، الذي أجازه ، فلم يقيده بمكان أو زمان كما لم يحدد له الكيفية التي يـدرس فيها هذه الدروس ، وقد نتثبت من هذه الثقة بعد أن نورد الإجازة التالية .

---

[١] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٢٤

ج) الإجازة بالرواية :-

ولعل "ابن الملقن" قد فطن لما تمنع به تلميذه القلقشندي من سعة إطلاع ، ومقدرة على الحفظ . وترجمة ابن حجر العسقلاني له توحي بذلك حيث يقول :"..... وكان يستحضر الحاوي ، وكتب شيئا مع جامع المختصرات ، وصنف كتابا حافلا سماه "صبح الأعشى في معرفة الإنشاء" وكان مستحضرا لأكثر ذلك " (١).

فالعبارة الأخيرة من هذه الترجمة " وكان مستحضرا لأكثر ذلك " تدلنا على الحافظة القوية التي امتلكها القلقشندي ، وكانت وراء منحه الإجازات الثلاث . فبعد إجازته بالتدريس والفتوى نجد أن سراج الدين "ابن الملقن" يكتب بيده بعد حمد الله تعالى - ولعل ذلك يدل على إعجاب المدرس بالتلميذ واهتمامه به- .

وكتابته علامة على أن الإجازة السابقة صحيحة ، ويعلل ذلك بقوله :" فإنه ممن فاق أقران عصره بذكائه ، وبرع عليهم بالاستحضار ، وتحرير المنقول ووفائه" (٢) ثم يلي ذلك بوصايا ، يوصي تلميذه القلقشندي ، بها من تقوى الله ، وتحري الدقة والحذر من الزلل والخطأ والخلل .

وبعد ذلك يكتب له الإجازة بالرواية فيقول :"....وأجزت له مع ذلك ، أن يروي عني مالي من التأليف ، منها " جامع الجوامع" أعان الله على إكماله ، وكذا شرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري .

---

(١) ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر ، ج ٧ ، ص ٣٣٠ - ٣٣١
(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٢٦

ومنها " البدر المنير"... [1]

كما أجاز له رواية الكتب الستة " البخاري "و" مسلم "و" أبو داود " و " الترمذي " و " النسائي " و " ابن ماجه " " ومن المسانيد :" مسند أحمد" ومسند الشافعي " وغير ذلك .

وهذا ما يدل كذلك على أن القلقشندي لم يكن علمه فقط بالمذهب الشافعي الذي ينتسب إليه ، بل اطلع بالمذاهب الأخرى ، فلعلنا نستطيع القول أنه كان موسوعيا أيضا في علم الفقه .

أما حول ألقابه التي لم ترصد خلال هذه الإجازة ، فيفيدنا القلقشندي بذلك :" قلت: وتكون ألقاب المجاز على قدر مرتبته... وإنما أهملت ذكر الألقاب في هذه الإجازة من حيث أنه لا يليق بأحد أن يذكر ألقاب نفسه في مصنف له ، لأنه يصير كأنه أثنى على نفسه" [2] .

وكما نلمح اعتزاز القلقشندي بهذه الإجازة ، في هذه السن المبكرة من العمر ، حيث يذكر سنه ، ثم يذكر أن هذا " فضل من الله ونعمة " [3].

وأرى أنه أراد بهذا الفضل والنعمة : هو الحصول على هذه الإجازة العلمية في التدريس والإفتاء ، والرواية في هذه السن ، إضافة لذلك، أن الذي كتب له هذه الاجازة هو ، القاضي تاج الدين بن غنوم ، مُوَقِّعُ الحكم العزيز بالإسكندرية ، وكذلك

---

[1] المصدر السابق ، ج ١٤ ، ص ٣٢١

[2] المصدر السابق نفسه : ج ١٤ ، ص ٣٢٦

[3] المصدر السابق نفسه : ج ١٤ ، ص ٣٢٢

جاء ورقها من القطع الشامي الكامل ، وهذا كله يدل على أهمية هذه الإجازة ، ومكانة التلميذ العلمية التي يحددها شيخه ، يقول :"... وكتب لي بذلك القاضي تاج الدين بن غنوم موقع حكم العزيز بالإسكندرية ، في درج ورق شامي ، في قطع شامي كامل . وسني يومئذ ، إحدى وعشرون سنه ، فضلا من الله ونعمه " .

شيوخه :

يبدو أن القلقشندي تلقى ثقافته الأولى في قريته التي ولد فيها ، وانتهى نسبه إليها ، على أنني لم أجد فيما وصلت إليه يداي من المراجع أسماء العلماء الأوائل ، الذين أخذ عنهم ، كما أن القلقشندي نفسه لم يذكر شيئا عن هذه الفترة من تلقيه العلم ، وهذا ما يذكرنا بعالم أخر أنتجته قلقشندة ، ولم يكن نصيبه وافر عند تلاميذه وهو "الليث بن سعد " حتى قال فيه الإمام الشافعي : " الليث أفقه من مالك ، إلاّ أن أصحابه لم يقوموا به " وقالوا في رثائه حين مات :

ذهب الليث فلا ليث لكم   ومضى العلم قريبا وقبر [١]

وهكذا بقي أبو العباس في بلدته قلقشندة حتى سن الخامسة عشرة من عمره على وجه التقريب ، إذ لا نعرف سنة انتقاله إلى الإسكندرية ، ويبدو أنه شعر بأن بلده ضاقت عن آماله ورغبته في العلم ؛ فارتحل عنها طلبا للاستزادة من التفقه في الدين والأخذ عن مشاهير العلماء [٢] .

---

[١] عبد اللطيف حمزة : القلقشندي في كتابه صبح الأعشى ، ص ٤٠

[٢] عمر موسى باشا : تاريخ الأدب العربي في العصر المملوكي ، ص ٥٤٤

ولعل ما أورده صاحب " إنباء الغمر " ، من ذكائه وقدرته على الحفظ ، والاستظهار والاستحضار ، كان دافعا للقلقشندي للسفر للإسكندرية ، حيث يلتقي هناك العلماء ، ويتتلمذ على يد الشيخ العلامة : سراج الدين ، أبو حفص عمر بن أبي حسن الشهير بابن الملقن [(١)] .

وتذكر لنا المصادر التي ترجمت له ، أنه أخذ عن شيخ أخر هو ابن شيخة وغيره من الشيوخ ، فيقول صاحب المجمع المؤسس " وسمع من ابن الشيخة وغيره من شيوخنا " [(٢)] ونقل السخاوي هذا عن ابن حجر .

كما يورد المقريزي في "درر العقود " أنه تردد إليه مرارا وكتب عنه ، ويذكر أنه كان مكثارا مهذارا [(٣)] ، ولعل المقريزي أراد بمقولته هذه أنه كان يكثر الأسئلة في الدرس ، ويلح ويكثر في طلب الاستزادة من العلم ، حيث ذكر أنه كان يكثر التردد عليه ويكتب عنه .

ونستدل من الإجازة التي كتبها الشيخ سراج الدين ابن الملقن ، أن أبا العباس القلقشندي ، قد أمضى جل عمره في صحبة العلماء والفقهاء ، ورجال العلم ومشايخهم طلبا للعلم منهم ، والتفقه على أيديهم فيقول : " ولما كان فلان – أدام الله تسديده وتوفيقه ويسر إلى الخيرات طريقه – ممن شبّ ونشأ في طلب العلم والفضيلة ، وتخلّق بالأخلاق المرضية الجليلة ، وصحب السادة من المشايخ والفقهاء ،

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص٣٢٢
(٢) ابن حجر العسقلاني ، المجمع المؤسس ، ص ٤٥٠ ،السخاوي ،الضوء اللامع ، ج ٢ ، ص ٨
(٣) المقريزي : درر العقود ، ق ٢ ، ص ٧٦

و القادة من الأكابر والفضلاء ، واشتغل عليـــهم بـــالعلم الشـــريف اشتغــــالا يرضــــي " [1] .

بالإضافة لهؤلاء الشيوخ الذين عرفنا أسماءهم ، أولئك الذين لم نصل لــــهم ، وأدركنا كثرتهم من خلال الإشارات التي - رصدناها - فُتحت طريق أخرى ســلكها أبو العباس القلقشندي في سبيل تعلمه ، والحصول علـــى المعلومـــة ، وهـــي تلـــك المصادر التي ساعدته على بناء مؤلفاته العديدة ، ولعل المتتبع لموسوعته " صبــــح الأعشى في كتابة الإنشا " مثالا ، يكتشف تنوع هذه المصادر التي أخذ عنــــها كمـــا تشير إلى العقلية التي امتلكها ، حيث أنه لم يكن في دور المتلقي السلبي ، أو المُلقن بل كان في كثير من الأحيان ذو دور فاعل ، في التعامل مع هذه المصادر .

ومن أنواع المصادر التي اعتمدها [2] :-

أ. المشاهدة كقوله : " ورأيت درهما من هذه الدراهم الأموية ، التي ضربـــها الحجاج بن يوسف الثقفي ، أرانيه بعض أعيان حلب " [3] ، وقوله : فـــي الظواهـــر

---

(1) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٢٤
(2) في هذا الخصوص ،انظر محمد كمال الدين عز الدين علي ، الحركة العلمية في مصر في دولة الممـــاليك والجراكسة ، دراسة عن التاريخ والمؤرخين ، رسالة دكتوراه . المجلد الثاني ، ص ١٩٣
(3) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٤٢٤

الطبيعية " ....وقد رأيت مثل هذه الآية العظيمة بمصر ، سنة اثنتي عشرة وثمانمائة ، وهو أنه ظهرت حمرة عظيمة من جهة الغرب فوق حمرة النار ..."[١] .

ب.المساءلة ؛ قوله : في شأن انحراف محراب جامع عمرو بن العاص رحمه الله :- وقد سألت بعض علماء هذا الشأن عن ذلك ، فأخبرني عن الشيخ تقي الدين أبي ظاهر - رأس علماء الميقات في زماننا ، أنه كان يقول : من الدلالة على صحة عملنا في استخراج القبلة ، موافقته لمحراب الجامع العتيق [٢] .

ج"المشافهة : قوله :" وقد أخبرني أمير المؤمنين المستعين بالله أبو الفضل ، العباس- المشار إليه-- أن تسميته العباس ، كانت برؤيا رآها الشيخ بدر الدين البهني بمكة المشرفة " رأى العباس بن عبد المطلب _ رضي الله عنه _ في النوم ، وهو يقول له :- قل لولدي محمد ، _ " يعني المتوكل على الله _ " إذا ولد ، له ولد يسميه العباس [٣] .

د) الوثائق والمخطوطات :-

ومثال ذلك كثير في صبح الأعشى ، وهي متنوعة بين عهود وعقود والتواقيع ، والتهاني والتعازي والإجازات ، والعمدات....مما تعتبر وثائق دقيقه ، معبره عن العصر الذي كتبت فيه ، حيث أن ديوان الإنشاء كان من أدق آليات الحفظ لهذه

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٤٥٨ ، محمد كمال الدين ، الحركة العلمية في مصر ، المجلد الثاني ، ص ١٩٢

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٤٠

(٣) المصدر نفسه : ج ١ ، ص ٤٤٣

الوثائق ، والتي انتقلت لنا عن طريق القلقشندي ، في كتابه صبح الأعشى [1].

هـ) المؤلفات السابقة :

لقد تعددت مصادر القلقشندي ، وتنوعت تنوعا يعسر معه ضبطها ، أو إحصاءها فقد صرح أحيانا باسم الكتاب ، ،دون الإشارة لمؤلفه . أو باسم المؤلف، أو لقبه دون ذكر مؤلفه، كما أسند إلى المصدر المباشر حينا ،وإلى مصدر المصدر حينا آخر، مما لا سبيل إلى القطع في أكثرها، بتحديد نوع صلة القلقشندي بها لتعدد موضوعاتها . وفقدان أو عدم الكشف عن مظان الكثير منها[2] .

وفي محاولاته لإحصاء هذه المؤلفات ، وجدت أنها تجاوزت السبعين مصدراً اعتمدها القلقشندي في كتابه مما يدل على كثرة أولئك الذين أفاد منهم، وكذلك تنوع طرق هذه الإفادة.

جلوسه للتدربس :-

وتأتي المرحلة الثانية ، بعد تلقي العلم وحصوله على الإجازة، فيما يقارب الثامنة والسبعين والسبعمائة، جلس أبو العباس القلقشندي للتدريس ، فأنتفع كثيرون بمواهبه وحسن أسلوبه . وقوة العرض التي يهيمن فيها على عقلية التلميذ [3] وبدا للناس فقيها، يميل إلى الاجتهاد، ويحاول أن يضع لعلم الفقه أصولا وقواعد[4] .

---

[1] انظر نخبة من الأساتذة ، أبو العباس القنقشندي وكتابه صبح الأعشى ، ص ١١٩ - ١٤٤

[2] محمد كمال الدين ،الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك والجراكسة ، مجلد ٢ ، ص ١٩٦

[3] الأبياري :التعريف بالقلقشندي في تحقيقه لكتاب نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ج ١ ، ص ٤

[4] عبد اللطيف حمزة : القلقشندي في كتابه صبح الأعشى ، ص ٤٢

ولعل القلقشندي كان في تدريسه يعتمد كتبه التي قام بتأليفها، وهو بذلك يملي ما أنتجت قريحته، أو ما بناه على ما أنتجه سابقيه، وقد تهافت الطلاب على تسجيل واستنساخ كتبه، التي يؤلفها ويورد لنا ما أورده المسعودي في كتابه "التنبيه والإشراف" فيما يحكيه عن الجاحظ ، _ على جلالة قدره _ أنه قال :" كنت أؤلف الكتاب الكثير المعاني ، الحسن النظم وأنسبه إلى نفسي فلا أرى الاسماع تصغي إليه ولا الإيرادات تتيمم نحوه. ثم أؤلف ما هو أنقص منه رتبة وأقل فائدة . وأنحله عبد الله بن المقفع أو سهل بن هارون ، أو غيرهما من المتقدمين ، فيقبلون على كتبها . ويسارعون إلى نسخها . لا لشيء إلا لنسبتها للمتقدمين . ولما يداخل أهل هذا العصر من حسرمن هو في عصرهم ، ومنافسته على المناقب التي عني بتشييدها " .

قال : وهذه طائفة لا يعبأ بها كبار الناس ، وإنما العمل على أهل النظر والتأمل الذين أعطوا كل شيء حقه من القول ، ووقوه قسطه من الحق فلم يدفعوا المتقدم إذا كان ناقصا ، ولم ينقصوا المتأخر إذا كان زائدا ، فلمثل هؤلاء تصنف العلوم ، وتدون الكتب ، وإذا كان هذا نقل المسعودي عن الجاحظ الذي هو رأس المصنفين وعين أعيانهم . فما ظنك بغيره ؟ "[1] ونلحظ مما سبق أن الناس يأخذون من القديم ، وممن اشتهر من السابقين على أن هذا الأمر لم ينطبق على أبي العباس

---

[1] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٤٠٣

القلقشندي ، فقد تزاحم الطلاب على الأخذ منه والتسجيل عنه ، واستنساخ كتبه ، يقول في ذلك : " لكني أحمد الله تعالى على رواج سوق تأليفي . ونفاق سلعته ، والمسارعة إلى استكتابه قبل أنقضاء تأليفه حتى أن قلمي التأليف والنسخ يتسابقان في ميدان الطّرس إلى اكتتابه ، ومرتقب نجازه للاستنساخ يساهمان في ارتقابه فضلا من الله ونعمة ." ذلك فضل الله يأتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم" [١].

وثمة شيء أخر أفاده الطلبة من أبي العباس القلقشندي ، وهو عرض محفوظاتهم عليه ، فقد كانوا يعرضون عليه ما حفظوه ، من كتب الأصول والفقه وعلوم اللغة العربية ، فأقرهم على ذلك وأجازهم بما حفظوه منها [٢] .

ومن ذلك ، ما يورده أبو العباس القلقشندي في "صبحه" ، حيث عرض عليه أحد أبناء إخوانه العلماء - وهو لم يتجاوز العاشرة من العمر- ومعروضاته هي " الأربعين حديثا " للشيخ محي الدين النووي ، و" الورقات" في الأصول لإمام الحرمين ، و " اللمحة البدرية" في النحو للشيخ أثير الدين أبي حيان .

فيقول : بعد التحميد ، والعبارات المدحية على الطالب :" وبعد ، فقد عرض علي فلان مواضع من كتاب كذا وكتاب كذا ، فمر بها مرور الصبا ، وجرى في ميدانها جري الجواد ، فما حاد عن سنن الطريق ولا كبا " [٣] .

---

[١] المصدر السابق ، ج ١٤ ، ص٤٠٣

[٢] عمر موسى باشا ،تاريخ الأدب العربي ، (العصر المملوكي) ص ٥٤٦ / محمد عبد الرسول في التعريف بكتاب صبح الأعشى (صبح الأعشى) ج ١ ، ص ٢٢

[٣] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٣١ ، يقول صاحب التحقيق (يظهر أن بقية هذه النسخة سقطت من قلم الناسخ) .

تشير هذه الإجازة ، والتقديم لها بأنها كانت في علوم الفقه والحديث ، وفـــي الأصول ، وكذلك في النحو ، وهذا يدل على ما أشرنا إليه من أنواع العلوم ، التـــي قام أبو العباس القلقشندي بتدريسها ، كما تشير بأن الطالب نفســـه يعتنـــي بـــالعلوم المختلفة ، وينتفع فيها ومما يدلل على طرق أبواب المدارس في ســـن مبكـــرة ، إذ يحصل على الإجازة في عرض هذه الكتب قبل سن العاشرة ويرى عبـــد اللطيــف حمزة ، أن أبا العباس القلقشندي ، كان يأمل من وراء جهوده فـــي تدريـــس علـــم الفقه ، والتأليف والتصنيف فيـــه ، أن ينتقل ذات يوم من التدريس إلى القضاء[١] .

ويضيف أن أسلاف القلقشندي كانوا في الأزمنة المتقدمة ، يتحرجـــون مـــن القضاء ويفضلون عليها دائما وظائف التدريس ، ويتناقلون فيما بينهم ، قولا مـــأثورا نصه : " قاض في الجنة ، وقاضيان في النار " وأما المعلمون ؛ فهم ورثة الأنبيـــاء والمرسلين [٢] .

ولعل ما أوردناه سابقا ، حول نيابة القلقشندي عن القـــاضي جـــلال الديـــن البلقيني بسفارة الشيخ بدر الدين محمود العيني[٣] يؤيد ما ذهب إليه عبـــد اللطيــف حمزة ، من تطلع القلقشندي للقضاء ، وكذلك انتقاله لديوان الإنشاء عام ١٧٩١ .

---

[١] عبد اللطيف حمزة ، القلقشندي في كتابه صبح الأعشى ، ص ٤٢

[٢] المرجع نفسه

[٣] الصيرفي : نزهة النفوس والأبدان ، ج ٢ ، ص ٤٣٢

من نبغ من أبنائه :

مما وصف القلقشندي نفسه بأنه كان في الإنشاء " : عصاميا لا عظاميا ، ومتهما لا تهاميا ، غير أني تعلقت منها بحبال القمر ، واستوقدت نارها من أصغر الشرر " [١] ، فلعلة ما أورد ذلك إلا إظهارا للتواضع من جهة ، واثبات الذات ، دون اعتماده على غيره من آبائه لأن ذلك أدعى بالعجب من جهة أخرى ، وربما أورد ذلك تماشيا مع سير مقامته ، التي احتوت هذه المقولة .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد وصفته المصادر بأنه :" من دار علم وفي أبنائه وأجداده علماء أجلاء " [٢] .على أنني لم أجد فيما وصلت إليه يدي من المصادر ما يذكر من آبائه من اشتهر بالعلم ونبغ فيه ، غير أنه ظهر من أبنائه من اشتغل بالعلم ، وعانى صنوفه وسار على درب أبيه ذلك هو : شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الله بن إسماعيل بن سليمان النجم أبو الفضل بن الشهاب بن الجمال أبي اليمن ، القلقشندي ، القاهري ، الشافعي [٣] الذي وصف بالهمة والفطنة الذكية ، والفطرة الزكية ، ولقد كان فقيها حافظا ، عرض كتاب "المنهاج " في الفقه النووي ، على الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الدايم ، فأقر حفظه بالكتاب ، وأشار أنه حفظ غيره من الكتب ، وأورد القلقشندي هذه العراضة ، التي يقول فيها الشيخ شمس

---

[١] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١٢٧

[٢] الزركلي ، الأعلام ، ج ١ ،ص ١٧٧

[٣] السخاوي ،الضوء اللامع ، ج ٦ ، ص ٣٢٢

الدين محمد بن عبد الدايم ، بعد الحمد والثناء على نجم الدين محمد بن القلقشندي : " ... وبعد ، فقد عرض علي الفقيه الفاضل ، نجل الأفاضل ، وسليل الأماثل ، ذو الهمة العلية والفطنة الذكية ، والفطرة الزكية ، نجم الدين أبو عبد الله محمد بن فلان ، نفع الله به كما نفع بوالده ، وجمع له بين طارف العلم وتالده – مواضع متعددة من " المنهاج" في فقه الإمام الشافعي ، المطلبي _ رضي الله عنه _ وعنا به ، تأليف الحبر العلامة ، ولي الله ، أبي زكريا بن شرف بن مري النووي _ طيب الله تعالى ثراه _ وجعل الجنة مأواه ، دل على حفظه لها على حفظ الكتاب ، كما فتح الله له مناهج الخير دِقَّه وجِلَّه ، وكان العرض في يوم كذا " [١] وكانت هذه العراضة في سنة ثلاث عشرة وثمانمائة للهجرة .ويشير السخاوي بأنه حفظ القرآن الكريم ، وألفية ابن مالك ، وقرأ الفرائض والنحو ، وأنه تعاطى النظم ، وأنه حدّث وسمع عليه ، وناب في القضاء عن جلال البلقيني ، وباشر في ديوان الأحباس التوقيع للأمراء ، وأنه تتلمذ على مشاهير علماء عصره ، منهم والده أبي العباس ، أحمد بن عبد الله القلقشندي ، والمحتسب الشنطوفي كما عرض على آخرين منهم جلال البلقيني ، والولي العراقي ، وابن النقاش ، وأحضر قبل ذلك الصحيح على ابن أبي المجد ، وختمه على التنوقي والعراقي ، والهيثمي وحج في سنة أربعة وأربعين وثمانمائة، وسافر قبل ذلك إلى أمد في عسكر الإشراف ودخل الإسكندرية [٢] .

---

[١] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٣٠

[٢] السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٦ ، ص ٣٢٢ – ٣٢٣

ومن نظمه في الحلاوي المحتسب :

لما غدا الناس في غلاء   واعوزوا الخبز للتـــداوي

وعالجوا منه مر صبــر   أتاهــم الله بـــالحـــلاوي

ومات غريقا ببحر النيل سنة ست وسبعين وثمانمائة رحمه الله [١].

وفاة القلقشندي :-

يجمع مترجمو القلقشندي ، على أن وفاة أبي العباس القلقشندي كـــانت فـــي جمادى الآخرة من سنة إحدى وعشرين وثمانمائة ، وإن كان هناك اختلاف بسيط في تحديد الوفاة ، بين يوم وليلة السبت العاشر من جمادى الآخرة من السنة المذكــورة ، حتى أن المقريزي يذكر وفاته في كتابه " درر العقود " بقوله : توفي يـــوم الســبت العاشر من جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وثمانمائة ، عن خمـــس وســتين [٢] سنة في حين يذكرها في كتابه " السلوك " في ليلة السبت العاشر من جمادى الآخرة ، عن خمس وستين سنة [٣] .

---

[١] المرجع السابق ، ج ٦ ، ص ٣٢٣

[٢] المقريزي : درر العقود ، ق ٢ ، ص ٧٦

[٣] المقريزي ،السلوك ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٤٧٣

على أنه ثابت في جميع المصادر التي بين يدي الباحث ، أنه في العاشر من جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وثمانمائة للهجرة ، غير أن صاحب " هدية العارفين " يذكر وفاته بحدود تسعين وسبعمائة للهجرة [١] ، وهذا من الخطأ الواضح ، لأن القلقشندي نفسه ، يذكر أنه في سنة إحدى وتسعين وسبعمائة باشر العمل في ديوان الإنشا ، وكتب مقامته "الكواكب الدرية " ، أي بعد التاريخ الذي أثبته صاحب " هدية العارفين " بسنه .

---

[١] اسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين ، المجلد الخامس ، ص ٧٢٦

الفصل الثاني

الدراسة المضمونية لنثر أبي العباس القلقشندي

عُرِفَ القلقشندي ، كاتباً منشئاً يصفه صاحب المنهل الصافي بقولـــــه : " وكتب في الإنشاء ، وكان ماهراً في ذلك ، وله نظم ونثر " (١) ، وقريـــب من ذلك وصفه معاصروه (٢) ، ومن المحدثيــن ، ترجــم لــه محمــود رزق سليم قائلاً : " القلقشندي كاتب منشئ أديب ... " (٣) .

وأما القلقشندي نفسه فيصور إقبال الناس على كتبه بقوله : " حتـــى أن قلمي التأليف والنسخ يتسابقان في ميدان الطِّرس إلى اكتتابه ، ومُرتقِب نجـــازه للاستنساخ يساهمهما في ارتقابه " (٤) .

وقد كتب في كثير من أنواع الكتابة التي عرفت في عصره ، إذ قضـــى ما ينيف على العشرين عاماً في ديوان الإنشاء ، فكتب في الرسائل الديوانيـــة ، ولما امتاز بعلاقات طيبة مع رؤسائه وأصدقائه ، فقد وجد لــــه الكثـــير مـــن الرسائل الإخوانية .

---

(١) ابن تغري بردي : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، ج ١ ، ص ٣٥٢

(٢) انظر ابن حجر العسقلاني ، المجمع المؤسس ، ص ٤٥٠ ، المقريزي : كتاب السـلوك ، ج ٤ ق ١ ، ص ٤٧٣ _ ٤٧٤ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢ ، ص ٨

(٣) محمود رزق : عصر السلاطين المماليك ، ج ٥ ، ص ٤١٢

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٤٠٣

الرسائل الديوانية :

وهي الرسائل التي يكتبها صاحب ديوان الإنشاء ، أو من ينيبه في ذلك ، بأمر من الخليفة أو السلطان ، لتنظيم أمور الدولة الداخلية ، وعلاقاتها الخارجية مع الدول الأخرى .

وينتمي للضرب الأول أنواع عديدة : مثل البيعات والعهود والأخبار والتقاليد ، والتصادير والإطلاقات والتفاويض والمربعات الجيشية .. ، أما الضرب الثاني فهو على قسمين : الأول يختص بما يكتب إلى ملوك وأكابر الدول الإسلامية الأخرى ، والثاني ما يكتب به إلى (ملوك الكفر [١]) في الابتداء والأجوبة .

وثمة من قدم تعريفاتٍ للرسائل الديوانية ولكنها جاءت مقتصرة على تنظيم الأمور الإدارية والداخلية للدولة [٢] ، وهذا ما لا يراه الباحث ، لما اطلع عليه من ورود نماذج من المراسلات الخارجية في صبح الأعشى [٣]

---

(١) المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١١٣ _ ١١٦

(٢) انظر فايز القيسي : أدب الرسائل في الأندلس ، دار البشير للنشر والتوزيع ط ١ ١٩٨٩، ص ١١١

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٢٣٥ _ ٤١٢

البيعات :

" البيعات جمع بيعة ، وهي مصدر بايع فلان الخليفة ، يبايعه مبايعة " . ومعناها المعاقدة والمعاهدة ، وهي مشبهة بالبيع الحقيقي [١] إذ أن كل واحـــد أعطى الآخر ، ما يملك من قوة الجوارح وصدق النية والنفس ، وصفـــق يـــد الآخر ، كرمز لحصول البيع على عادة العرب [٢] .

وثمة من يعرفها بأنها : " رسائل إعلامية توجهها الدولة إلى الرعيـــة ، لتبايع الخليفة الجديد ، أو ولي عهد ، وهو ما اصطلح جمهور الفقهاء علـــــى تسميتـــــــه ،(البيعة العامة) التي يتسنى للخليفة الحصول عليها بعد (البيعة الخاصة) ، التي يعطيها أصحاب الحل والعقد ،وهم العلماء على الأرجح "[٣] وبذلك يتضح لنا أن موضوع البيعات على اختلافها محدد ، فهو عرض وطلب في آن واحد ، يكون الخليفة الطرف الأول العارض والطالب ، أما الرعية فهي الطرف الآخر . فما عليها إلا الموافقة وعن رضاً وطيب خاطر .

فجاءت البيعات متشابهة لدرجة التطابق تقريباً . مما يجعلها لا تمتـــاز بثراء في مضمونها [٤] .

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٩ ، ص ٢٧٣
(٢) المصدر نفسه ج٣ ، ص ٢٧٣
(٣) محمد محمود الدروبي : الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن ٣ هـــ . دار الفكـــر للطباعـــة والنشر والتوزيع . ط ١ . عمان ١٩٩٩ ، ص ٣٠
(٤) المرجع نفسه ص٣١

ومن هنا ، استطاع القلقشندي أن يبين الأمور التي يجب على الكاتب مراعاتها في كتابة البيعة ، ولعل القلقشندي ، استخلص هذه الأمور من خلال استقرائه للبيعات المكتوبة حتى زمانه . فظهرت هذه الأمور كأنها قواعد لا يتعداها الكاتب إلى غيرها . إذ عليه التنبه لبراعة الاستهلال ، من ذكر لاسم الخليفة ، أو لقبه أو الحال الموجب للبيعة ، من موت خليفة ، أو خلع ، أو ما إلى ذلك . كما عليه التنبيه على شرف الخلافة وعلو قدرها ، وكذلك الحاجة الماسة للإمام . وضرورة وجود الإمام في الأمة والموافقة عليه بالإجماع . كما أن صاحب البيعة قد استوعب شروط الإمامة ، وأنه يحمل من الصفات ما يعز وجوده عند غيره ، وأنه تقدم في الفضل واستيفاء الشروط على غيره ، وأن من اختاره من أهل الحل والعقد من العلماء والرؤساء ، وأن هذا الإمام الذي اختير قد قبل البيعة ، وأنها حصلت بوقوع الشهادة عليها، وأنها ليست بمقترنة ببيعة أخرى ، إذ لا يجوز أن يُنَصّبَ إمامان في وقت واحد ، على الكاتب ، أن ينبه بوجوب الطاعة التامة من الأمة وتفويض الأمور العامة للإمام ، وكما على الكاتب أن يشير إلى السلطان القائم بالبيعة ، إذا قام بها سلطان . وعليه أن يذكر من استحلف في البيعة من وجوه الدولة والأعيان ويذكر صفة حلفهم ، وما التزموه من الأيمان المؤكدة [١] على أن القلقشندي يحدد مواضع الخلافة التي تكتب بها البيعات في خمسة مواضع : _

---

[١] القلقشندي : صبح الأعشى ج ٩ . ص ٢٧٦ _ ٢٧٩

أولاها : موت خليفة ، دون عهد لخليفة بعده ، ولعله الموضوع الأصلي لكتابة المبايعة .

الثاني : موت الخليفة وقد عهد من بعده لخليفة ، فتؤخذ البيعة العامة على الرعية لإظهار الإجماع عليه .

الثالث : أن تؤخذ البيعة للخليفة في ولايته ، ثم تبعث الكتب للأعمال لأخذ البيعة على أهلها .

الرابع : أن يحدث اضرابات في بعض الأعمال ، فيعمل على تجديد البيعة في تلك الأعمال (١) .

الخامس : خلع الخليفة المنتصب لموجب يقتضي الخلع ، فتحتاج الأمة إلى مبايعة إمام يقوم بأمورها ، ويتحمل أعبائها (٢) .

وقد كانت أول بيعة في الإسلام تعقد لأبي بكر في سقيفة بني ساعدة بعد وفاة الرسول ﷺ ، حيث كاد أن يدب الخلاف بين المهاجرين والأنصار ، لولا أن تداركهم الله بأبي بكر وعمر _ رضي الله عنهما _ ولكن لم ينقل أن كتبت هذه البيعة ، ولعل ذلك عائد للثقة المتبادلة بين الصحابة ، بخلاف ما حدث بعد ذلك .

---

(١) المصدر السابق ج ٩ ص ٢٧٩

(٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢٧٥

وأما أول بيعة كتبت في الإسلام كانت على يد الحجاج بن يوسف الثقفي ، أخذها لعبد الملك بن مروان ، حيث أقامه على إمارة العراق ، وقد رسمت هذه البيعة الخطوط العريضة لكل ما جاء بعدها من مبايعات حيث رتب الأيمان المغلظة ، تشمل الحلف بالله تعالى والطلاق والعتاق حتى اشتهرت بين العلماء بأيمان البيعة ، وأصبحت نحو مصطلحٍ جارٍ في الدولة العباسية وما بعدها (١). على أننا نجد أن الكتاب في كثير من مبايعاتهم قد اتخذوا من بيعة أبي بكر مرجعية ، يشار إليها في الخلافة وأهميتها ، في حين نجد الإشارة لأحقية علي بن أبي طالب _ كرم الله وجهه _ بالخلافة في البيعات التي كتبت في عهد الدولة الفاطمية ، من ذلك : " ... وعلى أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أولى الناس بالنبي ﷺ ، أول من اتبعه من ذوي قرابة وأجنبي ، وابن عمه الذي اختصه بمؤاخاته ، وجعله خليفة على كافة الناس بعد وفاته ، وتحمل في أمر الله فيما ولاه وأولاه وخطب الناس في حجة الوداع فقال : " من كنت مولاه فعلي مولاه " (٢) .

وقد كتب القلقشندي في موضوعين من الواضيع التي تكتب فيها المبايعات : -

الموضوع الأول : البيعة المترتبة على موت خليفة .

---

(١) المصدر السابق ج ٩ ص ٢٨٠

(٢) السابق نفسه : صبح الأعشى . ج ٩ ، ص ٢٩٣ ، من بيعة كتب بها عن الحافظ الدين الله الفاطمي بعد وفاة ابن عمه الأمر بأحكام الله ، وانظر ص ٢٨٩ ، ص ٢٩٤ ، ص ٢٩٥ من المصدر نفسه

والموضوع الآخر : البيعة المترتبة على خلع خليفة .

وفي البيعة المترتبة على موت خليفة ، نجده يستهلها بالحمد لله على ما ميز به الأمة المحمدية من شرف بين الأمم ، ليصل للتعريف برتبة الخليفة ، وأنها أعلى الرتب وما اختصت به قريش ، والأسرة العباسية بالتحديد من علاقة موصولة بالخلافة ثم يلتفت للمتلقي المبايع ، ويتكلم على لسانه ، بصيغة الجمع " ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مخلص تمسك بعهدها فوفى وأعطاها صفقة يده للمبايعة فلا يبغي عنها مصرفا " (١) إذ أن المبايع هو الرعية بوجه عام ويشير لعادة معروفة لدى العرب عند البيع ، وهي فعل حسي (صفقة اليد) التي ترمز بوقوع المبايعة ، وجها لوجه بين كل فرد من الرعية والخليفة فيكون ذلك دافعاً للوفاء بعهد المبايعة ، فيلمّح للآية الكريمة ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم ...﴾ (٢) ليربط مبايعة الرعية للخليفة ببيعة الرضوان ، التي وقعت بين الصحابة ورسول الله عليه السلام ، ثم تكون هذه البيعة بين الرعية وبين الله-عز وجل _ ومن هنا يكون الطرف الآخر للمبايعة ، والطرف المعنوي الروحي ، ويصبغها بالصبغة الدينية التي تربط الإنسان بخالقه ووجوب الوفاء

---

(١) المصدر السابق ج ٩ ص ٣٠٨

(٢) القرآن الكريم ، سورة الفتح آية ١٠

بذلك ، فيضرب مثلاً ببيعة أبي بكر الصديق يوم السقيفة ، وما قدم للأمة الإسلامية من حرص على مصالحها ، وغيرة على دين الله فجمع الناس على صحيفة واحدة من القرآن الكريم ، ومحاربته لأهل الردة ، ولعل بذلك إشارة لما سيقوم به الخليفة المبايعَ إذا ما وجد من سولت له نفسه بنقض البيعة .

ويقدم لنا شرعية الخلافة بأنها واجب بالإجماع يصعب معه حتى التفكير بالخروج عليها لما لها من مبررات تجعلها ضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية للأمة : " إذ العباد مجبولون على التباين والتغاير ، مطبوعون على التحالف والتناصر ، مضطرون إلى التعاون والتجاور ، مفتقدون إلى التعاضد والتآزر " (١) .

من هنا تظهر أهمية الإمام ، الذي يجنبهم الأخطار الداخلية بين الرعية وفساد في الأخلاق ، وانتهاك للمحرمات ، حتى أن وجود الإمام الصالح أدعى لحفظ الإنسان عن الاختلاط والاشتراك ، كما ويحمي الإسلام والأمة من الأخطار الخارجية ، إذ يحمي الثغور من أن تخترق ، ويبادر لتجهيز الجيوش لمبادرة الأعداء في بلادهم ، فتمنعهم من الاستقرار والتدبير للمسلمين ، فتنعم بلاد المسلمين في الأمن والطمأنينة التي تسهل معها الحياة عليهم ، فيأخذ أموال الزكاة والصدقات في وجهها الحق ، ليتكامل نماء المجتمع .

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٩ ص ٣٠٩

بعد هذه المبررات والمسوغات للخلافة ، ووجود الخليفة ينتقل الكـــاتب لمحور آخر في المبايعة ، إذ يحاول تقديم الخليفة المبايَع ، كإنسان اكتملت فيــه الشروط التي تساعدة على القيام بالمهام السابقة ، والتي قدمها كدافع لاختيــــار خليفة .

ولكن براعة القلقشندي في الكتابة تجعله يقدم لنا الصورة بطريقة مغايرة ، إذ يصور لنا الإمامة فتاة تمنعت على خطابها ، لقلة أكفائها ، فلم تجد منـــــهم من يستحق الاقتران بها ولا من هو كفؤ لها ، فاحتجبت وتحصنــت ، وتصــل الصورة قمة جمالياتها ، عندما يُظهر لنا الكاتب : أن هذه المتمنعة المتحصنـــة عن الخطاب ، هي التي تختار وتخطب هذا الإمام المبايع بـــل ، هـــي التـــي تعترض طريقه ، قبل أن يطرق بابها ! فيوظــف فــي ذلــك قولــه تعالــــى :﴿ فراودته التي هو في بيتها عن نفسه ﴾ [١] .

وهنا تبرز المفارقة إذ أن الإمام يقبل هذه الخطبية ؟ ويقبل عليــــها ، لا كيوسف _ عليه السلام _ الذي تمنع ، إذ كانت تلك طريق الإثم ، أما هنا فــهي من الطاعة ، بل الواجب قبولها ! حيث يعود الكاتب يسبغ على الإمام المبـــايَع من الصفات ،ما يجعل المتلقي يستشعر بتفرد الإمام بأحقية الخلافة، وأنه أصبح على كلا الطرفين المبايِع والمبَايَع القبول بها، لما توفر فيه من شروطها ،فـــهو أسدها الهصور ،ومعقلها الأمنع الحصين ،كرموز للقوة وعِقدها الأنفس الثميــن

---

[١] القرآن الكريم ، سورة يوسف الآية ٢٣

،كرمز لمكانته بين المسلمين وهو عالمها المتفنن في أفنانها ، وطبيبها العارف بطبها ،كرموز لسعة وغزارة علمه، في أمور الخلافة دينها ودنياها [١] .

ويتعرض الكاتب لمحور آخر في البيعة ، وإن حاول تقديمه من خلال الصورة السابقة ، إذ يرى أنه لا بد من ولي يعقد هذه البيعة ، ويقوم عليها فيصوره كولي أمر لتلك الفتاة " الخلافة " فيوافقها سؤالها ، ويعدُّ الشهود لحفظ عهدها ، والوالي هنا السلطان ، ويقدمه بألقابه السلطانية كاملة ، فيجمع السلطان أهل الحل والعقد من علماء وفقهاء ، وأهل رأي لتعقد " البيعة الخاصة " ويكون ذلك بمحضر من الشهود والفقهاء .

ويدخل هنا محور جديد في البيعة ، إذ تقترن البيعة العامة للخليفة ببيعة أخرى للسلطان ، قد لا تكون واردة في الزمن الأول ، إذ كانت البيعة للخليفة وحده دون من يعينهم من ولاه ، ما يلفت نظر الباحث هو : أن بيعة السلطان تأخذ النسق نفسه الذي اتخذته بيعة الخليفة ، عند الكاتب ، فعلى الرغم من إشارته في البيعة بأن السلطان هو الذي يطلب أن تؤخذ له البيعة مع الخليفة ، إلا أن الكاتب يظهرها وكأن الخليفة هو الذي أراده ! بقوله " ... وأجابه اجابة مطلوب ، وإن كان هو الطالب " [٢] . ويشترك معه في حلف الرعية على الوفاء لهما بما عاهدوا ، ويعهد إليه في كل أمور الإمامه والأمة ، ويفوض له التصرف في شؤون السلطنة دون قيد ، فهو وصي في عهد الخلافة ، وأصبح

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٩ ص ٣١٠

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٩ ص ٣١١

سيف الخليفة ويلبسه الخلعة السوداء رمز السلطنة ، حتى طالب أهل البيعة بالتوثيق على البيعتين معاً ، ثم يحاول الكاتب إظهار مدى التزام أهل البيعة ببيعتهم ، ولكن القارئ سيشعر أن السلطان يقودهم لهذه البيعة ويقيِّدهُمُ بالوفاء لها بالأيمان المغلظة ، وليضمن ما هو محسوس ، وما هو معنوي ، وما هو ظاهر وما هو باطن ، بأن يجعلهم يشهدون الله عليها في أسرارهم وإعلانهم ، إذ إن البيعة لا تصلح حال الأمة ولا تفضي لمرادها ، إذا بنيت على نية غير الظاهرة ، ولا تقي الأمة شر أعدائها إذا ما اختلت العلاقة والثقة بين الخليفة والرعية ، ولكننا نلمس التحول الذي يحدثه الكاتب في هذا المحور من البيعة ، إذ تنتقل من سعة الأفق والاختيار ، إلى ضيق القيد والجبر ، حين نكتشف أن هذه الأيمان المغلظة ،والمواثيق المشددة ،يترتب على نقضها أمورٌ لا طاقة للإنسان بها ، فهو بريء من حول الله وقوته إلى حول نفسه،وقوته، وخارج من ذمته الحصينة إلى ذمته ، وكل إمرأة في نكاحه ، أو يتزوجها في المستقبل فهي طالق ثلاثاً بتاتاً ، وكلما راجعها فهي طالق طلاقاً لا يقتضي إقامة ولا ثبات ، وكل مملوك في ملكه أو يملكه في المستقبل ، حر لاحق بأحرار المسلمين ، وكل ما يملكه من جواد وحيوان ، صدقة عليه للفقراء والمساكين ، وعليه الحج إلى بيت الله الحرام والوقوف بعرفة وسائر المشاعر العظام محرماً من دويرة أهله ماشياً حاسراً عن رأسه ومن كان به أذى حافياً يأتي بذلك في ثلاثين حجة متتابعة على التمام لا تجزئه واحدة منها عن حجة الإسلام ،

وإهدائه مائة بدنه للبيت العتيق كل سنة على الدوام وعليه صوم جميع الدهر ، إلا المنهي عنه من الأيام ، وأن يفك ألف رقبة مؤمنة من أسرى الكفر في كل عام ... [١] فتصبح هذه الأيمان أغلالاً تقيده ؛ فهي مع صعوبتها وتعجيزها ، لا تخلو من تضارب في قيمها ، إذ كيف يمكن لمن جرد من كل شيء تحرير الرقاب ، وأهداء البدن ، ويحاول الكاتب أن يوشيها بألوان دينية ، يخفي ما خرجت فيه عن الدين ، واستلاب حرية الرعية ففي حديث النبي عليه السلام " اني أصوم وأفطر " [٢] وهو يريد له صيام الدهر ويؤتي ذلك بقوله " إلا ما نهى عن صيامه " على أنه يتابع ذلك فنستظهر ذلك الخوف الكامن في قلب الخليفة ، مما قد تخفيه الرعية في قلوبها اتجاه الخليفة والسلطان ، وكأنهما يشعران بعدم رضى الرعية عليهما ، وليخلقا في أذهان الرعية صورة مرعبة للمخالف للبيعة ، الناكث لعهدها ، فما هذه الأيمان ، وهذه المقتضيات المتتابعة في البيعة إلا صورة من الترهيب والوعيد ، بأن الخليفة والسلطان ، ستمتد أيديهما بأشد من ذلك بطشاً بالناكثين ، فهذه أيمان لا ينفع معها تقية ، أو تأويل أو استفتاء فهي تؤخذ على نية أمير المؤمنين ، وسلطان المسلمين ، وهي على أشد المذاهب :" ولا يقبل الله صرفاً ولا عدلاً ولا تجزئ عنها كفارة أصلاً "

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ص ٣١٢
(٢) البخاري ، محمد بن اسماعيل : صحيح البخاري بشرح الكرياني ، دار إحياء التراث ، بيروت لبنان ، ط ٢ ، ١٩٨١ ، ج ١٩ ، ص ٥٥

(١) فكأن الكتاب هنا دخلوا في علم الله ، إذ إن هذا ليس في تقدير البشر ، وأن الله يقبل التوبة ممن يشاء ولكنها الطريقة التي يجد الخليفة فيها وسيلة ، لحشر الرعية للمبايعة ، ليظهرها الكاتب بأنها: مبايعة ميمونه باليمن ، مبتدأة بالنجح مقرونة (٢) ولكنه يعود للقيد من جديد بالشهود من أئمة الأعلام، والشهود والحكام ، والصبغة الدينية بالاستشهاد بالقرآن الكريم ، ليبقيه أمام ناظري المبايع دافعاً للوفاء وملزماً بالعهد﴿... وأوفو بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا﴾ ويصور الرعية ، بأنها راغبة إلى الله في هذه البيعة ، التي ينالهم منها أجر النية الحسنة .

وأما الموضع الآخر من مواضع كتابة البيعة التي كتب فيها القلقشندي ، فهو البيعة المترتبة على خلع خليفة ، وهي لا تختلف عن سابقتها إلا في التركيز على بعض المحاور ، من جهة ، والتعميق في إيراد المرجعية للخلافة من جهة أخرى ، كما يلمح الباحث فرقاً آخر ، وهو أن القلقشندي لم يتطرق إلى موت الخليفة في البيعة الأولى ، ولعل ذلك عائد إلى طبيعة الموت ، وأنه أمر معتاد لدى الناس ، أما في البيعة المبنية على خلع خليفة ، فلا بد من التمهيد لذلك ، وبيان الأسباب الدافعة ، والحجج القائمة لخلع الخليفة ، الذي كان قد أخذ على الناس الأيمان المغلظة ، والمواثيق المؤكدة للطاعة والولاء ،

---

(١) المصدر السابق: ج ٩ ص ٣١٣

(٢) المصدر السابق نفسه ج ٩ ص ، ٣١٣

وإذ هم أصبحوا من ذلك في براءة وتحلل ! فنجده بعد الاستهلال ، بالحمد لله الذي جعل الخلافة أمنا للناس ، وحصناً منيعاً من مجريات الحدثان ، يشير لحلول خليفة ، اجتمعت عليه القلوب ، وهذه الحلول يعني خلع السابق ، الذي شغل بغيرها ، فلم يعرها نظراً ولم يسمع لها أذناً وأساء فيها تصرفاً ، فلم يرفع بها رأساً ، ولم يعمد لها معنى (١) .

وفي سبيل إظهار شرعيته للخلع يشير لبيعة السقيفة لأبي بكر ، وإن كانت قد وردت في البيعة السابقة ،المترتبة على موت خليفة إلا أنه يوظفها هنا بشكل أعمق حيث يصور لنا أن المناظرة التي حدثت بين الأنصار والمهاجرين ، عملية خلع ، نجم عنها خلع سعد بن عبادة الذي يرى أن الأنصار بايعوه ، وعلى ذلك نصب أبو بكر الصديق ، لما امتاز به من صفات ، جعلته متقدماً على سابقه " سعد بن عبادة " فيحاول بعد ذلك إظهار موقف الصحابة من مهاجرين وأنصار، ويركز على عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان _ رضي الله عنهما _ وكأنه ينصبهما مثالين ليقتدي بهما الناس إذ مع ارتفاع مكانتهما إلا أنهما انقادا للبيعة ، وعملا في خدمتها ، ويضرب لنا مثلاً آخر في خلع الخليفة ، وهو في هذه المرة يخلع الخليفة نفسَه من تلقائها ، والمثل هنا علي بن أبي طالب _ كرم الله وجهه _ في قوله : - " وأبي الحسن الذي أعرض عن الخلافة حيث سئلها له واستعفى منها بعدما اضطر إليها وقبلها " (٢) .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٩ ص ٣١٣
(٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ٣١٤

ولعل الكاتب أراد من هذه الأمثلة تسويغ الخلع عند الرعية ، أو جعلها حلقة في سلسلة مقدمات . تنبه المتلقي بشروط الأمانة التي نرى أن الكاتب يلح عليها ، ويظهر ضرورة توافرها في الإمام الخليفة : "لا يغتفر فواتها في الابتداء ولا في الدوام ، وأوصافاً يتعين أعمالها وآدباً لا يسع إهمالها"(١) ويفطن الكاتب لأمر قد يدور في خلد المتلقي السؤال حوله ، فنجده يشير إلى أن شروط الخلافة يجب توفرها في الخليفة على الدوام ، إذ أنه لا بد وأنها كانت متوفرة حين مبايعته ، وإلا لما بويع !! وربما كان هذا من قبيل احترام الرعية ، التي كانت قد بايعت الخليفة المخلوع ، فتدرك أن سبب الخلع ، هو عدم دوام تلك الشروط فيه فترتب على ذلك الخلع ! وتكاد تكون تلك الشروط مثالية في اجتماعها في شخص واحد ، فهي تجمع العدالة التي أساسها مراقبة الله ، وهي تؤدي إلى مراقبة الله في السر والعلن ، فتكون أدعى لتجنب الكبائر والصغائر ، وبها تقع لصاحبها الهيبة وتميل النفوس عليه ، ومنها الشجاعة التي توفر الحماية للدين ، والأمة ودحض الباطل وقطع الفساد ، وكذلك يجب أن يكون صاحب رأي ، فهو سبيل السياسة وحسن التدبير ، الذي يعين صاحبه على أن يسوس الرعية ، ويعينه في خدع الحرب وكيد الأعداء (٢) .

ومرة أخرى يتكئ الكاتب على الشرعية الدينية لخلع الخليفة القائم ،

---

(١) المصدر السابق : ج ٩ ص ، ٣١٤
(٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ٣١٥

وينهج هذه المرة المنهج العقلي للإقناع ، ويوظف مصدراً من مصادر التشريع في الشريعة الإسلامية ، فحين أمرنا الله بالأمر بالعروف والنهي عن المنكـــر فإنه سوغ لنا الاجتهاد في كل مستجد ، وعلى وجه الخصوص فيما يتعلق بـأمر الإمامة فهي أعلى المعالم الديينة وأرفع المناصب الدنيوية (١) .

ويصل الكاتب إلى المحور الرئيسي في المبايعة ، ونقطة التبئير التـــي بنيت عليها المبايعة ، وحولها يدور موضعها ، وهو الخليفة المخلوع ، وتظـهر هنا المفارقة ؛ التي قد لا يتقبلها العقل البشري في مقارنته بين الصفات الواجب توافرها في الخليفة حين يقع عليه الاختيار ، وبين هذه الصفات التي يوصـــف بها حين يخلع ! ولعلها مأخوذة من تلك الصفات التي كانت تكتب في المخالعة، حين يخلع الخليفة نفسه ، أو بالأحرى يجبر على خلع نفسه ، وكتابة المخالعـــة والتي يصفها محمد الدروبي بأنها تعد :" تزويراً واضحاً للحقائق التاريخية فهي تشويهاً ينأى عن الواقع كثيراً (٢) " فهذا التحول الكبير يصعـــب تصديقـه ، فكيف للعادل أن يتحول لإنسان يعيث في الأرض فساداً ، وينهمك في شـــهواته ، ويعكف على رغباته ، وكيف لصاحب الرأي أن يصبح عدم الرأي قرينـــه ، وكيف لشجاع أن يتحول إلى إنسان الجبن رأس ماله (٣) .

---

(١) المصدر نفسه ج ٩ ص ٣١٥ _ ص ٣١٦

(٢) محمد الدروبي الرسائل الفنية في العصر العباسي ، ص ٤٣
(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٣١٦

وهذا ما يكشف لنا مدى الضعف والهوان اللذين لحقا بالخليفة المخلوع ، حتى يحتمل مرغماً لكل هذه الأوصاف ، بل يتعدى الكاتب ذلك ليصور لنا السلطان بعيداً كل البعد عن أمر الخلع والتوليه ، فيصور مدى الحرية التي تتمتع بها الرعية ، فهي التي تتبين أفعال الخليفة المخلوع ، وهي التي تقرر استبداله وتجمع على خلعه ، وما السلطان إلا الوسيلة التي تلجأ إليها في سبيل تحقيق رغبتها ، وهو بعد أن يستشير أهل الحل والعقد ، ويصلي مستخيراً لا يمتلك إلا تنفيذ رغبة الرعية فيخلع الخليفة ؛ وهنا تصبح الإمامة شاغرة ، ومرةً أخرى يركز الكاتب على حرية الرعية في الاختيار للخلافة ،ويظهر بُعد السلطان عن ذلك ، وكأن العملية تمت في جوٍ من الحرية ، بعيداً عن القوة والتسلط ، وبعيداً عن الرعية في الموافقة على الخلع ، وجبرها في الموافقة على البيعة للخليفة الجديد . بل هي التي تحدده ، فينهال عليه الكاتب بأوصافٍ يجعله منفرداً بها عن غيره ، حتى أن عهد ولايته ينسخ كل ما سبقه ، فهو إذ يستجيب لهذه البيعة فذلك لتعيّنها عليه ، وأنها انحصرت فيه ، فلا مزيل لكربتها غيره ولا كاشف لغمتها سواه (١) .

وهنا يقدم الكاتب السلطان كالتابع لاختيار الناس ، المبايع الأول للخليفة ، ويتبعه في ذلك أهل الحل والعقد ، وينتشر خبر البيعة في الأقطار ، فيمتثل أهلها لذلك ، ولكننا نكتشف أن أول من يجازى على هذه البيعة السلطان ؛ إذ

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ص ٣١٧

تجدد البيعة له بالسلطنة ، ويعود ولياً على أمر المسلمين في الدين والدنيا في الممالك كافة ، يعقد لواءها وينشر أعلامها ، وكما في البيعة السابقة ، يلبسه الخلعة السوداء كشعار للبيعة بالسلطنة ويرسم لنا الكاتب مدى السعادة والطمأنينة التي تفيأ ظلالها الناس ، فرحين بما آتاهم الله من فضله (١) .

إلا أن الباحث لا يلبث أن يصطدم بعد هذه الحرية المتسعة الآفاق بقيود الأيمان المغلظة ، والمواثيق المؤكدة لحفظ العهد بين الرعية المبايعة وبين الخليفة والسلطان الذين حصلت لهما المبايعة . وعلى الرغم من هذا التناقض فيصور لنا الناس مسرعين ! مذعنين للقسم ، والحلف على الوفاء في البيعة والولاء للخليفة ، والسلطان على الدوام والاستمرار ، مع العلم بأن ذلك قد لا يدوم ، فلربما خلع بعد أيام معدودات ، ومثلما في البيعة السابقة نجد أنه يترتب على نقض العهد للولاية ولو سراً مالا طاقة للإنسان به من الأحكام ، فيتوجب عليه طلاق كل ما لديه من نساءٍ، أو من يتزوجها في مستقبل حياته ، طلاقاً نهائياً لا رجعة فيه، ومماليكه أحرار وأمواله صدقه للفقراء ،والحج لبيت الله ثلاثين حجة بثلاثين عمرة راجلاً حافياً حاسراً ،وأن يهدي للبيت الحرام ثلاثين بدنه ولا تجزي هذه عن فريضة الحج ، وصوم الدهر ،وصلاة ألف ركعة في كل ليلة .. (٢) ولا يكون مع ذلك جواز التأويل على المذاهب ، أو التفسير ، وأن نية الحلف على نية الإمام لا نية الحالف .

---

(١) المصدر نفسه : ج ٩ ، ص ٣١٧ _ ٣١٨

(٢) المصدر نفسه : ج ٩ ، ص ٣١٨ _ ٣١٩

وهذه المبالغة تظهر لنا استحالة في التنفيـــذ ، وتوحـــي بتلـــك البيعـــة المكتوبة الأولى ، التي اتخذها الحجاج بن يوسف الثقفي على أهـــل العـــراق ، ونصل المحور الأخير في البيعة حيث يصف الكاتب هذه البيعة بأنها : " طيبـــة المباني ، ثابتة القواعد كريمة المساعي ، جميلة المقاصد " [١] فلا بد _ وهي كذلك _ أن يكون لها جنيُ طيب وثمار يانعة تكون دافعاً للرعية على الوفـــاء ، بها ليدركوا ما امتازت به عن سابقتها التي خلع صاحبها .

بهذه المنهجية قدم لنا القلقشندي المبايعة على أنه يعمد لإصبـــــاغ كـــلا البيعتين بالصبغة الدينية ، سواء بالأمثلة للبيعات السابقة من زمن الرســول ﷺ أو توظيف وتحوير الآيات القرآنية الكريمة ، والتي لا يفتأ يستشهد بـــها بشـــتى وسائل التوظيف ، سواء استشهاداً أو تضميناً ، ليشبع البيعة بالجو الديني متكئـــاً في ذلك على مدى سيطرة العاطفة الدينية على الرعية ، وتأثرهم بكل ما يدعـــو له الدين وانقيادهم لذلك .

ونلمس سَير الكتاب في البيعات على الخطوط العريضة للبيعات الأولـــى التي كتبت منذ العصر العباسي الأول ، إلا أن ذلك لا يعني عدم التجديـــد فـــي داخل هذه الخطوط ، فيلحظ الباحث مقدرة القلقشندي على توظيف المــــوروث

---

(١) المصدر نفسه : ج ٩ ، ص ٣١٩

السياسي ، مثل بيعة السقيفة ، وموقف علي بن أبي طالب من الخلافة في عملية تسويغ الخلع ، والمبايعة الجديدة ودفع الناس لها .

ويجب أن لا ننسى أن القلقشندي قد وضح في كتابه " صبح الأعشى " ما يجب على الكاتب اتباعه عند كتابة البيعة ، فكانت هاتان البيعتان تمثيلاً على ذلك ، حيث أنهما لم يكتبا لحادثة حدثت ،وإنما كانتا رياضة للخاطر ومماشاة لحال العصر ،وإن كانت جذور كتابة البيعة قديمة .

وكما أوضح القلقشندي كيفية الاستهلال في البيعة ، فإنه لا ينسى الخاتمة فيها ، فيشير إلى كتابة (إن شاء الله تعالى) ويليها التاريخ ثم يكتب " بالاذن العالي المولوي الإمامي النبوي المتوكل _ مثلا أعلاه الله تعالى " وكأن الخليفة الذي كتبت له البيعة هو الذي أذن في كتابتها ، ويرى أنه لو أسقط المستند إليه فلا حرج ؛ لأنها تصدر عن أهل الحل والعقد ، ويكتفي في المستند عنهم بكتابة خطوطهم في آخر البيعة ، ثم تكتب الحمدلة والصلاة على النبي ﷺ والحسبلة ، ثم يكتب من بايع من أهل الحل والعقد ، والشهود على البيعة ، فأما من تولى عقد البيعة من أهل الحل والعقد فيكتب : " بايعته على ذلك وكتب فلان بن فلان " ويدعو قبل اسمه بقوله : " بايعته على ذلك قدس الله خلافته " أو" زاد الله في شرفه " وقد يكتب الشهود قبل كتابة أسمائهم بما

يناسب مثل : " قرنها الله تعالى باليمن أو بالسداد " أو " عـــرف الله المســـلمين بركتها " أو ما شابه ذلك [١].

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٣٣١ _ ٣٣٢

العهود : -

العهود جمع عهد ، وهو لفظ يقع له في اللغة عدة معان : منها الأمان كقوله تعالى : ﴿ فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ﴾ ، والمعنى الثاني : اليمين ، ومنه قوله تعالى ﴿ وأوفوا بالعهود إذا عاهدتم ﴾ ومنه الحفاظ لقوله ﷺ : " حسن العهد من الإيمان " وكذلك يأتي بمعنى الذمة لقوله ﷺ " لا يُقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده " وأيضاً بمعنى الزمان كقولهم : " كان ذلك على عهد فلان " ومنه الوصية كما في قوله تعالى : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ﴾ [١] ومنه " اشتق العهد الذي يكتب للولاة " [٢] ، وهو لا يكتب إلا للخلفاء عن الخلفاء أو للملوك ولا تكون إلا عن الخلفاء والملوك . وأما من قام من الخلفاء بغير عهد ممن تقدم ، فإنما يكتب له مبايعة [٣] . ويعرفها محمد الفقي بأنها رسائل تصدر عن الخليفة ، أو السلطان ، لمن رشحه ولياً للخلافة ، أو السلطنة من بعده [٤] .

ويرى القلقشندي أنه على أربعة أنواع [٥] : - الأول عهود الخلفاء عن الخلفاء . والنوع الثاني : عهد الخلفاء للملوك . أما الثالث فهو عهد

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٣٤٨ وانظر المعجم الوسيط ، مادة عهد .

(٢) المصدر نفسه : ج ٩ ، ص ٣٤٨

(٣) ابن فضل الله العمري ، التعريف بالمصطلح الشريف ، تحقيق ودراسة سمير الدروبي ، منشورات جامعة مؤته ط ١٩٩٢ ص ١١٢

(٤) محمد الفقي : الأدب في العصر المملوكي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ ص ١١٠

(٥) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ص ٣٤٩ ، ٣٩٨ / ج ١٠ ص ١٥٨ ، ١٨١

الملوك لولاة العهد بالملك ، وكذلك يتبعها عهد الملــوك بالسـلطنة للملــوك المنفردين بصغار البلدان .

" والأصل في مشروعية العهود ، ما ورد في الصحيحين من حديــث ابن عمر _ رضي الله عنهما _ أنه قيل لعمر بن الخطاب عند موته " أتعَهدُ ؟ فقال : أأحتمل أمركم حياً وميتاً ؟! أن أستخلف فقد استخلف من هو خير منــي " يعنى أبا بكر " وأن أترك فقد ترك من هو خير مني ، رســول ﷺ فــأثبت استخلاف أبي بكر _رضي الله عنه_ بذلك ، مشيراً إلى أن ما روي : " أنــه لما اشتد بأبي بكر الصديق _رضي الله عنه_ الوجع ، أرســل إلــى علــي وعثمان ، ورجال من المهاجرين والأنصار فقال : قد حضر ما ترون ولا بـد من قائم بأمركم ، فإن شئتم استخرتم لأنفسكم ، وإن شئتم اســتخرت لكــم ، فقالوا : بل اختر لنا فأمر عثمان ، فكتب عهد عمر بن الخطاب _ رضــي الله عنه _".[١] وقد عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى ستة وهم : عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بـــن أبــي وقــاص ، ودخلوا فيها وهم أعيان العصر ، وأشراف الصحابة رضوان الله عليــهم".[٢]

وللكتاب في كتابة العهد طريقتان : الأولى طريقة المتقدمين .

---

[١] المصدر السابق : ج ٩ ، ص ٣٤٩ ، صحيح مسلم ج ٢ ، ص ٨٠

[٢] المصدر السابق : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٣٥٠

ويورد القلقشندي مثلاً لها ، نسخة العهد الذي كتبه أبو بكر لعمر بن الخطاب ، وهم لا يأتون بخطبة في العهد ، ولا يتطرقون لأوصاف المعهود إليه ، ولا يتعرضون بالثناء عليه إلا اختصاراً . ويأتي بعد ذلك بالوصاية له ، ويختم العهد بالسلام أو الدعاء له [١] . والطريقة الثانية فهي طريقة الكتاب المتأخرين ، وجاء الثناء على المعهود له بعد الحمد ،وكذلك ،الذكر من ألقلب المعهود إليه بما يناسبه ، ويذكر القلقشندي : أنه لم يظفر بعهد بهذه الطريقة التي ذكرها المقر الشهابي الفضل الله ، في كتابه : "التعريف" فأنشأ عهداً لم يسبق لمثله على هذه الطريق ، ولم يكن هناك مناسبة ، بل أنشأه امتحاناً للخاطر ، وجعله على الإمام المتوكل على الله أبي عبد الله محمد بن المعتضد أبي الفتح أبي بكر لولده العباس ليكون أنموذجاً ينسخ على منواله ، ويذكر القلقشندي أنه لما قبض الله على الإمام المتوكل ، أجمع أهل الحل والعقد على مبايعة ولده العباس بالخلافة ، فتحقق ما أجراه الله على اللسان من إجراء ذلك العهد ، وأنه التقى الخليفة الجديد بعد تسع سنوات ، فقرأ عليه فأظهر ابتهاجاً له ، وأجازه عليه واحتفظ به في خزانته العالية .[٢]

وفي هذا العهد يجد الكاتب قد افتتحه بالثناء على العهد ، مخصصاً له بقوله : " هذا العهد " ثم يصفه بأنه سعيد الطالع ميمون الطائر ، مبارك الأول

---

(١) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٣٥٩
(٢) المصدر نفسه ، ج ٩ ص ، ٣٦٩

جميل الأوسط حميد الاخر[١]، وأن الملوك تشهد له وتباهي به ملائكة السماء وأن الأقطار تتلقاه بالقبول . فنلحظ أن ثمة بهجة أحدثها هـــذا العــهد ، وأن موجودات السماء والأرض قد شاركت في تشكيله ، فللحظ نصيب فيه كمـــا للانهار والشمس حظ من المشاركة في كتابته ، وبهذا التصوير والتوشـــيحُ ، يُعِدُّ الكاتب المتلقي لسماع الخبر العظيم في هذا العهد ، فيعلن أن الخليفة عبـد الله ووليه أبا عبد الله ، محمد المتوكل على الله ، أمير المؤمنين قد عهد لولـده العباس بالخلافة من بعده ، فيثني على ولي العهد باختصار ، مازجـــاً ذلـك بالدعاء .

ويأتي بعد ذلك بالبعدية ، التي يتبعها بالحمد لله بحفظه للإسلام، ورافع راية الخلافة ، وجعلها باقية في بني العباس ، ثم بحمده على وصولها للخليفة القائم ، لما فيه من صفات : كرجاحة العقل ،وسعة الصدر ،وجزالة الـرأي ، وسلامة الفكر، وتمتد التحميدات حتى تصل إلى ثمانٍ ، يتخللـــها مـا يريـد الإفضاء به للرعية ، ففي الثالثة يكون الحمد على حسن الاختيار لولي العـــهد ، حتى قيل في ولي العهد ، هذا الشبل من ذاك الأسد ، أما فـــي الرابعــة : فيأتي على جمع الآراء على اختيار العاهد ، وحب القلوب لمن وقـــع عليـــه الاختيار ، وبعد ذلك يكون الحمد على تجدد النعمة للرعية ، ثم بحمده على ما ستناله الخلافة من الرخاء في عهد الخليفة الجديد ، كما أنه قد ارتفـــع قـــدره

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٦٩

بهذه الخلافة ، وعلى وجه الخصوص أنه شارك جده العباس بالاسم والكنية ، وهذا ما لم ينله ستة وأربعون خليفة من قبله .

وبعد هذه التحميدات الست المضمنة تمهيداً لإظهار الأمر الذي من أجله أنشئ العهد ، وهو دعوة المسلمين إلى مبايعة ولي العهد ،ويرتكز في ذلك على الأحكام الشرعية ، ووجوب طاعة ولي الأمر ، وأن الدخول في البيعة والانقياد لولي الأمر إلزاماً عليهم ، ويوظف المفارقة بين ما هو واجب ، وما توفر لهم ليكون دافعاً أكبر للدخول في البيعة ، إذ إن الشرع يوجب ضرورة الانقياد ولو كان المبايع عبداً حبشياً ،فكيف والبيعة لمن أجمع على سؤدده الأمة ؟ (١) ويدعم ذلك بالآية الكريمة ﴿ فلا يكن أمركم عليكم غمة﴾ (٢) ثم تكون التحميدة الأخيرة ، على ما منح الله أمير المؤمنين من طيب الأصل ، وشرف النسب ، وتوحيدهم لله لا يشركون به شيئاً ، يقيمون بالشهادة مثلما يقومون بالخلافة كابراً عن كابر ، والوصية متوارثة فيهم للذود عن حمى الدين والأمة ، ويعرض لعمومة العباس للنبي ﷺ الذي خصه بكريم الحياء ، ويشير لبقاء أمر الخلافة في بنيه ، مورداً الحديث الشريف " ألا أبشرك يا عم : بي ختمت النبوة وبولدك تختم الخلافة " (٣) وإن بركتها تعم بني عباس ، فتشمل المعهود إليه ، ويعرف قدرها العاهد ، وليس لأمرئ إنكارها .

---

(١) المصدر السابق ، ج ٩ ص ، ٣٧١
(٢) السابق نفسه :ج ٩ ، ص ٣٧١ وانظر القرآن الكريم : سورة يونس آية ((... ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ...))
(٣) السابق نفسه : صبح الأعشى ج ٩ ، ص ٣٧٢

ويتحول الكاتب لمحور آخر في الرسالة ، حيث يقدم الواجبات المناطة بالإمامة ، ومرة أخرى يستند للمرجعية الدينية بالتضمين للأحاديث النبوية ، فيقول : "وكل راع مسؤول عن رعيته ، وكل امرىء محمول على نيته" (١)

ولا يخفى أخذه من الحديث النبوي الشريف :" كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته " (٢) وفي العبارة الثانية من الحديث الشريف : " لكل امرىء ما نوى " (٣) فالإمام مسؤول أمام الله عن نفسه ، ورعيته نصب لخدمة مصالحهم في حاضرهم ، ومستقبلهم ، ويقدم لهم نصائحه ما استطاع جهده .

ويعرج للإشارة لمرجعية ولاية العهد ، ويشير لقصة أبي بكر وعمر التي أشرنا إليها سابقا ، ويعرض آراءهم فيها ، فمنهم من يرى ولاية العهد للقريب ، ومنهم من يراها للبعيد ، ومنهم من رغب فيها ،ومنهم من رغب عنها ، ويرى أنها تبقى عملية اجتهاد في الرأي اقتدارا عليه ،وهذا يوصله لأمير المؤمنين الخليفة العاهد ، فيعدد صفاته ، ويعرض لما اختص به دون غيره من طهارة ، وصفاء سريرة ، وحكمة وعلم فراسة وقوة عزم ، وسداد ورشاد رأي ، إضافة لما عانى وجرب في الحياة ؛ فخبر الناس ظواهرهم وخفاياهم ، والكاتب في هذا ، يريد إيصال المتلقي لدرجة التصديق والإيمان بالرأي الذي توصل إليه الخليفة ، إذ هو عن علم وخبرة ، وتجربة في الحياة ،

---

(١) المصدر السابق ج ٩ ، ص ٣٧٢
(٢) مسلم : صحيح مسلم ، بشرح النووي ، دار أحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط ٢ ، ١٩٧٨ ، ج ١٢ ، ص ٢١٣
(٣) البخاري ، صحيح البخاري ، ج ١ ، ص ٢١٢

فترجح عند جانب العهد على جانب الإهمال ورأي المبادرة إليه أولى من الإمهال [١] . وبعد القرار الأول ؛ الأخذ بالعهد ، يأخذ الكاتب بتهيئة المتلقي ، لاختياره لولي العهد ،فيعرض الأمور التي رأى الخليفة أنها تنتظر المعهود إليه فأعباء الخلافة ثقيلة فمن يتحملها وحده ؟! ومن يسلك بها كما سلك هو و يقتفي سيرته ؟ وينشر العدل كما نشره ، وأقبل على أمور الخلافة بكليته لا ينظر لغيرها ، ولا يشغله عنها شاغل .

وما أن يخرج من هذا الجانب ، حتى يشرع الكاتب في الصورة المقابلة للمعهود إليه ، فيفطن القلقشندي لتقديمها بطريقة غير مباشرة ؛ لتكون أبلغ في نفس المتلقي ، فالخليفة هو الذي يتصور صفات ولي العهد ، ممن كان أحق بوصلها وأمكن بدينها وأرضى لطريقها ومن هو بمنصبها أليق وبمكانها الرفيع حري ، والذي سيكون بمقاصدها وفياً ، فلما كانت هذه الصفات والأوصاف قد اجتمعت في المعهود له ، فقد وقع عليه الاختيار ، فيظهر الكاتب أن الاختيار لم يكن يُحقق لولا تَحقق هذه الميزات بولي العهد .

وكما صور الكاتب الخلافة في البيعة بأنها هي التي تطلب الخليفة ، وأنها هي الحريصة على خطبته ،لا هو ، كذلك يسلك السبيل نفسه في ولاية العهد . فالولاية هي الباحثة عمن يليق بها ، وعندما تجد أسمى غايتها في المعهود له وأنه :"الكفؤ المستجمع لشرائطها المتصف بصفاتها" [٢] فهو من لبانها رضع وفي حجرها تربى ، وهو شبلها الناشئ في آجامها ، بل أسدها الحامي حماها ،

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٣٧٢
(٢) المصدر نفسه : ج ٩ ، ص ٣٧٣

وحاكمها الطائع لأمرها ، وهو القائم بواجبها والمأمون لسرها ، فتعلقت قلوب الناس فيه وإذ ذاك بالغت في طلبه وألحت في خطبته ، وتشبثت في أحباله وتتعلق بأذياله وتتغالى في حبه حتى أنها راودته عن نفسه (١) .

والناس في الآفاق هم من انتظروا هذه الولاية فما خيب أملهم ، فشابه أباه في العدل ، والحكمة ، عندها يقدم الكاتب شرعية هذه الولاية بأن أصبحت واجباً فيتكفل أمورهم معيناً لأبيه في حياته ، ويخلفه بعد مماته .

ولا يفتأ الكاتب عن المعاودة في تبيان أسباب هذا الاختيار ، وأنه لم يكن عن هوىً ، أو عاطفة من الخليفة تجاه ولده ، وإنما هي مصلحة الأمة التي يشفق عليها ، ويرأف بها ويرحمها ؛ فالرعية هي الشغل الشاغل لأمير المؤمنين ، الخليفة ولأجلها بحث عمن اتصف بهذه الصفات ، ومن أخذ بها ومن اتبع طريق الخليفة فيها ، وكان عائداً على الأمة بالخير ، ولقلوب الناس أحلى وأقرب ، ومن هو يشفي الغليل في العمل ، حافظاً للجميل ، فكانت هذه الصفات أيضاً قد اجتمعت بولده العباس .

وأنه لم يكتفِ برأيه حتى مع اجتماع الشروط والصفات بولده ، بل يستشير أهل الحل والعقد والعلماء والفقهاء ، ويستشير وزراه وأمراه . وحتى أعيان أهل العصر ، وعامتهم وجمهوره وكافته ، فيوافقوه الرأي ، فنلحظ

---

(١) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٣٧٣

اتساع أفق الحرية في الاختيار والمشاورة ، ولتعميق حسن الاختيار في نفوس الرعية نجده يصبغه بصبغة دينية أخرى ، وهي الاستخارة لله _ عز وجل _ إذ هي الطريقة التي يلجأ إليها المسلم ، متمنياً حسن الاختيار ، فنجده يستخير ويجدد الاستخارة ، ويكررها مرة أخرى ، كل ذلك ليدخل الطمأنينة إلى قلوب الرعية ، ويُقبل على بيعة ولي العهد دون تردد ، وعندما يشعر أن ذلك استمكن من قلوبهم ، أعلن أنه قد قلده الخلافة المقدسة بعده ، وأن هذا لم يكن بدعاً منه وإنما هي " عادة من تقدمه من الخلفاء الماضين ، وقاعدة من سلف من الأئمة المهتدين " [١] فيأتي بعد ذلك بالتفصيل ، لما فوضه فيه من عهد ، ووصاية وعزل وولاية ، وانتزاع وتخليد ،وجمع وتفريق وإعطاء ومنع ، ووصل وقطع ، وغير ذلك كله تفويضاً شرعياً ، وأن هذا سار في جميع الآفاق ، ويدخل تحته سائر الأقاليم والأمصار على الإطلاق .

وينبه الكاتب بعد ذلك لموافقة وقبول المعهود له بالعهد ، وأنه تم بحضور الشهود من العلماء ، والقضاة والحكام ، وقد كتب به وانتشر في سائر البلاد .

على أن الكاتب يعود تارة أخرى ، لما اتصف به المعهود إليه من صفات ويأتي بها بطريقة جديدة ، إذ يبين أنها على ضربين : الأول ما كان أصلاً فيه وطبعت عليه طباعه السليمة، وجبلت عليه سجاياه الشريفة ، وأخلاقه

---

(١) المصدر السابق ج ٩ ، ص ٣٧٤

الكريمة. وأخرى مكتسبة اكتسبها ، من أمير المؤمنين ، فمن ذلك الآداب الشريفة ، وما رواه أبوه عن جده ، مما طبع في ذهنه فصار طبعاً ثابتاً وامتزج لديه الغريزي بالمتعلم ، فأصبحت طباعه الحسنة أقوى (١) .

ويأبى الكاتب إلا إتمام صورة النموذج الذي قدمه في الخليفة الذي لم يكتفِ بالمشورة ، والاستخارة ومراجعة النفس ، ليحسن صنيعه للرعية حين اختار لها ولي عهده ، وخليفته بعد موته ، وإن كان منطلقه في هذا كله هو تقوى الله ، وحرصه على إرضائه ، وانتهاج طريقه فقد اتبع هذا ، ومن المنطلق ذاته قدم وصايا كثيرة ، والوصية مطلوبة ، وهي مسلك سلكه أنبياء الله ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب﴾ (٢) وتدور الوصايا حول تقوى الله ، والتمسك بالحق والسير على منهج الله في كتابه ، والاقتداء بسنة نبيه عليه السلام بأفعاله " فالكتاب والسنة أخوان لا يفترقان _ والبلاد والرعايا فحطهما بنظرك ما استطعت " (٣) فيقرن العلاقة ما بين البلاد والرعايا بالعلاقة ما بين القرآن والسنة ، وكما أوصاه الإلتزام بالطريق الأولى ، يوصيه بحفظ الثانية فهو في أدائه لواجبه كخليفة ، إنما يؤدي واجباً دينياً كذلك ، حتى في إحسانه لأقاربه ، إنما هو سبب قربهم من النبي عليه السلام . ويحضه على اقتفاء آثار الأئمة الصالحين من السلف ، ويذكره بأن الخير يبقى ذكره على مر الليالي ،

---

(١) المصدر السابق ج ٩ ص ، ٣٧٥

(٢) القرآن الكريم ، سورة البقرة آية ١٣٢

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٩ ، ص ٣٧٥ _ ٣٧٦

ومع ذلك فيوصيه بأنه يجب قصد وجه الله ، لا الرياء ، ويستمر الكاتب بهذه الأصباغ الدينية يصبغ بها عهده ، حتى يدخل ذلك في تفصيل الوصايا ، فينبه المعهود إليه أن ما وصل إليه لم يكن عن قوة منه ، وعليه ألا يغرّ بالمدح ، ولا يتكل على النسب " فمن أطاع الله أدخله الجنة ولو كان عبداً حبشياً ، ومن عصاه أدخله النار ولو كان هاشمياً قرشياً " [١] . ويختم هذه الوصايا بدعوته لإبقاء الخوف من الله ، والحرص من مكره بين عينيه ، فإن الله يورث الأرض لمن يشاء .

وهكذا استطاع الكاتب ، رغم ما قدم من رفعة للخلافة ، وخطر لمكانتها تطمع لها الأنفس ، وتتطاول لها الرقاب ، أن أظهرها من خلال اللبوس الديني الذي أغرقها فيه ، أنها مسؤولية عظيمة وأمانة ثقيلة ، تجعل الإنسان يفكر في أمرها ملياً ، ويراجع نفسه قبل أن يقدم إليها ، ويجسر على طلبها ، إذ هي ليست بمكسب شخصي ، ومنفعة ذاتية للإنسان ، حتى ان المتلقي بهذا العهد يشعر أنها لم تعد ذاك المطلب ، الذي يحسد عليه الإنسان ، بل يحتاج إلى من يدعو الله له ، يسانده في تحمله وتوفية حقه .

بهذه الصورة الثنائية الأنساق ، استطاع الكاتب أن يجمع بين الترغيب والترهيب في مسألة ولاية العهد ، والخلافة من بعدها ، مظهراً عظمة مكانتها ليعظمها في النفوس ، ومظهراً ثقل حملها ، لينظر لها من الرعية على أنها

---

[١] المصدر السابق : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٣٧٦

المسؤولية الشائكة أمام الله ، يدعم ذلك بالآيات القرانية الكريمة المنتشرة في العهد ، في قوله :" واحرص أن تكون من الأئمة الذين يظلهم الله تحت عرشه : " يوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار " [١] .

وبعد الانتهاء من الوصية ، يعود كما بدأ العهد ، بقوله :"هذا عهد "ولكن هنا يزداد تعريفه بإضافته لأمير المؤمنين "عهد أمير المؤمنين ويحدد وجهته بضمير المخاطب إليك ويعطف على العهد بالوصية ووصيته تملى إليك" ويدعم الفكرة بالعبارتين التاليتين بالآية الكريمة :﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ [٢] وينبه أن هذا العهد المكتوب من قبل الخليفة ، حجة للمعهود له [٣] وبعد كتابة العهد يكتب المستند له ،ثم يكتب المستند له فيكتب فيه :"بالإذن العالي المولوي الأمامي النبوي ، الفلاني " بلقب الخليفة " أعلاه الله تعالى"[٤] ، وإذا كان اسقاط المستند في البيعان شيء لا حرج فيه ، فإنه في العهود عكس ذلك لأنها صادرة عن مولٍّ هو العاهد ، فحسن إضافة المستند إليه بخلاف البيعة فإنها تصدر عن أهل الحل والعقد [٥] ، ويكتب الخليفة في بيت الخلافة "عهدت إليه بذلك" لأنه اللفظ الذي ينعقد به العهد وقد يكتب " فوضت إليه بذلك " والقلقشندي يرجح المقام الأول للياقته [٦] ، وقد يقتصر

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٣٧٦ ، وانظر القرآن الكريم ، سورة غافر آية ٥١ – ٥٢
(٢) القرآن الكريم ، سورة الذاريات آية ٥٥
(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٣٧٧
(٤) المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ٣٩١
(٥) المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ٣٩١
(٦) المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ٣٩١

المعهود إليه بالكتابة على قوله " قبلت ذلك " وإن كان أمياً فيكتفى بشهادة الشهود [١] .

أما حول الورق الذي تكتب فيه عهود الخلفاء ، فيذكر القلقشندي أنها كانت تكتب في القطع البغدادي الكامل ، وأنه لما ضعف الخلفاء وصار أمرهم إلى الملوك المتغلبين ،تنازلوا في كتابة عهودهم من البغدادي الكامل إلى القطع الشامي وهو ما يراه القلقشندي الأنسب للعصر المملوكي الذي عاشه [٢] .

وحسب ما يستخدم الورق ، يستخدم له القلم المناسب ، فإن كتب في القطع البغدادي الكامل ؛ استخدم له قلم مختصر الطومار ، وإن كتب في القطع الشامي ، كتب بالقلم الثلثين الثقيل [٣] على أن الباحث أخَّر جزءاً من العهد كان من الممكن دراسته في البداية ، والجزء المؤخر هو طرة العهد ، وجاء هذا التأخير لمحاولة إيضاح بعض النقاط حولها والطرة : هي تلخيص لما يتضمنه العهدة [٤] ، ولا تخلو من الثناء على العهد المكتوب ، لما لذلك من إظهار لأهميته التي تشي بأهمية ومكانة الخليفة كاتب العهد ، والمعهود له من جهة أخرى .

---

(١) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٣٩٣
(٢) المصدر السابق نفسه ، ج ٩ ، ص ٣٩٤
(٣) المصدر السابق نفسه ، ج ٩ ص ، ٣٩٤
(٤) المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ٣٥٧

وقد كتب القلقشندي أكثر من طرة عهد منها ، طرة للعهد الـــذي كتبــه لأبي الفضل العباس عن والده الخليفة ، أبي عبد الله بن محمــــد بـــن الإمـــام المعتضد بالله ابي الفلح أبي بكر [١] ، وكتب طررا أخــرى ، جــاء بعضـــها رياضة للخاطر وليتبع رسمها الكتاب في كتابة الطرة ، وبيان صورة وضعـــه في الورق ، من ذلك ، الطرة التي أنشأها على العهد ،الذي أنشأه القاضي محي الدين بن عبد الظاهر عن المنصور قلاوون ، بالعهد بالسلطنة لولـــده الملــك الصالح ، "علاء الدين علي" ويورد الكاتب في هذه الطرة القاب السلطان العاهد ، وألقاب المعهود له ،ويختتم الطرة بقوله :" بلّغه الله تعالى فيه غايـــة الآمـــال وحقق فيه للرعية ما يرجونه من مزيد الأفضال [٢] " ، وتتكرر هذه العبــارة ، أو ما شابهها من الدعاء في جميع طرر " العهود " التي كتبـــها القلقشـــندي ، وهناك طرة أخرى ، له في عهود الملوك بالسلطنة للملوك المنفردين بصغـــار البلدان ، كتبها على العهد الذي أنشأه المقر الشهابي بن فضل الله للملك الأفضل "محمد بن الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل" آخر ملوك بني أيوب بحمـــاة [٣] على أن هناك دافعاً آخراً دفع القلقشندي لكتابة الطرة ، وهو اعجابـــه ببعـــض العهود التي اطلع عليها ، من ذلك : الطرة التي كتبها على العهد الـــذي كتبـــه المقر الأشرف الناصري محمد بن البازري الحموي ، عهد الســـلطان الملـــك

---

(١) المصدر السابق ، ج ٩ ، ٣٥٧ _ ٣٥٨
(٢) المصدر السابق نفسه ، ج ١٠ ، ص ١٧٨
(٣) المصدر السابق نفسه ، ج ١٠ ، ص ١٩٠

المؤيد أبي النصر (شيخ) عن الإمام المستعين بالله أبي الفضل العباسي أمير المؤمنين خليفة ، وقد مَهَّدَ القلقشندي في كتابه صبح الأعشى بهذه الطرة حيث قدمها وجاء هذا التمهيد تعريفاً للعهد إذ يقول : " ولمّا كان هذا العهد قد أدرع جلبابُ العجائبِ فأعجب ، وارتدى برداء الغرائب فأغرب ، وسقى غرسة ماء البلاغة فأنجب ، وشنَّف الأسماع أن أسمع فأرقص على الأسماع ، وامتطى صهوة جياد البيان ، فتنقل فيها من كميت إلى أشقر ومن أحوى إلى أشهب ، أحببت أن آتي له بطرة هي له في الحقيقة ذيل ، ونغبة من بحر وقطرة من سيل [١] ، ونلحظ أن هذا الإعجاب الذي سيطر على القلقشندي في هذا العهد مرده الجانب اللفظي منه ، فهو يشنف الآذان ولم يشغل العقول ، ويطرب الأسماع دون ترجيح الفكر .

---

(١) المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ١٢٨

الأخبار:

جمع خبر وهو ما ينقل أو يحدث به قولا أو كتابة ، وقول يحتمل الصدق أو الكذب لذاته (١) والخبر أحد الرسائل الديوانية وقد تأخذ الطابع الاخواني ويراد منها إحاطة الخليفة أو صاحب الشأن علما بأمر عام أو خاص

ومن هنا يصعب حصر المعاني التي تختص فيه ، ولا الهيئة التي يكون عليها إلا أنه يمكَن أن يمتاز عن غيره من المكاتبات بأنه لا يحوي مقدمة تكون توطئة لما بعدها والمقدمات تحل من المكاتبة محل الأساس من البنياث ، على أن تكون هذه المقدمات مشتقة من نفس معنى الكتاب ، ويصعب على كاتب الأخبار أن يستنبط من كل خبر تمهيدا ومقدمة تكون بساطا ولا سيّما أن كتب الأخبار متعددة كل خبر منها بخبر يحمل معلومة يراد إيصالها بطريقة رسمية لصاحب العلاقة بطريقة مباشرة وليست على قدرٍ من الأهمية بحيث يدبج لها منشوراً مستقلاً .

وكما أن المراد بالخبر إيضاح صورة بشكل واضح ومقنع لمتلقيه ، ليتنبه له إلا أن بعض الأخبار تحول لخصوصيتها وذاتها دون التصريح عنها باللفظ الخاص بها ، مما يدفع بكاتبها إلى إيصالها والإخبار عنها بألفاظ تؤدي معناها ، فلا يقدم على صدم المخبر بما يكره ويستاء من سماعه مباشرة ، كتلك الأخبار التي ترفع للسلطان حول عبد له قد نشر ما يضع من مكانة

---

(١) مصطفى إبراهيم وآخرون : المعجم الوسط : مادة خبر

السلطان في النفوس وما شابه ذلك مما ينغص على السلطان ، فإن الكاتب يلجأ في هذه الحالة إلى التعريض والتورية لإيصال الخبر ، فيأتي بألفاظ تدل على معاني ما يقصد ايصاله ويحرص على ألا يؤذي سمع السلطان بما يكره سماعه ولا يجوز مقابلته به ، على أن الإيجاز والإطناب في الأخبار يسير حسب ما يقتضيه الحال في الخبر والمخبر به . وإن كان الإيجاز هو الغالب على هذا الضرب من الرسائل (١) .وقد ظفر الباحث بعدد من كتب الأخبار التي كتبها القلقشندي أولها باخبار عن الخليفة ، يوضح فيه وضع الخليفة في خلافته فهي متوطدة ، وهو مكين في دولته إذ هو صاحب رأي عالٍ ، وكلمة نافذةٍ وسلطان عزيز ، وشأن مرتفع ، ويشير إلى نعم الخليفة الوارفة عليه وعلى أهل الخلافة التي تشمل كل من دخل في طاعته ولإظهار القوة التامة للخليفة يصور أعداءه ، فهم محرومون من خيرات بلاده، سالمة منهم أطراف البلاد وثغورها فالأمن مستتب في داخل أرض الخلافة قاصيها ودانيها ، ثم يختم كتابه بالحمد لله على إحسانه ونعمائه (٢). وكتاب آخر بإخبار عن الوزير ، وصف الكاتب فيه حال الوزارة فهي غارقة في النعم مترامية الأطرف ، وذات قوة يشبهها بالويل على الأعداء ، ثم يشير الكاتب لما اختص به من عمل في شؤون الدولة ، فيصفه بالانتظام ، وأنه لا اضطراب فيه ، وأن أحوال الرعية ملتئمة ، ثم ينتقل لمقدرة

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٩ ، ص ٢٢٠

(٢) المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ٢٢١

الوزير الذي منحه الله ما مكنه من أمور السياسة ، وأعطاه حكمة تدبير الأمور ، إذ هو جاد في مراعاة مصلحة الرعية [1] .

ونقع على كتاب آخر بإخبار عن أمير يصف فيه حال الأمير ، ويخبر الكاتب عن النعماء التي يعيش فيها في ظل ذلك الأمير الأكبر .

وهنالك خبر تلمح فيه الخصوصية بشكل أكبر ، إذ يتحدث فيه الكاتب عن عافية المكتوب عنه ، إذ عادت له العافية والانتعاش بعد أن فارقته الصحة ونبت على العافية ، ويلاحظ الباحث أن الكاتب يحاول صبغ الكتاب بالصبغة الدينية .. والتي سيطرت على الكتابة في هذا العصر ، سواء الكتابة الرسمية أو الإخوانية ، وقد لا يكون في ذلك غرابة إذا ما عرفنا أن النزعة الدينية كانت تطفو على شتى مجالات الحياة ، فثمة ملاحظة تجلب الانتباه ؛ ذلك أن الكاتب يحاول تقديم الحالة المرضية التي حلت بالمكتوب عنه ، بطريقة غير مباشرة ؛ كنعمة أراده الله بها إذ هي إنذار وتحذير من الاغترار [2] بالدنيا وما تحمله من إغراءات ، قد تجرف الإنسان في تيارها فتؤدي للخسارة في الدنيا والآخرة ، وهي أيضاً تجربة للإنسان تعينه على خوض معترك الحياة وعصب الأيام ، فيأتي الكاتب وكأنه يحمل بشرى تحوي مفارقتين استطاع الكاتب أن يصيغهما في مقاربة جعل الأولى لا تقل في ابتهاج المكتوب عنه فيها عن الثانية ،

---

(١) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٢٢١

(٢) المصدر السابق نفسه ، ج ٩ ، ص ٢٢٢

فيكون الحمد على هذه النعم وما يمر به الإنسان من تبدل وتغير تدفع بالإنسان للحفاظ على التواصل مع الخالق عز وجل .

ولما كانت هذه الكتب تمازج بين طابعها الرسمي من حيث الشكل والصياغة ، يجدها القارئ ذات طابع خاص من الناحية المضمونية إلا أن الباحث يميل لضم هذه الكتب إلى صنف الرسائل الديوانية ، فطابعها وإن كانت تظهر فيه الخصوصية ، إلا أنها جاءت من خلال العلاقة بين هذه الخصوصية ومن ترتبط به . أي المكتوب عنه ، فهو غالباً ما يكون خليفة أو سلطاناً أو من أكابر الأمراء ، وبالتالي يرى الباحث أن هذه الخصوصية تتحول لقضية عامة ، لما لذلك من أثر على الناس والرعية فلا بد لهذه الظروف التي تحيط بالمكتوب عنه من أن تعكس على الحياة العامة في الدولة إذ هو يشكل العقل والفكر لها ، والرأس المدبر لأمورها ، فما أصابه من خلل يصيب بقية الجسد ، ويضعف من أداء وظائفه .

ويلاحظ الباحث ما اتسمت به هذه الكتب من إيجاز يبتعد الكاتب فيه عن الإطناب والاستطراد فهي تخلو من المقدمات وتقتصر على إيجاز الخبر لتختتم بالحمد دون العمل على توثيقها وتأريخها .

التقاليد :-

وهي من الرسائل الرسمية الصادرة عن الديوان ، المختصة بإدارة الشؤون الداخلية للدولة ، فيتم بموجبها أمر تولية كبار الموظفين ، ينشئه صاحب الديوان أو أحد منشئيه على لسان السلطان .

ومفردها تقليد ،وهو مأخوذ من القلادة ،في العنق ولعل قولهم :" قُلّد به أمر كذا إذا وليته اياه كمعنى اصطلاحي مأخوذ منه (١)، فكأن المولّي ، جعل أمانة ومسؤولية ذلك الأمر في عنق المقلَّد له .

وثمة اختلاف في تقسيم التقليد ، إذ يرى القلقشندي : أنه يتكون من طرة ومتن (٢)في حين يقسمه شهاب الدين محمود الحلبي إلى أربعة أقسام ، يرى أنها متقاربة التقدير إذ يقول:" ويحسن أن يكون الكلام في التقليد على أربعة أقسام متقاربة المقادير،فالربع الأول: الخطبة ،والثاني يذكر موقع الإنعام في حق المقلد ،وذكر رتبته وتفخيم أمرها . والثالث في أوصاف المقلد ، وذكر ما يناسب تلك الرتبة ويناسب حاله في عدل، وسياسة أو مهابة، وبعد صيت أو سرعته، وشجاعته إن كان نائبا، ووصف الأحوال، وما يناسب ذلك أن يكون وزيرا ، وكذلك في كل رتبة بحسبها، والرابع في الوصايا ، وهذه هي القاعدة في مثل ذلك ،ومنها أن يراعي المناسبة ، وما تقتضيه الحال ، فلا يعطي أحدا

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ١٠١
(٢) المصدر نفسه ، ج ١١ ، ص ١٠١

أكثر من حقه ، ولا يصفه بأكثر مما يراد من مثله "(١). على أنه ينبـــه إلـــى تجنب التعريض بالمعزول ، لما يورث ذلك من ضغائن ، ويدل على ضعـــف رأي المقلد في اختيار الأول (٢).

ولابن فضل الله العمري رأي يخالف فيه شيخه الحلبي في تقسيم التقليـد ، إذ يقول : " واعلم أن شيخنا شهاب الدين محمود الحلبي _ رحمه الله _ قسم مقدار التقليد أو التوقيع تقسيما لا أرضاه، والذي أراه اختصار مقدار التحميـدة التي في الخطبة ، والخطبة مطلقا و إطالة ما بعـد ذلـك ، و الإطنـاب فـي الوصايا_ اللهم إلا لمن جل قدره وعظم أمره _ فإن الأولى الاختصـــار فـي الوصايا الجماليات ، ويعتذر في الاختصار بما يعرف من فضله ، ويعلم مـن علمه ، ويوثق به من تجربته " (٣)

وينقل القلقشندي عن كتاب العمري " التعريف " طـرة التقليـد تعنـون بقولهم : " تقليد شريف لفلان بكذا " (٤).

ويفصّل القلقشندي في ذلك ، موضحا ما كتب في كل حال ومقـام (٥) ، أما المتن : " فإنه لا يستفتح إلا بالخطب بالحمد لله وليس إلا ، ثم يقال بعدهـا : أما بعد ،ثم يذكر ما سنح من حال الولاية ، ومن حال المولّي ، وحسن الفكـــر

---

(١) الحلبي : شهاب الدين محمود (٧٢٥ هـ / ١٣٢٤ م) حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، تحقيق ودراسة أكرم عثمـان يوسف ، دار الرشيد للنشر ، الجمهورية العراقية ، وزارة الثقافة والإعلام ، ١٩٨٠ ، بلا طبعة ، ص ٢٦٨

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٦٨

(٣) ابن فضل الله العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١١٧

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ١٠١ / والتعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١١٦

(٥) القلقشندي : صبح الاعشى ج١١ ، ص ١٢٩

في من يصلح ، وأنه لم ير أحق من ذلك المولّى ، ويسميه ، ثم يقال ما يفهم هو المقدم الوصف أو المتقدم إليه بالإشارة ، ويلي ذلك بقوله رسم بالأمر العالي المولوي ، السلطاني ، الملكي الفلاني ، ويدعى له أن يقلد كذا .... ثم يوصي بما يناسب تلك الولاية ، مما لا بد منه تارة جَمليا وتارة تفصيليا ، وينبه فيه على تقوى الله تعالى ، ثم يختم بالدعاء للمولّى بالإعانة ، أو المزيد أو التوفيق ، أو يجري مجرى السبيل ، ثم يقال : " وسبيل كل واقف عليه العمل به بعد الخط الشريف أعلاه [١] " .

ويلحظ الباحث مدى الاهتمام في هذا الضرب من الرسائل الديوانية من قبل الكتاب ، وعنايتهم بها على وجه الخصوص ، فعلى الكاتب " أن يتخير الكلام والمعاني ، فإنه مما يشيع ويذيع ، ولا يعذر المقصر في ذلك بعجلة ،ولا ضيق وقت،فان مجال الكلام عليه متسع ،والبلاغة تظهر في القليل والكثير ، وحجة الحلبي في ذلك على الكتاب أن "الأمر الجاري في ذلك معروف ، وفي أيدي الناس مما كتب فيه شيء كثير" [٢] ، وقد امتازت عن باقي المكاتبات ببعض العبارات ، مثل أن يقال بعد التحميد والتشهد ، والصلاة على النبي _ عليه الصلاة والسلام _ : أما بعد ، وهو الأعلى ،وتكون في التقاليد خاصة أما في المراسيم وكبار التفاويض والتواقيع فتكتب وبعد وهي دون أما بعد [٣].

---

[١] ابن فضل الله العمري : التعريف ، ص ١١٥ _ ١١٦ / وانظر صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ١٠٥ _ ١٠٦
[٢] المرجع نفسه ، ص ٣٦٩
[٣] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ١٢٩

ولعل سبب هذا الاهتمام عائد لمكانة من تكتب لهم هذه التقاليد " فلا تكـون إلا لكفلاء الملك كأكابر النواب والوزراء ومن كان في معناهما، وقد تكون لأكابر قضاة القضاة ،فأما عامة القضاة فيجب ألا يسمى ما يكتب لهم إلا تفـاـيض"(١) ويضيف القلقشندي لجملتهم كاتب السر (٢). أما محمود رزق سليم ، فيشـمل معهم كتاب السر ،ونظار الأوقاف وبعض أمراء النواحي والمملكين بها."(٣)

وقد كتب القلقشندي في هذا الضرب من الرسائل ، من ذلك تقليـد لـه بإشارة للأمير جمال الدين يوسف البشاسي ، استدار في الدولة الناصرية فـرج ، حين فوضت إليه الإشارة مضافة إلى الاستدارية ، ويذكر القلقشـندي أنـها وظيفة جديدة لم يعهد للمتقدمين أنهم كتبوا فيها .(٤)

بدأ الكاتب التقليد بخطبة أخذت ثلث التقليد تقريبا ، واستهلها بالحمد لمـا حل بالديار المصرية من تجديد ، فمنذ البداية نجد الكاتب يشير لفضل المقلـد فيوري لسيدنا يوسف _ عليه السلام _ ولا سيما أن المقلّد اسمه يوسف ،"فيشير إلى عزة جانبها بأجل عزيز " ففيه تلميح " للعزيز " اللقب الذي كانت تحملـه ملوك مصر في زمن "يوسف"عليه السلام ، ويذكر ما اتصف به المقلـد مـن سداد في الرأي ، وإذا أشار بعد التحميدة الأولى للتجديد الذي حصل للديـار ، فإنه يعيد ذلك بعد التحميدة الأولى : " نحمده على أن أغاث الدولة القـاهرة ،

---

(١) ابن فضل الله العمري : التعريف ، ص ١١٢
(٢) القلقشندي صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ١٠٥
(٣) محمود رزق سليم : عصر السلاطين المماليك ، ق ٢ ، ج ١ ص ١٣٢
(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ١٥٣

بمن أخصب به بعد الامحال ، ربعها وطال بطوله بعد قصور فرعها ، وحسن في المناظر بحسن يأتيه لذي التأمل ينعها" [١] فهي مقارنة خفية ، يعرضها الكاتب حول حال الديار ، قبل وبعد تعيين المقلد .

وينتقل من الحمد إلى التشهد ، لينساق في التمهيد للوظيفة المقلدة ، فيربطها بمنطلقها الديني ، إذ أنها من تشريع الله ، وإذا كانت الحياة تسير بين السيف والقلم ، فالمشورة أساسها ، وهما لا يخرجان عن طوعها في حال الاختلاف والاتفاق ، ويختتم هذه الخطبة بالصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام .

ويبدأ القسم الثاني من التقليد ويفتتحه بالبعدية " أما بعد " ثم يأتي دور الكاتب في تفخيم أمر الوظيفة وعلو رتبتها . وقد استطاع الكاتب أن يتسلل لذلك من خلال حديثه عن قواعد المملكة ، ورأى أنها التي تستند عليها ودعائمها التي بها يشتد بنيانها ، ومهما اتسعت المباني ، فإن القلقشندي يرجعها إلى النسقين السابقين في الخطبة ، وهما السيف والقلم . فيجعلهما القطبين اللذين بهما تدبر شؤون المملكة في الاتفاق ، ويعاد إليهما عند التخاصم ، فهما حكمان منصبان ومن خلال هذا التعظيم ، والتبجيل للسيف والقلم من الكاتب ، يجعل المتلقي يتساءل ، ويبحث عن الوظيفة التي سيتقلدها المحكم بينهما ، إلا أنه يزداد تلهفا ، عندما يجد الكاتب وقد جعلهما يعودان لأمر أكبر ، هو (إملم)

---

[١] المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ١٥٣

يرتدان إليه ، انه الرأي بمكانة النجم الذي يهتدي به الضائع و المقدم على الشجاعة ، لذا فهو المقدم عند الملوك المبجل المعظم لديهم ، ويبلغ من علو المكانة أنه يقدم على الولد و الوالد " ولا يؤثرون على معاضدته عضداً و لا ساعداً إن أشار برأي تمسك الملك منه بالحبل المتين ، أو محضه كلام نصح قال : ﴿ إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ [١] ولما كانت الإشارة تعتمد على الرأي فقد استطاع الكاتب ببراعته أن يفخم أمرها ، ويرفع مكانتها دون ذكرها مباشرة ، بل اعتمد في ذلك على تفخيم مصدرها ، الرأي الذي هو مرادها الذي منه تستمد قوتها .

وما أن اطمأن الكاتب أنه وافى الوظيفة حقها و " ذكر ما يسنح من حال الولاية " [٢] حتى انعطف إلى المقلد ليبدأ بألقابه و يأتي إلى آخرها ليتلو ، ذلك باسمه وينسبه إلى دولة عصره (الناصري) ويأخذ في وصفه بإسهاب ، فهو من حنكته التجارب وخبر الأمور ، وهو صاحب رأي صائب ، وله فكر وقريحة ، تأتي على البديهة بالعجائب ، وأحسن التدبير في سياسة العساكر ولما كان قد تسلم قبل هذه الوظيفة وظيفة الاستدارية [٣] وهي قبض مال السلطان ، والتصرف فيه ، فيورد الكاتب من صفاته حسن التصرف في المال دون تقتير ، حتى جمع القلوب حوله وهو ما لم يتأت لمن قبله ، ويبالغ الكاتب في وصفه ، حتى جعله ممن " أتى من خوارق العادات في التنفيذ بما لم يلحقه فيه لاحق" [٤] وأضاف الكاتب إلى ما

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٥٤

(٢) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١١٥

(٣) القلقشندي صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٥٧

(٤) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٥٥

تقدم ، أن المقلد قد جمع مع طاعة الله رضا ملكه ، ومن هنا أظهر لنا الكاتب تلك الصفات التي ارتآها السلطان بالمقلّد ، حتى شبهه بسيدنا يوسف _ عليه السلام ، في قوله تعالى: ﴿ اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ (١).

وبهذه الطريقة سوغ اختياره لهذه الرتبة السنية " فلذلك رسم بأمر الشريف العالي ، المولويّ ، السلطاني ، الملكي ، الناصري الزيني _ لا زال يجمع لأوليائه شمل المعالي ، ويرقي أصفياءه في درجات العز على مر الأيام و الليالي _ أن تفضل إلى المشار إليه " الإشارة الشريفة التي هي أسمى المقامات و أعلاها " (٢) .

وينتقل الكاتب إلى القسم الأخير من التقاليد ، وهو الوصايا ، وتكون أولاها دعوته للمقلّد بالقبول ، إذ لا تكون الوظيفة قائمة دون موافقته عليها ، ويوصيه بتقديم تقوى الله في كل أموره ؛ ما ظهر منها وما بطن ، ونلحظ أن الكاتب قد أقتصر في " الوصايا على أهم الجمليات ويعتذر في الاختصار بما يعرف من فضله ، ويعلم من علمه ، ويوثق به من تجربته " (٣) . وهذا الاختصار يدل على جلالة قدر المقلد ، وعظم أمره وارتفاع مكانته ، فيرى الكاتب أن الوصايا الكثيرة تستخرج دررها من بحره ، وغررها تؤخذ من

---

(١) القرآن الكريم : سورة:يوسف آية:٥٥

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٥٥
(٣) العمري : التعريف ، ص ١١٧

آرائه السابقة في شتى الأمور .

ثم يلي هذه الوصايا وإيضاح سبب اختصارها ، بالدعاء ويدعو له دعوتين ؛ الأولى : بإدامة النعمة على المولى ، والثانية بأن يتولاه الله بعنايته . ثم قال بعد ذلك : " والاعتماد على الخط الشريف أعلاه الله تعالى ، أعلاه إن شاء الله تعالى " (١) ومما يلحظه المستقرئ للتقاليد ، أن الكاتب لم يخرج في صياغته وبنيته للتقاليد ، عمّا كان عليه كتاب عصره ، وإن كان موضوعه جديداً ، ولعلنا نلحظ خروجه على منهجية ابن فضل العمري في كتابة التقاليد ، فمنذ البداية لاحظنا أن الخطبة قد استغرقت صفحة من أصل ثلاثُ صفحات استغرقها التقليد ، أي ثلث التقليد ، وهذا ما يخالف مقولة العمري ، التي قال فيها : " و الذي أراه اختصار مقدار التحميدة التي في الخطبة ، و الخطبة مطلقاً وإطالة ما بعد ذلك " (٢) ولعل القلقشندي قارب رؤية شهاب الدين محمود الحلبي الذي يرى أن : " التقاليد و التواقيع و المناشير و ما يتعلق بذلك فالأحسن فيها بسط الكلام ، وتعتبر كثرته و قلته بحسب الرتب ... ويحسن أن يكون الكلام منقسماً في التقاليد على أربعة أقسام متقاربة في المقادير " (٣) في التقسيم،والباحث يلحظ خروجاً عليها في المضمون ، حيث يدعو الحلبي لعدم التعريض بالمعزول لأن ذلك " يوغر الصدور ويورث الضغائن في القلوب ،

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٥٦
(٢) العمري : التعريف ، ص ١١٧
(٣) الحلبي : حسن التوسل الى صناعة الترسل ، ص ٣٦٨

ويدل على ضعف الآراء في اختيار الأول" [١] في حين نجد القلقشندي قد لمّح لما كانت عليه الحال قبل تولية المقلد الجديد ، إذ يقول :" نحمده على أن أغاث الدولة القاهرة ، بمن أخصب به بعد الامحال ربعها ، وطال بعد القصور فرعها [٢] "، فهو يصف البلاد بالمحل رمز الخراب و العسر قبل عهد المقلد ، أي أن سابقه في هذه الوظيفة ، كان يسيء التصرف في الأمور ، ولا يحسن تدبيرها .

وربما كانت هذه الاختلافات البسيطة في تقسيم التقاليد وصياغة مضمونها ، يعود لكثرتها ، وتنوعها لتنوع الوظائف و الرتب التي تكتب فيها . ويذكر الحلبي أن في أيدي الناس من كتبه الشيء الكثير [٣] ، ويرى محمود رزق سليم أن التقاليد :" ربما كانت أكثر رسائل الديوان صدوراً ، لتواتر حاجة الدولة إلى كبار الموظفين مع كثرة ما يتعرضون له من نقل أو عزل " [٤] ويشير عمر موسى باشا لأهمية التقاليد بقوله : " وهكذا نستطيع أن نتبين بدقة أهمية كتب التقاليد ، التي توضح الآداب السياسية و السلوك الأمثل ، الذي يجب أن يتمسك به الإنسان الفاضل " [٥] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٦٨
(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٥٣
(٣) عمر موسى باشا : أدب الدول المتتابعة ، دار الفكر ، ط ١ ، ١٩٦٧ ، ص ٧٩٣ /وانظر الحلبي حسن التوسل،ص ٣١٩
(٤) محمود رزق سليم : عصر السلاطين المماليك ق ١ ج ١ ، ص ١٣٢
(٥) عمر موسى باشا : أدب الدول المتتابعة ، ص ٧٩٦

وحول مقادير قطع الورق التي تكتب فيها التقاليد فيشير العمري إلى أنها تكتب في قطع الثلثين وقطع النصف [١] ، و يفصلّ القلقشندي في ذلك بتحديد قطع الثلثين لنواب السلطنة بمصر والشام مطلقاً ، وكذلك الوزير و المشير وكاتب السر ، وقاضي قضاة الشافعية و الحنفية بالديار المصرية ، أما النوع الثاني وهو قطع النصف ؛ فيكتب فيها لذوي التقاليد من أمراء العرب ، ويفصل فيها فيذكر أمير مكة المشرفة ، وأمير المدينة الشريفة ، وأمير آل فضل من عرب الشام . ويؤكد بأن التقاليد لا تكتب في غير هذين المقدارين من الورق[٢]. ويجعل القلقشندي قلم الثلث الثقيل للمقدار الأول ، أي قطع الثلثين أما قطع النصف فيرى أن قلمها قلم الثلث الخفيف [٣] ، في حين لا يفرق العمري نوع قلم الثلث المستخدم في كلا المقدارين ويكتفي بالقول " والتقاليد قطع الثلثين وقطع النصف بقلم الثلث الكبير " [٤] .

---

(١) العمري : التعريف ، ص ١١٩
(٢) القلقشندي ، ج ١١، ١٠٧

(٣) المصدر نفسه ، ج ١١، ١٠٧
(٤) العمري ، التعريف ، ص ١١٩

التواقيع :-

جمع توقيع ، وتتعدد معانيه في اللغة منها : أن يصيب المطـــر بعــض الأرض ويخطئ بعضها [١] ، ويأتي بمعنى الإصابة وخفة التأثير [٢] يقـــال دف هذه الناقة ، موقع إذا أثرت فيه حبال الأحمال _ والدف الجنب _ تـــأثيراً خفيفاً وحكى القيسي أن أعرابية قالت لخل لها حديثك ترويع وزيارتك توقيــع [٣] ، ولعل هذا قريب في المعنى مما يورده صاحب أحكام صنعة الكلام حيــث يقول :" وهذا النوع من الكلام ، مما عدلوا فيه عن التطويــل والتكــرار إلــى الإيجاز والاختصار ، فمنه ذلك ما جاء بالكلمات ، ومنه ما يـــأتي بالكلمــة الواحدة ، ومنه ما جاء بحرف واحد " [٤] .

ويورد القلقشندي معنى التوقيع في اصطلاح الأقدمين من الكتاب علـــى أنه: " اسم لما يكتب في حواشي القصص لخط الخليفة ، أو الوزير في الزمــن المتقدم " [٥] ولعل ذلك ينطبق على ما أورده صاحب " خاص الخاص " حيـث يورد باباً كاملاً من كتابه في تواقيع الأقدمين ، ونلحظ أن التوقيع فيها لا يزيــد على السطر الواحد في أغلب الأحيان ، وغالباً ما تكون حكمــــاً أو أمثـــالاً أو

---

(١) إبراهيم مصطفى وآخرون ، المعجم الوسيط ، مادة (وقع) .
(٢) ابن منظور ، المصري ، لسان العرب ، مادة (وقع) .
(٣) الصولي ، أبو بكر أدب الكتاب دار الكتب العلمية ، بيروت ،لبنان ، بلا تاريخ ، ص ١٣٤
(٤) الكلاعي الأندلسي ، أبو القاسم محمد بن عبد الغفور " من أعلام القرن السادس الهجري " ، أحكام صنعة الكلام ، تحقيـــق محمود رضوان الداية ، دار الثقافة ، بيروت لبنان ، بلا تاريخ ، ص ١٦٠ _ ١٦١
(٥) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ١١٤

مأخوذة من آية كريمة أو حديث شريف (١) ، وقد اتبع الأندلسيون هذه الطريقة في التواقيع حيث كانوا يميلون إلى: " الإيجاز والبساطة في التعبير ، والابتعاد عن التعقيد والتكلف " (٢) .

وبذا فالتوقيع ينظم على رد موجز يضع الأمور في نصابها الصحيح ، إذ يتوخى الإصابة من هذه الجهة ، كما يترك من الجهة الأخرى أثر عند صاحب الرسالة ، الموقع عليه سواء أكان هذا التأثير خفيفاً أم شديداً ، سلبياً أم إيجابيا ، فالمهم أن صاحب الرسالة يناله أثر جراء التوقيع ، مع إغضاء الطرف عن طبيعة هذا الأثر وتبعاته (٣) .

ويرى محمد الدروبي أن العصر العباسي عصر ازدهار التوقيعات العربية ، وأن من أهم العوامل التي ساعدت على انتشار هذا الضرب من ضروب الرسائل الديوانية ، هو ازدياد العنصر الفارسي في الدولة العباسية ، حيث أدخلوا تطويراً بارزاً في التوقيعات ، حيث كان لهم حضورٌ واضحٌ على مختلف مناحي الحياة ، ويرى أن أثرهم لم يقف عند المناحي الموضوعية في التوقيعات ، بل تعداه للمناحي الأسلوبية ، وتوسعوا في بسط المعاني ، وعدلوا عن الإيجاز إلى الإطناب فيها ، ويشير إلى أنهم نظموا لها هيئة إدارية خاصة سميت " ديوان التوقيع " يعمل فيه عدد من الكتاب المهرة ، يوقعون على الكتب

---

(١) الثعالبي ، عبد الملك بن محمد بن اسماعيل ، ت ٤٣٠ هـ ، خاص الخاص ، شرحه وعلق عليه مأمون بن محي الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط ١٩٩٤ م ، الباب السادس ١٢٣ _ ١٣٩

(٢) فايز عبد النبي القيسي ، أدب الرسائل في الأندلس ، دار بشير للنشر والتوزيع ، ط ١٩٨٩ ، ص ١٩٦

(٣) محمد الدروبي ، الرسائل الفنية في العصر العباسي ، ص ٦٨

الواردة على أبواب الخلفاء ، حتى أصبح التوقيع من المناصب الخطيرة لأرباب القلم . ويشير لمقولة علي بن خلف صاحب " مواد البيان " حيث اعتبر صاحب التوقيع " يد السلطان ولسانه " [١] .

وثمة مقاربة في ذلك لما نجده في العصر المملوكي ، حيث أصبح التوقيع علماً على نوع خاص ، مما يكتب في الولايات وغيرها [٢] ، وفي حديث القلقشندي على كتاب الدست ، والذين يجعلهم في الطبقة الأولى في ترتيبه لكتاب الديوان ، فهم الذين يشاركون كاتب السر مجلسه مع السلطان ، بدار العدل في المواكب ، ويقرأون القصص ، ويوقعون على القصص مثلما عليه كاتب السر ، ووسموا بكتاب الدست ، لجلوسهم في دست السلطان ، حيث يجلسون بين يديه فيرى القلقشندي أنه لرفعة مكانتهم هذه : " هم أحق كتاب ديوان الإنشاء باسم الموقعين ؛ لتوقيعهم على جوانب القصص بخلاف غيرهم ، وكانت هذه الرتبة لاحقة بشأو كتابة السر في الرفعة والرياسة " [٣] .

ويرى أنه لا يجوز إطلاق لقب الموقعين ، على الطبقة الثانية من كتاب الإنشاء ، وهم كتاب الدرج ، ذلك أنهم يكتبون ما يوقع به كتاب الدست (الموقعون) إذ أن المراد من التوقيع ، هو : الكتابة على جوانب القصص ونحوها [٤] .

---

(١) علي بن خلف الكاتب : مواد البيان ، تحقيق : حسين عبداللطيف ، منشورات جامعة الفتح ، طرابلس ، ١٩٨٢ ، ص ٧٤
(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ١١٤
(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٣٧
(٤) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٣٨

وقد تكتب التواقيع على نموذج التفاويض فيقال فيها : " أن يفوض " وقد يقال : " أن يترتب ، وأن يقدر " (١) .

ويلحقها صاحب " حسن التوسل إلى صناعة الترسل " بالتقاليد والمناشير فيما يتعلق في إنشائها ، ويفضل بسط الكلام فيها ، أما حول كثرة الكلام وقلته فيها ، فيسند ذلك للرتبة التي تكتب من أجلها (٢) .

وتعنون التواقيع بقولهم : " توقيع شريف لفلان بكذا " وأما حول استفتاحها فلهم فيه طرائق كثيرة ، منها قولهم : " الحمد لله " أو " أما بعد حمد الله " وقد تستفتح بقول : " إن أولى ما كان كذا " أو يقول : " من حسنت طرائقه وحمدت خلائقه " (٣) .

ويرتب القلقشندي التواقيع في أربع طبقات ، الأولى : ما يفتح بخطبةٍ مستهلة بحمد الله ، ويجعلها في رتبتين ، أولاها : ما يكتب بقطع النصف بقلم الثلث الخفيف مثل ذلك ما يكتب به لأرباب الأقلام " توقيع شريف بأن يفوض للمجلس العالي القاضوي الكبيري ... " أما المرتبة الثانية : ما يكتب في قطع الثلث بقلم التوقيعات ، وهو لمن رتبته السامي بالياء ، أما الطبقة الثانية من التواقيع ما يفتتح " أما بعد حمد الله " وهو لمن رتبته السامي بغير ياء ، وهذه الطبقة على مرتبتين : الأولى : ما يكتب في قطع الثلث ، وقد قل استخدام هذا

---

(١) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١١٦
(٢) الحلبي : حسن التوسل ، ص ٣٦٨
(٣) العمري : التعريف ، ص ١١٦

الضرب في عصر الكاتب ، والمرتبة الثانية من هذه الطبقة : هي ما يكتب في قطع العادة المنصوري ، وهو قليل الاستخدام . والطبقة الثالثة : من التواقيع ما يفتتح اللفظ : " رسم بالأمر الشريف " وهي على مرتبتين ، لم يذكر القلقشندي إلا واحدة منها ، وهي ما يكتب بقطع العادي المنصوري بقلم الرقاع ، ويكتب فيها لمن رتبته السامي بغير ياء ، ممن لم تبلغ رتبته قطع الثلث ، والطبقة الأخيرة من التواقيع ، لأصغر ما يكون في الولايات ، من نظر وقف صغير ، و نحو ذلك : وهي على ضربين ، الأول ما يكتب على مثال أوراق الطريق ، من ذلك ما يكتب في أعلى الدرج : " توقيع شريف بأن يستقر فلان بكذا " والضرب الثاني : ما يكتب على ظهور القصص : وهو أن تلصق القصة ، التي شملها جواب كاتب التوقيع ، على وصلين من ورق العادة الصغير (١) .

ومما يميز رتب التواقيع ، كذلك الدعاء في آخرها ، حيث أن من استصغر من المولين لا يدعى له في آخر التوقيع (٢) ، أما في خواتم التواقيع وعلى اختلافها فلا يقال : " وسبيل كل واقف عليه " بل يقال : " فليعتمد ما رسم به فيه ، بعد الخط الشريف أعلاه " (٣) .

ويشير العمري ، لأرباب الوظائف التي تكتب لهم التواقيع ، فيقول : " وهي لعامة أرباب الوظائف جليلها وحقيرها ، وكبيرها وصغيرها ، حتى

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ١١٥ _ ١٢٦

(٢) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١١٦

(٣) المرجع السابق ، ص ١١٦

النواب اللاحقين بشأو الكبار ، فمن دونهم ، وعندي في ذلك نظـــر ، والـــذي أرى أن يكون لمن لحق بشأو الكبار ، فـــهم تفـــاويض وللصغـــار مراســـيم ، ولأدنى الطبقات فهم تواقيع ، لميزة السيوف على الأقلام ، وذلك تجري نســـبة التواقيع على ما يكتب في المسامحات والإطلاقات " (١) .

ويلاحظ الدارس لهذا النوع من الرسائل الديوانية ؛ مدى التنـــوع فـــي الموضوعات ، التي كتبت فيها التواقيع في العصر المملوكي ، مما يفيد الـثراء في المضامين ، التي تنوعت تنوعاً كبيراً ، غدا يوازي ما امتازت به غيرهـــا من الرسائل الديوانية ، إذ أن التواقيع لم تعد مقتصرة على الردود التي ترفـــع للسلاطين والخلفاء بل شاركت التقاليد في كتابة العهود ، والتعيينات في شـــتى الوظائف ، وقد كتبت هذه التوقيعات من قبل الموقعين على لسان الخليفة .

وقد ظهرت مساهمات القلقشندي واضحة في هذا الضرب من الرســـائل الديوانية ، ولعل ذلك عائد لطبيعة عمله في ديوان الإنشاء ، إذ كان أحد كتـــاب الدست ، الذين أشار إليهم بقوله إنهم من يستحقون اسم الموقعين ، مـــن بيـــن كتاب الديوان الآخرين ، وندرس له توقيعاً بالتدريس في المدرسة الصلاحيـــة بمصر ، المختصة بالمالكية والتي عرفت باسم القمحية ، أنشأه للقاضي جمـــال الدين الأقفهي .

---

(١) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١١٢

ويبتدأ هذا التوقيع بخطبة استهلها بالحمد ، وبما أن موضوع التوقيع التدريس ، فيشرع الكاتب بالتمهيد له منذ بداية الخطبة . فالحمدُ يشيرُ لنعمةٍ قد حلت ، دعت الكاتب للحمد عليها ، فجاء الحمد على التميز بين العلماء بسوابق الأفكار . وتعمير المعاهد برأس الفرسان من العلماء ، وخصص للمدرسة الصلاحية (بحبرٍ) امتازعلى غيره بمآثر يأخذها عنه أهل الدين ، وتأتي التحميدة الثانية بتخصيص دافعها ، وهو ما امتاز به هذا العالم من الجوهر الأصيل في العلم ، فكان اختياره دليل إصابة وتوفيق . وبعد التحميدتين تكون الشهادة ، التي منها ينطلق في المديح لأهل العلم عامة ، ليربطهم بحمل الشريعة ، ويشير لكونهم ورثة الأنبياء . وإن سيدنا محمد عبده ورسوله أفضل نبي ، عَلِمَ و عَلَّم ... وصحبه الذين عنوا بتفسير كتاب الله تعالى ، فأدركوا دقيق معانيه ، واهتموا بالحديث رواية ودراية ، ففازوا بتأسيس فقه الدين وإقامة مبانيه (١) .

فإضافة لكون الموضوع المتحدث عنه ذا علاقة بالعلم والدين ، فإن الكاتب يعمد لهذا اللبوس الديني ، من جعل المدرسين ورثة الأنبياء ، والإشارة للنبي كمعلم ، والصحابة كدارسين ومدرسين للفقه ، لتكوين هالة عظيمة ومكانة رفيعة لمهنة التدريس وليغرس في الناس حب العلم والعلماء . فنجده يدخل بعد الانتهاء من الخطبة للبعدية (وبعد) ، ليصب في الدائرة نفسها ،

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ، ٢٣٧

فيظهر ما للنفوس من تعلق وللملوك ومن سلف من أثر ، في بناء المدارس وإقامتها ، ويجعل العلم هو حجر الأساس في هذه المدارس ، فهو المضمار الذي تستبق فيه فرسان المشايخ ، وإليه يرد طلاب العلم ، ويخص من ذلك المدارس الأيوبية ، التي بدأ بإنشائها صلاح الدين ، صاحب الفضل والأفضال عليها ، ويحدد في هذا التخصيص ، المدرسة القمحية ؛ الآخذة بالخير والمتخصصة بالمذهب المالكي ، و كان يدفع الأجر فيها قمحاً ، وقد رتب فيها أربعة دروس ، وكانت الأركان التي تقوم عليها ، فكان لا بد لها إذاً من عالم يقوم بها . إذ جعل الكاتب من الخطبة وما بعدها ، سبيلاً يدفع بالمتلقي لانتظار أوصاف ومناقب هذا العالم ، الذي هيئت له كل الظروف السابقة ، حتى ليكاد المتلقي يسأل من يكون ، عند ذلك يأتي الكاتب بألقابه ونعوته ، والتي تربو على الثلاثين نعتاً ولقباً ، يكون أولها المجلس العالي ، ليلي ذلك بوصفه بالقاضي والشيخ الكبير العالم الفاضل ، حتى أنه البليغ المتفرد ، والقدوة والحجة ، والأوحد وشرف العلماء العاملين ، وهو للمدرسين فخرهم ، وللمتكلمين لسانهم ، وللمناظرين أمامهم ، وفوق ذلك فهو خاصة الملوك ، وولي أمير المؤمنين ، فيقدم اسمه أبو محمد (عبد الله الأقفهي) وينسبه إلى مذهبه الشافعي ، ويواصل الحديث عن أفضاله ، ومكانته التي تبوأها بين علماء عصره ، حتى حملت عنه في مناحي البلاد وآفاقها ، ويقرب الصورة للمتلقي ، لتصور عملي إذ يشعرنا الكاتب أنه ما انطلق من هذا المنطلق إلا

لتجربته للمعين ، إذ أثبت جدارة في كل منصب سابق تقلده ، وهو من يطلب منه التمهل في المجالس ، في تقدم هذه الأوصاف والصفات ، ثم يخبر أن كل ما ذكر كان على سبيل الإجمال لا التفصيل ، مما يدل على مدى تمتع المعين بعظيم الصفات وكريمها [١] . وعلى لسان السلطان يأتي التنويه بصاحب التوقيع (المعين) : " اقتضى حسن الرأي الشريف أن ننوِّه بذكره ، ونقدمه على غيره ، فمن حاول ذلك امتنع عليه " [٢] .

هذا التمهيد والتقديم الأخير لإصدار التعيين في الوظيفة ، يتبع ذلك الجزء الثالث من التوقيع حيث صدور القرار ، فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي المولولي السلطاني ، الملكي ، الناصري ، الزيني ... [٣] فيكون الثناء على السلطان بما يراه الكاتب من ألقابه المعروفة ، وإن هذا السلطان لم يكن تعيينه عن هوى في نفسه ، بل في سبيل احقاق الحق ، وإيثاراً للمصلحة العامة للعملية التعليمية ، فيكون القرار أن يستقر المجلس العالي المشار إليه ، في تدريس المدرسة الصلاحية بمصر المحروسة ، المعروفة بالقمحية عوضاً عن فلان الفلاني على عادة من تقدمه [٤] ، فنراه يحدد المدرسة (الصلاحية المعروفة بالقمحية) ويذكر اسم المقال من الوظيفة .

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٢٣٨
(٢) المصدر نفسه ، ج ١١ ، ص ٢٣٨
(٣) المصدر نفسه ، ج ١١ ، ص ٢٣٨
(٤) المصدر نفسه ، ج ١١ ، ص ٢٣٨ _ ٢٣٩

أما الجزء الرابع من التوقيع ، فيشمل الوصايا : وأولها ، أن يتقبل المعين القرار بالقبول والموافقة ، ويرى الكاتب أن هذه الوظيفة حق للمعين لما تقدم له من صفات . أما الوصية الرئيسة تقوى الله ، فهي خير زاد له ، ويكتفي الكاتب بذلك ، ويعتذر عن الاختصار في أن مكانة المعين ، وعلمه تغنيه عن الوصايا ، بل أن الوصايا تؤخذ عنه .

ويلي ذلك بالدعاء له ، ويكون ذلك بدعوتين : أولاهما ، أن يبلغه من المقاصد غايتها ، والثانية ، أن يرقيه أعلى الرتب ، ويضيف الكاتب لذلك " بقد " التحقيق بقوله : " وقد فعل " (١) ، إذ يعتبر أن وظيفة التدريس بالمدرسة الصلاحية (القمحية) أعلى الرتب .

ويختم التوقيع بقوله : " الاعتماد على الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه " (٢) وهي العبارة الرسمية التي تختتم بها التواقيع ، دون ذكر قولهم : " وسبيل كل واقف عليه كما في التقاليد " وهذه من الفروق بين التقاليد والتواقيع ، ويعتبر هذا الخط حجة في ذلك (٣) .

ونتناول توقيعاً آخراً للقلقشندي أنشأه للشيخ شهاب الدين ابن حاجي ، بالخطاب في الجامع الأموي ، ولا تقل إجادة القلقشندي فيه عن إجادته بالتوقيع السابق ، فنهج نهجه في الشكل والأسلوب ، وما غير إلا في المضامين لتناسب

---

(١) المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٢٣٩
(٢) المصدر السابق نفسه ، ج ١١ ، ص ٢٣٩
(٣) المصدر السابق نفسه ، ج ١١ ، ص ١١٤

موضوع التوقيع ، يبتدئ التوقيع بخطبة يستهلها بالحمد ، والذي يتكرر مرتين ، فتأتي هذه الخطبة كتمهيدٍ أولي للموضوع ، فيعرض المنابر والخطباء ، ولدور الخطابة في تنبيه القلوب الغافلة والخواطر النائمة ، ثم تكون البعدية برسم (وبعد) ، ومع الاقتراب من الموضوع الرئيس ، ينصب التركيز على المساجد وأهميتها في حياة الأمة ليتسلل في ذلك لمكانة المساجد ، وأعظمها مكانة وخطراً ، فيعلي من مكانة المسجد المقصود في التوقيع ، ويجعله بعد المساجد الثلاثة ، التي تشد إليها الرحال ، ويظهر مدى اهتمام الملوك والسلاطين به ، ومدى عنايتهم باختيار خطيبه من بين الخطباء ، فالخطابة أخطر وظيفة من الوظائف التي يحتاجها المسجد ، وليس أدل على ذلك من أن الرسول ـ ﷺ ـ كان متصدياً لها ، وأن الخلفاء الراشدين من بعده باشروها بأنفسهم .

وما أن يطمئن الكاتب لاستحواذ أهمية هذه الوظيفة على نفس المتلقي ، لما وصفها به من تفخيم ، ويشعر أن المتلقي قد شنف سمعه ، لمعرفة من سيتبوؤها ، حتى يشرع بوصف الخطيب المعين ، ويأتي على ألقابه ونعوته ، فيجعلها تشارف على الخمسين لقباً واجتماع هذه الألقاب به تقدمه كخطيب مثال ، أنموذج في عصره ، فهو عالم وقاضٍ وشيخ وقدوة ، وورع وبليغ وفريد ومفيد ، بل هو قدوة البلغاء ، وحجة الأمة ولسان المناظرين ، وهو

شمس الشريعة ، وفوق ذلك مؤيد الملة فليس ميالاً لحزب أو فرقة ، فلذلك كان ولي أمير المؤمنين أبي العباس أحمد .

ومن اجتمعت فيه هذه الصفات ليس فقط يستحق هذه الوظيفة ، بل وكما لاحظ الباحث في معظم كتابات القلقشندي ، أن الوظيفة هي التي تسعى إليـــه ، وتخطبه لنفسها فهو الكفؤ الكامل ؛ الذي أنساها من سبقه إليها فمالت إليـــه [١]

ويواصل الكاتب فيضه على المعيّن بألوان الثناء والمديح حتى تثق نفسه أن متلقيه قد بارك خطبة الوظيفة للمعين وأنه أحق بها ، ويأتي بعبارة التعيين " اقتضى حسن الرأي الشريف ، من المنابر على علي درجها " [٢] ثم يلي ذلـك بعد إظهار تقديمه على غيره عبارة " فذلك رســم بــالأمر الشــريف العــالي المولولي السلطاني ، الملكي المنصوري المعز ... أن يفوض إلـــى المجلـس العالي المشار إليه ، خطابة الجامع المذكور ، بانفراده على أتم القواعد وأكملها ، وأحسن العوائد وأجملها " [٣] .

وعلى الرغم من تلك الأوصاف والنعوت ، التي أصبغها الكاتب علـــى المعين ، حتى جعل منه أنموذجاً ، ومثال المتفرد ؛ إلا أن ذلك لا يمنعــه مــن السير ، على منوال هذا الضرب من المكاتبات في عصره ، فيضـــم توقيعــه

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٢ ، ص ٧٦
(٢) المصدر نفسه ، ج ١٢ ، ص ٧٧
(٣) المصدر نفسه ، ج ١٢ ، ٧٧

مجموعه من الوصايا ، نجدها في صميم موضوع التوقيع ، يوصيه بحسن اختيار المواعظ التي تنشرح لها القلوب ، ويأتي بالزواجر ، وأن يكون صادقاً بذلك من قلبه وأن يتخير لكل مقام مقال ، فيذكر الناس بما يناسب حالهم ، ويتخير الزمن المناسب لكل موعظة من المواعظ ، ولعل هذه الوصايا مما يرتبط بالخطابة وعوامل إنجاحها ، ثم يعتذر الكاتب عن كثرة الوصايا ، لأنه يرى في العلم والشريعة ، والتي امتلك أزمتها المعيّن ما يفي عن الاستزادة ، إلا أن الكاتب لا ينسى أن يوصي بتقوى الله ، فهي ملاك الأمور كلها ، وإن كان يرى أن عند المعين من تقوى الله ما يكفي ، ويختم توقيعه بدعوة للمعين ، يدعو فيها الله أن يرقيه إلى أرفع الذرى ، ويرفع على الجوزاء مجلسه [١] .

على أن الباحث وجد تواقيع أخرى للكاتب في التدريس[٢] والقضاء [٣] ومنها ما سقط من الكاتب ولم يثبته في كتابه [٤] ، ولعل استعراض هذين التوقيعين ، يعطي تصوراً حول هذا الفن الديواني عند الكاتب ، بشكل خاص والعصر المملوكي بشكل عام ، وهي على أهميتها لم تُدْرس بشكل خاص ، وما زالت موزعة في مضانها ، والتي لم يحقق بعضها ، ولعلنا ندرك الأهمية التي امتازت بها التواقيع حيث : " كانت تجهز إلى البلاد كلها ، وتحمل منها نسخ كثيرة توزع فيها ، وهي صورة طبق الأصل عن التوقيع الأصلي ،

---

(١) المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٧٧
(٢) المصدر السابق نفسه ، ج ١١ ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤١
(٣) المصدر السابق نفسه ، ج ١٢ ، ص ٥٠
(٤) المصدر السابق نفسه ، ج ١١ ، ص ٢٥٠

ويلاحظ أنها توضح لنا بعض مظاهر الحياة الهامة ، وهي بنصوصها تسـجل لنا مظهراً من مظاهر أدب هذا العصر ، وعلاقته الوثيقة بالحياة السياسية ، بَيد أنها تبدو بعيدة الصلة عن الحياة النفسية والعاطفية بعض البعـد ، فـهي ذات طابع رسمي وظيفي أكثر منها ذاتية أو تأملية ، بيـد أننـا يجـب ألا نفقدهـا أهميتها ، إذ أننا نعرف منها صورة الحاكم المثالي ، كما يفترض أن تكـون ، وصورة القاضي النزيه العادل ، وصورة الخطيب المفوه (١) .

---

(١) عمر موسى باشا ، أدب الدول المتتابعة ، ص ٧٩٦

التصادير:

التصادير ، جمع تصدير ، ونقول : تصدّر فلان ؛ أي جلس في صدر المجلس وتقدم قومه [١] ، أما في الاصطلاح ، فهو : الجلوس في صدر المجلس ، بجامع أو نحوه ، على أنه يجلس متحدث أمامه على كرسي كأنه يقرأ عليه ، يبدأ حديثه بالتفسير ، ثم يتبع ذلك بالرقائق والوعظيات ، حتى ينهي كلامه فيسكت ، ويأتي دور المتصدر ، فيأخذ في الكلام ، على معنى تفسير الآية التي يقع عليها الكلام ، فيتوسع في ذلك ، ويبسط في الشرح ليسنح للحضور فهمه بيسر وسهولة ، وربما أفرد التصدير عن المتكلم على الكرسي [٢] .

ويعتبر القلقشندي التصادير نوعاً من التواقيع ، ويجعلها في الوظيفة الثامنة ، وهي من الصنف الثالث ، الذي يفتتح بـ" رسم بالأمر الشريف " وهي أدنى التواقيع رتبة . وتكون في قطع العادة الصغير ، وربما كتب بها في قطع العادة المنصوري [٣] .

ولأبي العباس القلقشندي مساهمة في هذا المضمار ، من ذلك تصدير أنشأه للشيخ شهاب الدين " أحمد الأنصاري " الشهير بـ" الشاب التائب " بالجامع الأزهر . يفتتح هذا التصدير بالعبارة المخصصة لذلك ، الآنفة

---

(١) إبراهيم مصطفى وآخرون : المعجم الوسيط ، مادة صدر
(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١١ ،ص ٢٥١
(٣) المصدر نفسه ، ج ١١ ، ص ١٢٩

الذكــر " رسم بالأمر الشريف " ويتبع ذلك بما يؤكد نعم السلطان التي تشــتمل المجالس بخيرها ، ولعل أعظم هذه النعم ، ما يختصها به من توليـــة صــدرٍ جدير بالصدارة ، يستحق هذه الرتبة من بين علماء التفسير ، الذي إذا دقق لـم يفهم شرحه إلا عنه ، حتى إذا ما بسط كلامه أصبح تفسيرا للتفسير .

وفي تدرجه هذا يعلن عن المُولَّى بذكر لقبه " الشاب التــائب "، ولعلــه اختار ذكر اللقب دون الاسم ، لما لهذا اللقب من علاقة دينية ، فهو يشتق مــن التوبة والنزوح عن الذنوب ، حتى إذا ما غدا شيخا ؛ كان صالحا فإنها أكــرم النعوت على كل تقدير ، وهنا يحدد الوظيفة " أن يستمر المجلس الســامي أدام - الله تعالى رفعته - في كذا وكذا " [١] ويلحظ الباحث أن هــذا التعيين قــد صاحبه دعــاء " أدام الله تعالى رفعته " الذي منه يخرج الكــاتب لأوصــاف المولى ، ولا يخفى سخاء الكاتب في نعوته ، ومديحه له ، فهو الإمام الــذي لا تقارن علومه مع غيره ، والعلامة الذي لا تدرك مداركه وآفاقــه ، والفــارس الذي يعترف له بالفوز مناظرة ، حتى جعله آية في التفسير .

وعقد حقيقة التفسير الذي لا يفسخ ، فجلب الكاتب هــذه الأوصــاف ، لغاية تبرير اختيار المعين ، ويبين للمتلقي أن هذا التعيين لـــم يكــن محــض المصادفة ، ولا عن هوى في نفس السلطان ، بل لما يتصف به مــن صفــات ولأنه : " الماهر الذي استحق بمهارته التصدير ، والجامع لفنونـــه المتنوعــة

---

(١) المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٢٥١

جمع سلامة لا جمع تكسير " [١] ويواصل الكاتب في مدحه ، حتـــى يصـــل القسم الذي يليه من التصدير وهو الوصايا ، وأولى الوصايا هي قبول العمـــل الذي أوكل إليه ، ثم يتابع الوصايا ، وهي تتعلق بالجلوس في صدر المجلـس ، وتفسير القرآن الكريم ، وتوضيح معانيه ، ويوصيه بالإحسان إلـــى المشـــايخ الذين يجالسونه ، ويحض الشباب على التوبة والإقلاع عن المعاصي . ثم يتبـع ذلك للدعاء للمعين برفعة المكان، ويختم التصدير بالمشيئة "أن شاء الله تعالى".

وهنالك تصدير آخر أنشأه أبو العباس القلقشندي ، لقاضي القضاة " بدر الدين محمد " ابن قاضي القضاة بهاء الدين أبى البقاء ، وولده جـــلال الديـــن محمد بإعادة تصديرين كانا باسميهما ، بالجامع الأموي بدمشق ، أحدهما انتقـل إليهما عن سلفهما والثاني بنزول ، وخرج عنهما عند استيلاء " تنـــم " نـــائب الشام على الشام في سنة اثنتين وثمانمائة ، ثم أعيد إليهما في شوال من الســـنة المذكورة و كُتب في قطع الثلث [٢] .

وقد سار في هذا التصدير سبيل التصدير السابق ، فافتتحـــه بخطبـــة استهلها بتحميدة ، وورّى بين (بدر الدين) لقب قاضي القضاة المعين ، والبـدر أحد مراحل القمر ، جاريا في ذلك ، على سبيل مدحه والإعـــلاء مـــن شـــأن مكانته ، وتأتي التحميدة الثانية ، في الخطبة في منهج مختلف عـــن التصديـــر السابق ، حيث تشعرنا بأن ثمة أمر مختلف ، فهناك أيدٍ مغتصبة وأيام جـــائرة

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٢٥٢
(٢) المصدر نفسه ، ج ١٢ ، ص ٨١

جاهلة ، فحقوق معادة مقرة وهذا كلــــه تمـــهيد للموضـــوع الرئيـــس ، إذ أن التصدير بالجامع الأموي كان للمعينين ثانية ، المعادين لمكانتهما : " بدر الديـن ووله جلال الدين " ولذلك نجد الكاتب ما أن يتخلص من الخطبـــة ، ويشـــير بالبعدية ، يدخل في الموضوع : " فان أولى من رعيت له الحقوق القديمـــة ، وحفظت له مساعيه الكريمة ، وخلدت عليه النعم التي حق لها أن تكون بأهلــها مقيمة ...." (١) فيتناول عقب ذلك المعين مادحاً بسخاء ، ثم يدخل في التمـــهيد مباشرة بقرار التعيين فيأتي على نعوت الأدب فتكون كثرة ملفتة للنظر ، حتـــى يصل اسمه أبو عبد الله محمد ، ويتبعها بعبارات مدحية ، يخلص منها لولـــده ، ليصبغ عليه ما شاء من الألقاب والنعوت ، ليعرض بعد ذلك القضية الواقعـــة ، ويفصّل بها منذ أن كانت وكيف وصلت لهما ، وخروجها عنهما : " واتفــق أن خرج عنهما ما كان باسميهما من وظيفتي تصدير بالجامع الأموي ، المعمـــور بذكر الله تعالى بدمشق المحروسة ، المنتقلة إحداهما إليهما عن سلفهما الصـــالح قدماً ، والصائرة الأخرى إليهما بطريق شرعي معتبر ...." (٢).

وهنا لم يتبق إلا قرار التعيين ، الذي يأتي بصيغـــة : " رســـم بـــالأمر الشريف – لازال لذوي البيوت حافظا ، وعلى الإحسان لأهل العلم الشــــريف على ممر الزمان محافظا ، أن يعاد ذلك إليهما ويوالـــي مزيـــد الإحســـان

---

(١) المصدر السابق ، ج ١٢ ، ٨١
(٢) المصدر السابق نفسه ، ج ١٢ ، ص ٨٣

عليهما " [١] ويلي القرار بالوصايا التي لا يطيل بها ، معتذرا عن ذلك لمكانتهما في هذا المجال ، وخبرتهما فيه فيقول : " والوصايا وإن كثرت فمنهما تؤخذ ، ومنهما تستفاد " [٢] ويدعو لهما بدعوتين ، تليهما العبارة الرسمية " والاعتماد على ذلك بالخط الشريف ، أعلاه الله تعالى ، أعلاه حجة بمقتضاه " ويختمه بالمشيئة .

---

(١) المصدر السابق نفسه : ج ١٢ ، ص ٨٣

(٢) المصدر السابق نفسه ، ج ١٢ ، ص ٨٤

الاطلاقات :

الاطلاقات ، جمع إطلاق : وهو ما يخصصه الملك أو السلطان ، من مال أو أرزاق لمجموعة من الناس ، أو لشخص بعينه ، إما تقرير لما قرر غيره من الملوك السابقة ، وإما ابتداء لتقرير ما لم يكن مقررا قبل ، وإما زيادة على ما هو مقرر (١) .

وهي على طرفين : الأول ، ما يكتب عن الأبواب السلطانية ، والثاني : ما يكتب عن النواب ، وقد سقط الطرف الثاني من كتاب القلقشندي ، ونجد بعض الاشارات لمثله في كتاب " التعريف " مثل قوله : فأما ما هو عن النواب في الاطلاقات ، فلا يكتب فيه إلا العالي خاصة مجردة عن الشريف (٢) وقوله عن الاستفتاح بالبسملة ، وهو الأهم ومنها ما لا يستفتح بها ، وذلك لما هو أدنى ، كأوراق الجواز في الطريق ، ويكتب عن النواب ، مثل هذا في الاطلاقات من الخزانة العالية ، والأمراء والاصطبلات ، وخزائن السلاح وغير ذلك (٣) .

فأما الطرف الأول ، وهو ما يكتب عن الأبواب السلطانية ، فهو على ثلاثة مراتب، المرتبة الأولى : ما يكتب في قطع الثلث مفتتحا بالحمد لله ، وهو أعلاها (٤) ويورد القلقشندي منه نسخة عن إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله

---

(١) المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ٤١
(٢) العمري : التعريف ، ص ١١٧
(٣) المرجع نفسه ، ص ١١٣
(٤) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٤١

، باستقرار ما أطلقه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، بالديار المصرية ، للعمريين أعصاب أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ كتبه في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون (١) .

والمرتبة الثانية : ما يفتتح بـ" أما بعد حمد الله " ويكن إما في قطع الثلث أو في العادة المنصوري (٢) والمرتبة الثالثة في ما يفتتح بـ" رسم بالأمر الشريف " ويكتب في قطع العادة .

وقد كتب القلقشندي في هذه الرتبة من الاطلاقات ، وأنشأ إطلاقا لشرف الدين قاسم بمرتب على الفرنج القادمين لزيارة القدس ، يبدأ هذا الإطلاق بعبارة " رسم بالأمر الشريف – لازال" وتتلوها عبارات مدحية للسلطان ، تسير بالموضوع الذي يتضمنه الإطلاق ، فالسلطان يتسم بالعدل في توزيع مال الفيء ، ذلك الذي يؤخذ بغير حرب ، وفضله يصح على أهل الفضل ، وبعد هذه العبارات القصيرة يبرز القرار " أن يستقر لمجلس القاضي فلان الدين ، على فرنج الجرجان الواردين لزيارة قمامة بالقدس الشريف كذا وكذا " (٣).

ويأتي على بيان الأسباب الداعية لهذا الإطلاق ، والدوافع المبررة لذلك ، فيذكر صفات المُطْلَقُ له باختصار ، ويذكر أن من الدوافع مجاورته للمسجد الأقصى فيذكر مزايا هذا المسجد ، إذ هو أولى القبلتين ، وثالث الحرمين ،

---

(١) المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ٤١
(٢) المصدر السابق نفسه ، ج ١٣ ، ص ٤١
(٣) المصدر السابق نفسه ، ج ١٣ ، ص ٤٦

وهو أحد المساجد التي لا تشد الرحال إلا إليها ، وكذلك لمجاورته القبة المعظمة والأماكن المقدسة والآثار الشريفة .

ويظهر دافعا آخر وراء فيض السلطان على القاضي شرف الدين قاسم ، بهذا الإطلاق ، ذلك لقيام القاضي بالدعاء لدولة السلطان بالقاهرة ، والابتهال إلى الله بدوام أيامه الزاهرة (١) .

وينتقل الكاتب إلى الوصايا ، وتأتي الوصية الأولى " فليتناول هذا المعلوم متهنئا متيسرا ، وليَرْجُ من كرمنا الوافر فوق ذلك مظهرا " (٢) فتشعرنا بمدى اهتمام السلاطين بأولئك المجاورين للأماكن المقدسة ، إذ إن العبارة (تناول) فيها من اليسر والسهولة أكثر من (يأخذ) مثلا - ثم أنه _السلطان_ يرجو أن يكون هذا المعلوم مهيئا ميسراً ، أي أن يأتي لصاحبه في بيته دون أدنى عناء ، وفوق ذلك يطلب منه ، أن ينتظر المزيد من الإنعام عليه بالخيرات ، فتأتي الوصية والطلب ، والواجب الذي يكلف فيه صاحب الإطلاق وهو " الدعاء " ونستشعر مدى سيطرة النزعة الدينية والأيمان ، بأثر الدعاء على الأعداء ، وعلى وجه الخصوص إذا ما كان منطلقا من الأماكن المقدسة . هذا بالنسبة للمكان أما الزمان فيختار الليل ، بل يصف الدعاء بأنه " سهام الليل التي لا تخطئ ، إنشاء الله تعالى الطغاة المتمردين " (٣) فيرى أن

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ج ١٣ ، ص ٤٦
(٢) المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٤٦
(٣) المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ٤٦

هذه السهام لا تقل خطرا على الأعداء ، من سهام المقاتلين في ساحة الوغى ، فبذلك استحق هذا السهم من الفيء حقه ، ثم يوصي الكاتب صاحب الإطلاق بأن يبقى على استقامة في الدين، وليتبرأ من سواه ويقابل إنعام السلطان بالشكر

وتكون الخاتمة " والخط الشريف أعلاه " دون المشيئة أو " من وقف عليه " فهو تحديد لاستخدامه بالاطلاقات . ونلحظ أن الكاتب استهل الإطلاق ب" رسم بالأمر الشريف " بدون استهلاله بالحمد ، كما أن الإطلاق قد خلا من الخطبة والبعدية ، ولكنه أبقى على الوصايا وأنه قدم من خلال الوصايا مفهوما خاصا للدعاء ، ولأثره على الأعداء ، وخصه بزمان ومكان محددين ، فجعل التأثير بالليل أعظم ، وأن انطلاقه من الأماكن المقدسة يعطيه قوة أكبر ، والإطلاق يخلو من الدعاء لصاحب الإطلاق بخلاف الكتابات الديوانية الأخرى ولعل ذلك عائد لطبيعة موضوعه ، إذ هو إنعام من السلطان لأهل الصلاح المقيمين في المساجد والأماكن المقدسة ، وإن طلب منه الدعاء في ذلك إلا ؛ لصلاحه ولمجاورته للمساجد .

وهنالك إطلاق آخر أنشأه القلقشندي باسم بهاء الدين على الفرنج الجرجان ، الواردين إلى ثغر الرملة المحروسة (١) .

يفتتحه " رسم بالأمر الشريف - لازال "، ويلحظ الدارس براعة القلقشندي في ولوجه إلى موضوع الإطلاق ، من خلال الصورة التي يقدمها

---

(١) المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ٤٧

لكرم السلطان ، بهذا الرسم ، إذ يصور المكارم التي تتوالـــى علـــى النـــاس بالسحاب المتراكم ، بعضه فوق بعض ، حتى يكون مطرها فوق ما يجري فـــي السيول وما تحمله الغمائم ،ويشخص النول والعطاء ويجعل لــه فــيء يشــمل الناس بخيره ، كما يلجأ إلى التورية ، حيث يتلاعب في أسماء من تكتب ، لــهم الكتب من اطلاقات وغيرها ، فعبارته الأولى "لازال إحسانه يزين ببهاء حسـنه المكارم" وعبارة أخرى "... فهم من فضله بين غانم وابن غانم" (١).

فكلمة "بهاء" هي من "بهاء الدين" "وابن غانم" هو والد صاحب الإطـلاق ، عمل الكاتب على توظيف هذه الأسماء ، بما يشعر بأنه يريد المعنى المتداول من البهاء ، فالشيء البهي الجميل الحســن ، والغــانم الــذي يحصــل علــى الغنيمة ، الخير والنفع .

وهكذا يحاول القلقشندي ، توظيف قدرته الإنشائية في إخــراج كتاباتــه كأعمال ، لا تقل قيمتها الفنية عن القيمة المضمونية ، التي أنشأت من أجلها .

---

(١) المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ٤٧

التفاويض :

التفاويض ، جمع تفويض : وهو مصدر فوض الأمر إلى زيد ، إذا رده إليه[١] وجعل له التصرف فيه [٢] ومنه قوله تعالى : "وأفوض أمري إلى الله " [٣] أما حول من يكتب لهم بالتفاويض : فهم عامة القضاة ، وإن أصبح الدارج في العصر المملوكي ، أن يكتب لهم بالتواقيع إلا أن صاحب "التعريف بالمصطلح الشريف" ، يحدد ذلك بقوله :"واعلم أنني لا أكتب هذا إلا تفاويضاً ، وأما صغار النواب فيأتي ذكرهم بالتواقيع" [٤] ويعود لتحديد ذلك بقوله : " والذي أرى أن يكون لمن لحق بشأو الكبار منهم تفاويض وللصغار مراسيم ، ولأدنى الطبقات منه التواقيع " [٥] والتفاويض في نمط التقاليد ، غير أنه لا يقال بعد الخطبة إلا "وبعد".. ولا يقال "يقلد" ويكون أخضر من التقاليد ، ويقال في تعريفها :" تفويض شريف لفلان بكذا " [٦] وقد يقال في التواقيع " أن يفوض" كما أنها تقال في التقاليد ، فيقال :" أن يقلد كذا ، أو أن يفوض إليه كذا " والأولى أعلى مرتبة [٧] .

ومن هنا نستطيع القول أن التفاويض تقع بين مرتبة التقاليد ، التي هي أعلى منها ، وبين التواقيع التي هي أقل منها ، وإن كانت تشترك مع الصنفين

---

(١) المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ١١٢
(٢) إبراهيم مصطفى وآخرون : المعجم الوسيط ، مادة (فوض) .
(٣) القرآن الكريم : سورة غافر آية ٤٤
(٤) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١١٢
(٥) المرجع نفسه ، ص ١١٢
(٦) المرجع نفسه ، ص ١١٦
(٧) المرجع نفسه ، ص ١١٥ _ ١١٦

في الأسلوب والترتيب ، ولعل الاختلاف يكون في بعض العبارات وأحياناً في ، وظيفة من يكتب له الكتاب ، على أن القلقشندي يجعلها ضمن وظائف التواقيع .

ويذكر القلقشندي: أنه لم يجد من نسخ التفاويض غير واحدة ، كتب بها المقر الشهابي بن فضل الله العمري ، لبعض قضاة دمشق [١] وللقلقشندي تفويض ، أنشأه لقاضي القضاة ، جمال الدين يوسف البساطي بقضاء المالكية بالديار المصرية ، وكتب له طرة يفتتحها بقوله :" تفويض شريف للمجلس العالي القاضوي الجمالي ، يوسف البساطي المالكي_أعز الله أحكامه_ بقضاء قضاة المالكية بالديار المصرية ، على أجمل العوائد وأكمل القواعد " [٢] وما نلحظه أن الطرة تأتي تلخيصاً للتفويض ؛ فهي تعطي المعنى المراد من تفويض بشكل مختصر ، فلا تحوي الخطبة ولا الألقاب إلا الضروري منها، كما لا تشتمل على الوصايا والأدعية ، أما التفويض فيبدأه بخطبة ، يستهلها بالحمد لله على عودة جمال الدين للقضاء ، مستخدماً في ذلك أسلوب التورية ، وبنفس الطريقة ، يشير لعودة الشيخ جلال الدين عبد الرحمن البلقيني لقضاء الشافعية ، إذ وافق على ذلك عودة البساطي . وتأتي التحميدة الثانية داعمة نفس النسق ، وتمتد للتشهد والصلاة على النبي _ عليه الصلاة والسلام _ الذي " أحكم بسد الذرائع سداد الأمور ، فجرت أحكام شريعته الطاهرة على

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ١١٣
(٢) المصدر نفسه ، ج ١١ ، ص ١١٣

السداد "[١] فهو يوحي بالمعيّن ، بأن هذه الصفات يجب أن تتبع في الوظيفة .

وتأتي بعد ذلك البعدية " وبعد " وهنا يظهر اسلوب اعتدناه من الكاتب ، حيث يقدم :" المعين في الوظيفة " على أنه المطلوب لا الطالب ، والمخطوب لا الخاطب ، فالوظيفة التي تلجأ إليه ،" والمناصب السنية تأزر إلى مستحقها ، كما تأزر الحية إلى جحرها"[٢] ثم يلي ذلك بقوله : ولما كان المجلس العالي ، القاضوي .. إلى آخر ألقابه .. ويظهر الكاتب سخاءً في الثناء على المعيّن ، فهو من مهدت آثاره ، وسارت في الآفاق حسن سيرته ، وانتشرت علومه ، وألفاظه رائعة ، ومعانيه فائقة .. حتى أن القلم يسابق الطرس في وصفه ، وفي طي ذلك لا يتورع القلقشندي **عن** تكرار رغبة الوظيفة إلى الموظف : " وكانت وظيفة قضاء قضاة المالكية ، بالديار المصرية في رفيع رتبتها ، ووافر حرمتها قد ألقت إليه مقاليدها ، ورفعت بالانتماء إلى المجلس العالي أسانيدها ، وعجمت بتكرر العود عودة فأعرضت عن السوى ، وقرت بالإياب إليه عيناً "فألقت عصاها فاستقر بها النوى "[٣] وبهذا يرى الكاتب أنه اقتضى حسب الرأي الشريف ، أن تعاد الوظيفة لصاحبها الأول ، ليعود الأمر إلى نصابه ، وبعد هذا الاسترسال في المديح ، تأتي العبارة الرسمية ، فلذلك " رسم بالأمر

---

(١) القلقشندي صبح الأعشى : ج ١١ ، ص ، ١٩٠
(٢) المصدر نفسه ، ج ١١ ، ص ١٩١
(٣) المصدر نفسه ، ج ١١ ، ص ١٩١

الشريف " لا زال يبدأ بالمعروف ويعيده ، ويوفر نصيب الأولياء ويزيده ، أن يفوض إلى المجلس العالي المشار إليه ، قضاء القضاة بمذهب عالم المدينة ، وإمام دار الهجرة ، مالك بن أنس الأصبحي رضي الله عنه، على جاري عادته المتقدمة بذلك" (١) وثمة ما يجلب انتباه الباحث ؛ حيث يلاحظ أن التفويض يحوي أكثر من أمر تعيين للمفوض له ، بالإضافة للقضاة يناط به التدريس بقبة الصالح ، وتلحق بها مسؤولية أمر تعيين المدرسين ، والمعيدين فيها .

وبعد أوامر التعيين ، هذه ينتقل الكاتب إلى قسم آخر من التفويض ، وهو الوصايا وأولها: أن يعود إلى وظيفته بهمة عالية ، وأن يقابل إحسان السلطان إليه بالشكر ، ثم يجدد الوصية ، ويؤكد على تقوى الله ، ولما كان أمر القضاة ملتزم العلاقة بالدين ، فكان متوقعاً هذا التركيز على الوصية ، فهي ملاك الأمور، وهي العصمة ، إليها الملتجأ وهي الواقية من قوارع الله ، وينثني بعد ذلك ، بما يخص طبيعة الوظيفة ، وما اختص به المذهب المالكي ، عن غيره من مذاهب الأربعة ويركز الكاتب على أنه مع قلة هذه المسائل ، إلا أنها جليلة القدر والأثر ، وتظهر لنا ثقافة الكاتب جَليّة في تعداده لمعظم هذه الوظائف ، ويؤكد على ضرورة التثبت والتيقن قبل إصدار حكمه ، وتعرض لقضية الخط والكتابة ، ومدى اعتمادها كشهادة ودليل ، ثم يرجع ذلك كله لما

---

(١) المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ١٩٢

يعتقده القاضي ، ولعل هذا تلويح لمدى ثقة السلطان بالمعيّن ، على أنه يوصيه ، بأن لا تأخذه لومة لائم إن ثبت له حق .

ثم يشير إلى الوصايا التي تتعلق بأمر القضاة ، ويعتبر المعين من أهلها ، وأنه لا يستحسن تقديمها له لأنه بها خبير .

ويلي هذه الوصايا بالدعاء للمعين ، بدعوتين ليلطف الله به ويحميه بعنايته ، ويختم بعبارة "والاعتماد ما رسم به فيه ،بعد الخط الشريف أعلاه"[١] وحري بالباحث الإشارة إلى هذه الرتبة ، مما يكتب لها بالتقاليد حتى أن القاضي جمال الدين البساطي نفسه قد كتب له تقليد بها سنة أربع وثمانمائة وأورده القلقشندي[٢]،مما يدل على أن التفاويض في هذا العصر ، قد ضاهت التقاليد ، وهي من أعلى المكاتبات الديوانية رتبة ، كما أن الباحث ومن خلال استعراض تفويض القلقشندي هذا ، لاحظ أنه أخذ أقساماً عامة : من خطبة ، ثم مدح المولّى ، ثم الانتقال لمكانة ، حتى إصدار التعيين ، ومنه إلى الوصايا ، فالدعاء ، فلا نرى فرقاً واضحاً ينقص من درجته عن التقليد ، إلا بالاسم واستخدام بعض العبارات ؛ مثل (أما بعد) في التقليد (وبعد) في التفويض .

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ١٩٣
(٢) المصدر نفسه ، ج ١١ ، ص ١٨١

المربعات الجيشية :-

وهي اسم يطلق على المكاتبات التي تكتب بالإقطاعات ، وتصدر من ديوان الجيش إلى ديوان الإنشاء ، لتخرج المناشير على نظيرها [١] ويلتزم تاريخ المربعة التي كتب على حكمها ، لما يترتب على ذلك من المحاسبات [٢] ولما كانت المربعات تختص بالإقطاعات دون غيرها وتصدر عن ديوان الجيش ، فإن مظنة الاقطاعات هو ديوان الجيش ، لا ديوان الإنشاء ، وما يكتب فيه من ديوان الإنشاء ، هو فرع مما يكتب من ديوان الجيش [٣] فإذا عين ناظر الجيش المثال ، أو القصة أو الإشهاد على أحد من كتاب ديوان الجيش ، فإن هذا الكاتب يحتفظ بذلك عنده ، ثم يجهز لذلك مربعة من ديوان الجيش ، وترسل لديوان الإنشاء ، حيث يعينها كاتب السر على من يكتب بها منشوراً [٤] .

ويكتب بها بعد البسملة الشريفة :" رسم بالأمر العالي ، المولوي ، السلطاني ، الملكي ، الفلاني ، أعلاه الله تعالى وشرفه وأنفذه وصرفه" ، أو "أعلاه الله تعالى وأسماه وشرفه وأمضاه ، أن يقطع باسم فلان الفلاني _ أحد الأمراء المقدمين أو الطبلخانات ، أو العشرات الخمسات _ بالمكان الفلاني " ، أو أحد المماليك السلطانية ، أو مقدمي الحلقة أو أخبار الحلقة ، بالمكان الفلاني

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٢٠١
(٢) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١١٨
(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ١٥٣
(٤) المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ١٥٤

المرسوم استقراره في أمراء العشرات ، أو الطبلخانات أو المقدمين ، أو نحو ذلك _ ما رسم له به الآن من إقطاع " (١) .

وإذا ما كان من كتب له أميراً أضيف لما سبق " لخاصة ومن يستخدمه من الأجناد الجياد للخدمة الشريفة ، والبرك التام ، والعدة الكاملة ، بمقتضى المثال الشريف أو الخط العالي الكافل ، أو بمقتضى الأشهاد المشمول بالخط الشريف ، أو الخط الكافلي أو بمقتضى المربعة المكتتبة من المملكة الفلانية ، المشمولة بالخط الشريف ، إذا كان أصله مربعة من بعض الممالك ، ثم يقال :" حسب الأمر الشريف " ويكمل التاريخ ، والحمد لله والصلاة على النبي _عليه الصلاة والسلام _(٢) . وبعد أن يبعث بها إلى ديوان الإنشاء ، ويعين لها أحد كتابه فإنه يكتب المنشور ، ويحتفظ بالمربعة كمرجع عنده .

ومن خلال دراسة المربعات ، حاول الباحث أن يتوصل إلى أهم الصفات التي يتصف بها هذا النوع من المكتبات الديوانية ؛ فهي تتسم بالإيجاز ، والاختصار مع سهولة الفهم وتأدية الغرض ، إذ تخلو من الخطب والأدعية ، وكذلك من الوصايا ، ويظهر كذلك اختصار في الألقاب والنعوت ، كما أنها تسير في سمت واحد ، بعيداً عن التنوع في الأسلوب ، مما يحرم الكاتب التنوع في طريقة إيراد المعلومة ، ولعل ذلك عائد لكونها وسيلة لإيصال معلومة من ديوان الجيش لديوان الإنشاء ، فهي لا تظهر خارج المعاملات

---

(١) المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٠٢

(٢) المصدر السابق نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٠١ _ ٢٠١

الديوانية ، وإنما يبنى عليها المناشير ، والتي تتسم بأفق أوسع لدى الكـــــاتب ، ومما تتسم به المربعات احتفاظها بالمستندات ، وذلك ليبين فيها سبب ما كتـــب به [١] .

---

(١) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١١٩

الإجابة على الكتب السلطانية :

إن الحديث عن الأجوبة يذكّر بأن هنالك رسائل ابتدائية ، جاءت هـــذه الكتب كإجابة عليها ، وهذا يولد سؤالاً حول أيهما أعلى رتبـــة ، وأبلـــغ فـــي صناعة الكتابة ؟ وقّد اختلف الباحثون في ذلك : فذهب أكثرهم إلى أن الكتـــب الجوابية أتعب مطلباً ، وأصعب مرتقى من الكتب الابتدائيـــة ، وفيـــها تظـــهر مقدرة الكاتب ومهارته وحذقه ، لا سيما في بعض مواضيعـــــها ، كـــالاعتذار والاعتلال عن امتثال الأوامر والنواهي ، والتوريـــة عـــن واقـــع الأحـــول ، والإعراض عن ظواهرها ، مما يدفع إلى استعمال المغالطة ، لإخلاء الطـــرف من الإلتزام مما يؤدي للخلاص من المكاره . وقد احتجوا فـــي ترجيـــح ذلـــك بوجوه منها : أن المبتدئ هو صاحب الشأن في كتابة ؛ المحكم فيـــــها يبتـــدئ بألفاظه كيف شاء ، ويتصرف فيها تقديماً وتأخيراً ، ويحذف ويثبت ، ويوجـــز ويسهب ، ويأخذ لنفسه أساساً ويؤسس عليه ، وليس للمجيب شيء من ذلـــك ، فهو تابع لغرض المبتدئ وعلى أساسه بانٍ .

كما أن الجواب محتمل للإشباع والتوسع _ مضطر لتتبع ألفاظ المبتـــدئ ؛ للإجابة عنها ، مما يدفع المجيب لتصفح كلام المبتدئ وكلامه ليصل بينهما ، لأن الكلامين يتقابلان ، فلا تخفى مرتبتهما وهذا مرفـــوع عـــن المبتـــدئ (١) وكذلك انتظام الكلام واتسامه والتئامه ، فهو للمبتدئ دون المجيب لما عليه مـــن

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٣٢٣

تفصيل في الجواب ، لأجزاء الكلام فيبدر نظامه ، ويقسمه لحاجته إلى استئناف القول من فصل إلى فصل ، بقول : أما كذا وأما كذا وظهور الكلام متصلاً ، أحسن منه منفصلاً (١) .

أما علي بن خلف صاحب "مواد البيان" : فيرى أن الابتداء والجواب على حد سواء ، من الصعوبة واليسر ، وإن الكاتب قد يجيد في أحدهما ولا يجيد في الآخر وذلك أن الكاتب ممتاح من جودة الغريزة ، محتاج للبلاغة في صناعة كل منها ، لأنه مرة يكون مبتدئاً وأخرى مجيباً ، وليس منهما ما هو مستقل بذاته ، ويرى أنه لا مانع من أن يجيد الكاتب في أحدهما دون الآخر ، كما أن الكاتب لا يكون في الأمر العام كاتب عن ذاته ، وإنما هو منقاد لآمر يأمره بالكتابة في أغراضه ، ليسلمها له في منثورة ، فعلى الكاتب المبتدئ من المشقة في إيراد أغراض المكتوب عنه ، ونظمها في صورة جامعة سالكة في سلك البلاغة ، مثل ما على المجيب من مشقة في توفية فصول كتاب المبتدئ حقها من الإجابة ، والتصرف في أوضاعها ، بل إنه يرى أن كلفة المجيب قريبة لقرب مرجعيته ، لأنه يستنبط من معاني المبتدئ ، والإجابة لا تخرج في معانيها على الابتداء ، فإن كانت بالموافقة فالأمر سهل ، وإن كانت بالنقض ، فما عليه إلا البناء على نقيض ما أتى به المبتدئ ، والتجزئة في الإجابة أدعى للسهولة واليسر (٢) .

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٣٢٤
(٢) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٣٢٤

وأرى أن ما ذهب إليه علي بن خلف أقرب للاعتقاد ،لما أورده أن الكاتب في الأمور العامة (الرسمية) لا ينطلق عن هوى ، أو خاطر يخطر له وإنما هو محدد في أمور ، يقيده فيها صاحب الشأن بالكتابة ، فهو بذلك يضارع المجيب ، إذ كليهما مقيد في أمر الآمر الأول ، وأفق إبداعها يكاد يتحدد في سمت واحد ، وهو مدى قدرتهما على إسباغ تلك المعاني المتقاربة في الابتداء والإجابة ، بما لديهما من ألوان البلاغة وفنون صنعة الكتابة ، وهو ما يميز أحدهما على الآخر .

على أن للجواب حالتين : الأولى يكون الجواب فيها من الرئيس إلى المرؤوس ، عما كتب به المرؤوس إليه ، فيبين الرئيس جوابه مختصراً ومعانيه موجزة ، أما الحالة الثانية : أن يكون الجواب من المرؤوس إلى الرئيس عما كتب به الرئيس إليه ، وفي هذه الحالة يكون التفصيل ، حيث يتوجب على المرؤوس الوقوف أمام كل كلمة في كتاب رئيسه ، لما للرئيس من جلالة القدر ورفعة المكانة ، وليس للمرؤوس أن يخرج عليه ، إلا إذا كان موضوعه الشكر والتقريض من مرؤوسه له ، فإنه يجب التوسع في الثناء على رئيسه ، وأن ما حل به من نعمة ما هي إلا من بعض مكارم رئيسه ، ويكثر من شكر رئيسه والدعاء له (١) .

---

(١) المصدر السابق ، ج ٦ . ص ٣٢٥ _ ٣٢٦

وقد كتب القلقشندي في هذا النوع من الأجوبة ، أي في الكتابة من المرؤوس إلى الرئيس إجابة ، من ذلك كتاب إلى أمير المؤمنين المستعين بالله أبي الفضل العباس عن نائب الغيبة بالديار المصرية ، حين وردت كتب أمير المؤمنين إليه من الشام ، بالقبض على الناصر فرج بن الظاهر برقوق بالشام ؛ لاستبداده بالأمر دون سلطان معه ، وكان ذلك في حوالي سنة خمس عشرة وثمانمائة للهجرة الشريفة (١) .

ويختار أبو العباس القلقشندي لكتابه هذا حسن الافتتاح ، تقبيل الأرض وفي هذا تعظيم لمكانة الخليفة المكتوب له ، إذ أن حسن الكتاب من حسن افتتاحه ؛ إذ هو أول ما يقابل المرسل إليه ، هو أدعى لاستجلاب القلوب ، وتشنيف المسامع وإلى ذلك يشير القلقشندي بقوله : "وأما الافتتاح بما فيه تعظيم المكتوب إليه : من تقبيل الأرض ، أو اليد أو الدعاء له أو غير ذلك ، فإن أمر المكاتبات مبني على التملق ، واستجلاب الخواطر وتألف القلوب ، على ما يقتضيه اصطلاح كل زمن في الإبتداءات" (٢) .

والكتابة للأبواب الشريفة كما يرى صاحب " التعريف " يتساوى فيها الملوك والسوقة ، ولا تختلف الابتداءات في كتاباتهم (٣) . وهكذا بدأ القلقشندي كتابه بالتقبيل ، واتبع الثناء على كتاب أمير المؤمنين ، ففي مدح

---

(١) المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٣٧٩
(٢) المصدر السابق نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٧٥
(٣) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٦

الكتاب مدح وثناء على أمير المؤمنين نفسه ، ثم يعرض محتوى الفكرة التي تضمنها الكتاب تلميحاً لا تصريحاً ، بإظهار ما يترتب على هذا الكتاب من عظيم نتائج ، وكبير نعم ، تكون وارفة ظلالها على الرعية ، وفيه يشير إلى مرجعية الخلافة لأمير المؤمنين ، إذ هي متمكنة بإبائه ، وهو فرع ثابت فيها عن أصل ، وهو لها معز وحامل ، وفيه ابتسم ثغر الخلافة .

وبعد هذه الصبغة الدينية التي صبغ بها هذا الكتاب ، وأشعر المتلقي أن الخلافة وصلت للخليفة ، بطريق الحق المشروع ، وأنه تكفل بها لينتشر الإسلام ، وتعيش الرعية بالأمن والأمان " وتأنس منها جانب الدين بعد الإستيحاش بإيناسه "[1]، يصور موقف نائب الغيبة بالديار المصرية ، من كتاب أمير المؤمنين ، فنعت نفسه بالمملوك الذي يقبّل الأرض ؛ خضوعا لأمير المؤمنين ، ويجيب أوامره متضرعا ، ويلبي داعيه بالسمع ، الذي يقرنه بالطاعة ، حتى أنه يسجد سجود الشكر لورود الكتاب إليه . ولما كان لسجود الشكر من دلالة على عظم النعمة ، التي حلت بالمنعم عليه ، حتى اقتضت هذا النوع من الشكر وإظهار الامتنان ، فقد وظف القلقشندي ذلك ، لإظهار مدى اهتمام نائب الغيبة ، وحفاوته بكتاب أمير المؤمنين ، ومدى حرصه على الانصياع لتعاليمه ومقتضياته ، فاختار لنفسه النسب إلى ولاء الإمام الخليفة ، انتسابا بالاسم والمعنى ، ولم يكتف بذاته ، بل نشر ذلك بين الأمراء والأجناد ،

---

(1) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٨ ، ص ٣٨٠

فعمت البشرى بينهم . ويبلغ الاهتمام به ذروته عندما يقـــرأ علـــى المنـــابر ، فتسكن الرعية وتقر عينها ، لما يعمها من السعادة ، فيأخذ الناس فـــي ترجيـــع قراءته ، وتكـــرار وترديد ألفاظه ، لما لها من أثر يبعث علـــى الراحـــة فـــي النفوس [١] .

هكذا يصور القلقشندي الحالة ، التي غدت عليها الرعية ، أثر وصـــول كتاب أمير المؤمنين ، وبذا فإن المتلقي يتوقع أن يستكمل الكاتب جوابه ، بمـــا أقدم عليه الناس من الدعاء للخليفة ، وذلك ما فعله القلقشندي ، إلا أنه زاد عليه بأن جعل هذه الدولة ، منسوبة للنبي _ عليه الصلاة والســـلام ، وأن الخليفـــة المستعين بالله أبا الفضل العباس ، ما هو إلا معجزة قدر الله تحقيقها في هـــذا العصر ، بعد ثمانية قرون من مقولته عليه الصلاة والسلام لعمه العباس [٢] .

ويلحظ الباحث على هذا الجواب خلوه من التحميدات ، وكذلك البعديـــة ، كما يخلو من التقسيمات الواضحة ، وعدم إشارته الصريحة لموضوعه ، فليس من السهل فهم مضمونه دون المقدمة ، التي قدم بها القلقشندي لهذا الكتـــاب ، على أنه أحسن في اختتامه بحديث شريف ، يدعم ما ذهب إليـــه فـــي صـــدر الكتاب .

---

(١) المصدر السابق ، ج٨ ، ص٣٨٠

(٢) المصدر السابق نفسه ، ج ٨ ، ص ٣٨٠

الرسائل الاخوانية :

وهي ضرب من ضروب الكتابة ، يعبر فيه الكاتب عما يكن في صدره ، اتجاه صديق له – سواء كان أقل منه رتبة ، أو أعلى منه أو نظير له – من عواطف وأحاسيس ومشاعر ، تظهر في المناسبات المختلفة التي يعيشها الانسان ، ولكل مناسبة نوعها الخاص من هذه الرسائل .

وقد تنوعت هذه الرسائل عند القلقشندي ، حتى بلغت سبعة عشر نوعا : بين تهنئة وتعزية ، وشفاعة وتشوق واستزارة ، وشكوى وعتاب ، إلى آخر ذلك من أنواعها ويرى أن لهذه الرسائل وقعاً خطيراً ؛ حيث يحتاجها الكافة [١] فهي مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية ، التي يعيشها الانسان ، ورابط من روابط التواصل في المجتمع وهي :" ألصق بالخواطر وأعلق بالوجدان ، وذات صدق وعاطفة ومجال الاحسان فيها عريض " [٢]

والكاتب فيها مطلق العنان لا يتقيد بمصطلح ، أو رسم فيظهر ما لديه من قوة أو ضعف [٣] " ، فإذا كان الكاتب ماهرا أغرب في معانيها ، ولطف مبانيها ، وتسهل له فيها ما لا يكاد أن يتسهل في الكتب التي لها أمثلة ورسوم ، لا تتغير ولا تتجاوز "[٤]، ولكن الانسان بطبعه ميال للحفاظ على ما أوجده الله فيه ، من تمايز في الطبقات والرتب ، هياب من تجاوز الحدود الاجتماعية

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٩
(٢) محمد كامل الفقي : الأدب في العصر المملوكي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٦ ، ص ١١٢
(٣) الحلبي : حسن التوسل ، ٣٨٢
(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٩

المرسومة ، ولهذا نبه الحلبي في توسله بقوله :"لكن على كل حال ، يراعي كل مقام بحسبه " (١) .

ولعله من هذا المنطلق ، جاءت الرسائل الاخوانية على اختلاف أنواعها ، على ضربين الأول : الرسائل الاخوانية شبه الرسمية ، وهي تلك الرسائل التي تحتفظ بالبعد الاجتماعي ، بين الكاتب والمخاطب ، أي أنها : تلك الرسائل التي يتبادلها الخليفة ، أو الأمير أو الوزير مع من دونه في المنزلة الاجتماعية ، في الأمور الخاصة أو العكس . والضرب الثاني الرسائل الاخوانية الذاتية ، وهي : التي تتناول ما يدور بين الأصدقاء ، من عتاب وشوق وعزاء ، وما إلى ذلك من العواطف (٢) التي تقوي دواعي الحب والمودة ، وتصفي نفس الصديق من الريبة ، وتزيل ما قد يحدث من جفاء .

إلا أن تأثر الرسائل الاخوانية واضح بمصطلحات الرسائل الديوانية ، وباسلوبها وخصائصها ، وربما كان السر في ذلك ؛ عائد لكون كتاب الرسائل الاخوانية في أغلب الأحيان ؛ هم كتاب الدواوين ، ومن هنا جاءت الابتداءات في هذه الرسائل ، بالخطب ذات التحميدات ، والصلوات على الرسول الكريم _ صلى الله عليه وسلم _ ، واستفتحت باستهلالات بارعة ، جاءت مناسبة في لفظها ومعناها موضوع الرسالة ، أو لاءمت قدر المرسل إليه ، ثم يتبع ذلك

---

(١) الحلبي : حسن التوسل ، ص ٣٨٢
(٢) فايز عبد النبي القيسي : أدب الرسائل في الأندلس ، دار البشير للتوزيع والنشر ، ط ١ ، ١٩٨٩ ، ص ١٠٠

بعرض الموضوع ، والختام مع شئ من الأدعية المناسبة ، واستخدام الألقاب المتكررة ، وتوظيف الأبيات الشعرية التي تخدم المعنى [1].

ويجدر التنبيه ، إلى أن هذا التأثر بالرسائل الديوانية ، لم يكن لينقص من الرسائل الاخوانية قيمتها المضمونية؛فهي تعطي الدارس صورة جلية عن الحياة الاجتماعية ، التي عاشها العصر المملوكي بمختلف طبقاته ، وتصور تلك الوشائج والروابط الممتدة بين الكتاب ، بعضهم ببعض من جهة ، والكتاب ورؤسائهم ومرؤوسيهم من جهة أخرى .

ولما اتصف هذا النوع من الرسائل بالتنوع ؛ لتعدد موضوعاتها ، فقد ارتأى الباحث دراسة كل نوع منها على انفراد .

---

[1] محمد الفقي : الأدب في العصر المملوكي ، ص ١١٢- ١١٣

المدح:

يشير محمد الدروبي إلى أن هذا الغرض يعد من أغراض الشعر في الأصل ، وهو يفيد الثناء الحسن ، واظهار المناقب والفضائل ، ويعدل عن ذكر المثالب والنقائص ، فهو على النقيض من الهجاء ، وقد آثر الأدباء الصيغ الشعرية على النثرية ، في مدائحهم المختلفة ، ولا يعني القول أن المدح فن شعري ، نَقِيُهُ عن النثر ، ولكن هذا الفن الأدبي ظل ألصَقُ بالشعر ، منه بالنثر ، ولا شك أن دخول المدائح إلى النثر العربي ، يمثل بطريقة ما تطورا بدأت بشائره منذ القرن الثاني الهجري ، ولم تكن المدائح النثرية قبل ذلك سوى حلقة ضيقة ، لا تعطي الدارس فرصة تشكيل دراسة حول ملامح هذا الفن ، الذي لم يعد خاصا بالشعر في التعبير عن معانيه دون النثر .[١]

وقد كتب القلقشندي عدداً من الرسائل المدحية ، نتعرض في الدراسة لواحدة منها ، تلك الرسالة التي أنشأها في تقريض المقر الكريم الفتحي ، أبي المعالي فتح الله ، صاحب دواوين الانشاء الشريف بالديار المصرية ، والممالك الاسلامية ، في سنة أربع عشرة وثمانمائة .[٢]

والقارئ لهذه الرسالة يستشعر أنها من الرسائل الديوانية ، لما انتهجت من اسلوب يقارب الاسلوب الرسمي في الكتابة ، ولذلك نسبناها لصنف

---

[١] محمد الدروبي : الرسائل الفنية في العصر العباسي ، ص ٣٩٢

[٢] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١٩١ - ١٩٧

الرسائل شبه الرسمية ؛ فهي موجهة من مرؤوس إلى رئيس ، ويظهر ذلك جليا من الافتتاحية التي اتخذها الكاتب في رسالته : فجاء بالتحميد ، الذي يشير إلى نعمة حلت بالكاتب فاستحقت ذلك الحمد ، ويوضح لقب الممدوح " فتح الله " في التورية ، على عادته في بدايات الخطب في رسائله الديوانية ، ويرجِّع الحمد مرة أخرى ، فالتشهد ، والصلاة على النبي _ عليه الصلاة والسلام _ ، وخلال ذلك ، لا تخلو الخطبة من وصف الممدوح ، بما يناسب الوظيفة التي يشغلها من سعة صدر ، والقدرة على تدبير الأمور ، والمهارة في الكتابة ، وامتلاك نواصي فنونها . على أن الصبغة الدينية تبقى هي المسيطرة على الخطبة في الرسالة.

وينتقل للبَعدية ، ليتحدث عن الرياسة في الدولة ، وعلو مكانتها ويجعل علو المكانة ، مرتبطاً بمدى القرب من الملك ، واعتماد الملك عليه بالمهام والأخذ برأيه ، جاعلا من ذلك ، تمهيدا للحديث عن صاحب الديوان – وهو الممدوح – حيث أن صاحب ديوان الانشاء يتمتع برتبة ، ومنزلة علِيّة عند الملك ، ويتفرد بالصدارة لديه ، كما أنه كليم الملك ، وركن المملكة وعمادها ، وهكذا تترادف العبارات المدحية ، مظهرة مكانة الممدوح عند الملك ، ودوره في حمل أعباء المملكة .[1]

---

[1] المصدر السابق ، ج ١٤ ، ص ١٩٢-١٩٣

ويلتفت لدور آخر لصاحب ديوان الإنشاء ، وهو من الأهمية ، بحيث يبدأ الحديث عنه بالتنبيه له باسم الاشارة " هذا " ، فصاحب الديوان ، يشكل حلقة الوصل ، بين الملك والرعية ، وهذا الدور أو الواجب ، يحتم عليه أن يمتلك مع رفعة المكانة ما يوازيها من التواضع ، ومع قوة الحزم ما يعادله من اللين ، ومع قربه من الملك ، أن يكون قريبا من الرعية ، حتى مع المسكين والأرملة [1] ويمضي الكاتب في تصوير الممدوح في الصفات المثالية ، التي تجعله يجمع النقيضين اللذين قضى العقل أن الجمع بينهما محال [2] ، فهو كالجمع بين الأرض والسماء ، والنار والماء ، ويجعله نادراً وأمراً خرافياً غرائبياً " كبيض الأنوق ". حتى اذا ماوجد من جمع هذه الصفات ؛ كان المتفرد في عصره ، الظاهر على من سبقه في هذا الميدان ، ويرى الباحث أن هذا هو الأسلوب الذي اتبعه أبو العباس القلقشندي في رسائله الرسمية ، حيث يعمل على تشويق المتلقي ، وحفزه على متابعة الرسالة ، حتى إذا ما بلغت ذروتها ، بدأ بتقديم ألقاب الممدوح ، والتي عهدنا من كتاب العصر السخاء بها ، يتلو ذلك باظهار ما كان من أمره في الديوان ، حتى أصبح مثلاً وقدوة ؛ لو عاصره من سبقه من عظماء الكتاب ، لاتخذوه أستاذاً لهم ولأحجموا عن ملاقاته ، ويأتي في سبيل ذلك بأسماء عدد كبير ممن اشتهروا بالعلم والكتابة والانشاء ، مثل : خالد بن برمك والحسن بن سهل ، والفضل بن

---

(1) المصدر السابق ، ج ١٤ ، ص ١٩٣

(2) المصدر السابق نفسه ، ج١٤ ، ص١٩٣

هلال ، والجاحظ وعبد الحميد الكاتب ، ومن القدماء قس بن ساعدة ، وسحبان بن وائل ، وعمرو بن الأهتم [١] ، ويصور الكاتب كثرة ما كتبت الأقلام بمدحه ، وكم قال الخطباء في صفاته وأفضاله ، فجعل الناس في توحد واتفاق على حبه ، حتى إستغرقت الأمكنة والأزمنة في مدحه

وفي القسم الأخير من الرسالة ، يحاول الكاتب اظهار مدى إعجابه بالممدوح ، فيرى أنه قد ألم به العجز عن ايفاء الممدوح حقه من المدح ، وأنه قصّر في شكره ، وهو يعترف بذلك . ويختتم الكاتب رسالته ببيت من الشعر ، يظهر فيه حجم النعمة التي أصبغها عليه الممدوح ، فيصبح عاجزاً عن الشكر ، ولو جعلت كل شعره في جسده لساناً يتغنى بالممدوح .

ولعل هذه الرسالة ومثيلاتها لم تكن من باب التزلف والنفاق ، ولاسيما أن المادح والممدوح كانا يعيشان في ظرف واحد ، ومحيط واحد ، فلربما كانت امتحاناً للخاطر وإدامة المودة ، وإظهار القدرة على الكتابة ومعاناة فنونها .

وقريب من هذا مقولة الأنباري : " إذا كان القلقشندي لم يستطع طوال فترة عمله ، أن يكون على رأس ديوان الانشاء ،فإن ذلك لايعني أنه لم يكن يمتلك المؤهلات الأدبية والعلمية لذلك ، بل ربما كان يربأ بنفسه أن يسلك إليه سبل التزلف والرشوة ، كما كان سائداً في ذلك العصر " [٢] .

---

(١) المصدر السابق نفسه ص١٩٣ -١٩٧
(٢) الأنباري تحقيق صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١١

خطب الصدقات

الصدقات : جمع صدقة ، بفتح الصاد وضم الدال بمعنى الصّداق [١]

وفي التنزيل الحكيم :﴿ وآتو النساء صدقاتهن نحلة﴾ [٢] ، وقد جرت العادة في العصر المملوكي ، أنه إذا تزوج السلطان ، أو من يخصه من أقاربه أو أمير من كبار الأمراء ، أن يكتب له خطبة صداق ، تمتاز بالطول أو القصر حسب صاحب العقد، تطول للملوك ، وتقصر لمن دونهم ، بقدر درجة القرابة من الملك [٣] ويحتوي كتاب صبح الأعشى عدداً من كتب الصدقات ، منها خطبة صداق أنشأها القلقشندي ، لزين الدين صدقة السيفي ازدمر ، على بنت أمير المؤمنين المتوكل على الله أنشأها في خلافة أخيها المستعين بالله العباسي .

يختار لها استهلالاً بالتحميد ؛ على طيب العنصر الهاشمي ، متوصلاً لمكانة العباسيين بين العرب ، ويخص بيت الخلافة لما له من عزة جانب ، جاعلاً ذلك تمهيداً للحديث عن الخطوبة ، لما لها من علاقة قربى للخليفة ، فيقوم الحديث عنها أولاً قبل الخاطب ، ولما أدرك الكاتب أنه لابد من مقارنة ، ستعقد في ذهن المتلقي بين الزوجين ، وما امتاز به كل منهما من صفات ، جعلت صاحبه يقبل عليه ، فصور الزوجة ذات علم ودين ، إضافة للحسب الممتد في العباسيين ، ويرى القلقشندي ، أن صفتي : التعلم والدين لا

---

(١) إبراهيم مصطفى وآخرون : المعجم الوسيط مادة صدق
(٢) القرآن الكريم :سورة النساء آيه ٤
(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٠٠ وانظر عبد اللطيف حمزة : القلقشندي في كتاب صبح الأعشى ص٢٨٥

يضاهيهما حرفة ، ولا نسب ، وهكذا يصنع من الزوجة المرأة المثال ، ويبتعد عن تصوير كل ما يتصوره المتلقي من جمالياتها الحسية ، ويستمر في خطبته بالشهادة والصلاة على النبي ، وقدم منه _ عليه السلام _ مثالاً في تزويج بناته ، ليتخذ من ذلك دليلاً على أن الكفاءة بين الزوجين في النسب ليست شرطاً في الزواج ، وإلا لما وجد الرسول لبناته من هو كفء لهن .

وينتقل من الخطبة للبعدية ، متابعا حديثه عن الزواج وماله من مزايا ، جعلت الشريعة تحث عليه ، حتى أن الله _عز وجل _ " أُلحقه بالعبادة في بعض حالاته ، طلبا لتحصيل الكافل بسلوك نهج الاستقامة ، ورغبة في تكثير النسل الواقع به مكاثرة الأمم يوم القيامة " [١] .

ويعكف ثانياً ، للحديث حول كرائم بيت الخلافة ، ونلحظ استخدامه الإشارة " هذا " للتنبيه ، حيث ينساب الكاتب في مدائحه لبيت الخلافة ، ليقدم للقارىء الدوافع ، التي دفعت الخليفة إلى الموافقة على هذا الزواج ، إذ هو يرغب عن النسب والحسب ، لما لديه منه فخص أهل الدين فأقبل بكليته عليهم ، محلاً لهم من شريف مقامه العلي محل الاصطفاء ، ومقدما لهم في المصاهرة على أبناء الملوك والخلفاء [٢] .

ويصل القسم الأخير من خطبة الصداق ، ويكون بعبارة : "هذا ما أصدق العبد الفقير لله " ويأتي على ألقاب الزوج كاملة ، ثم يقول : " صدقة

---

(١) المصدر السابق ، ج١٤ ص ٣٢٠
(٢) المصدر السابق نفسه : ج ١٤ ، ص ٣٢٠

الجهة الشريفة العالية ، ويأتي على ألقاب الزوجة ، مثل : الكبرى المعظمـــة ، المحجبة المصون ، سليلة الخلافة ، ثم يتلو نسبها ابنة سيدنا ومولانا حتى الجـد الرابع ، ولعل في ذلك إظهار لشرف سلالتها ونسبها في بيت الخلافـــة . ثـم يقول : " صدقاً جملته كذا وكذا " . فيذكر ولي أمرها ، بقوله : " زوجها منـــه بذلك فلان وقبله فلان " ، ويختم بعد الدعاء بالمشيئة .

لاحظ الباحث أن الصبغة الدينية ، هي مسيطرة علـــى الخطبـــة ، فقـد صور الكاتب أن دوافع الزواج دينيه كما هي شروطه في الزوج والزوجـــة ، ولعله وجد في ذلك مبرراً ، لزواج ابنة الخليفة من غير أبناء سلالة الخلافـــة العباسية ، أو أبناء عمومتها .

وتظهر سمات الكتابة الرسمية الديوانية ، جلية في الخطبة ســـواء مـن حيث التقسيم أو من حيث المفردات ، واستخدام الألقاب في وصف كـــل مـن ورد ذكره في الخطبة .

الأدعية

الأدعية ، جمع دعاء ، وهو: ما يدعى به الله من القول ، أي رجا منه خير ودعا لفلان طلب له الخير ، ودعا على فلان أي طلب له الشر[١] .

ويرى القلقشندي أن الدعاء مراتب ، يجب على الكاتب معرفتها ، ليوقعها حيث يجب أن تقع دون سواها : فمن ذلك الدعاء بإطالة البقاء ، والدعاء بإطالة العمر ، فيرى أن الدعاء بإطالة البقاء ، أرفع من الدعاء بإطالة العمر ؛ وذلك أن البقاء ضد الفناء ، وبذلك يكون البقاء دالاً على مده لا تنقضي ، في حين أن العمر يدل على مدة تنقضي .

ويلاحظ الباحث أن الكاتب يميل للتدليل بعد التعليل ، فيذكر أن الله يوصف بالبقاء ولا يوصف بالعمر ، ومن هنا جعل الكاتب الدعاء بإطالة البقاء أول مراتب الدعاء ، ويرى أنه يختص بالخلفاء ، ويليه في المرتبة الدعاء بطول العمر ، وبعدها الدعاء بالمد في العمر ، ويعلل ذلك بأن الوصف بطول الزمان أبلغ من المد فيه ، لأن المد يدل على مدة زمنية قد تطول وقد تقصر ، وبذا فمرتبة الطول أقرب لمرتبة البقاء من مرتبة المد .

ومنه أيضاً الدعاء بدوام النعمة ، والدعاء بمضاعفتها ، ويرى أن الدعاء بالمضاعفة أعلى من الدعاء بالدوام ، لأن المضاعفة تعني الزيادة ، في حين أن الدوام يعني بقاء الحال على ما هو عليه .

---

[١] إبراهيم مصطفى وآخرون : المعجم الوسيط ، مادة دعو

وثمة مقارنة يعقدها الكاتب بين ثلاثة أدعية متقاربة في المعنى ، يبين فيها الاختلاف بينها من حيث المرتبة ، فيذكر أن الكتاب يقدمون الدعاء بعز الأنصار على الدعاء بعز النصر ، والدعاء بعز النصرة ، وتعليل ذلك ؛ أن من عز أنصاره لابد أن يعز هو ، كما أن في ذلك تعظيم القدر ورفعة الشأن ، لأن الأنصار لا تكون إلا للملك العظيم والأمير الكبير ، ويليه العز بالنصر ، فهو أعلى من الدعاء بعز النصرة ، وهنا يلجأ لجانب العز في تعليله ، فالعز مذكر والعزة مؤنث ، والتذكير أعلى مرتبة من المؤنث .

وينبه القلقشندي على الكاتب مراعاة هذه الرتب وتدريجها ، فيرى أنه يجب على الكاتب تنزيل كل دعاء بما يناسبه فيمن يكتب له ، فلا يزيد أحداً فوق حقه ، ولا ينقصه حقه ، فالملوك تسمح بدرات الأموال ، ولا تسمح بالدعوة الواحدة [1]

وقد أورد القلقشندي الكثير من الأدعية منها ما يناسب رتبة المكتوب إليه في وظيفته ، ومنها ما يراعي لقب أو اسم المكتوب إليه ، ومنها ما يؤخذ باسم البلاد التي يعمل عليها .

ومن الأدعية التي تناسب الرتبة أدعية تصلح للنائب الكافل ، يقول في أولها : " لازالت كفالته تبسط المعدلة ، وعزائمه على الإنصاف والإسعاف المشتملة ، وتقدماته تبلغ كل ذي قصد أمله" ومنها :"ولازالت الممالك كلها في

---

(1) القلقشندي : صبح الأعشى ج٦ ص ٢٨٤-٢٨٥

كفالته ، والمسالك على اختلاف طرقها آيلة إلى إيالته ، الملائك محومة على بنوده محتفة بهالته ،والأرائك لا تثنى إلا على دست فخاره ولا تعد إلا لجلالته"[1] .

وهنالك أدعية لنائب الشام ، نذكر منها قوله :" ولازالت النفوس بيمن كفالته فائقة ، والخواطر في محبته متوافقة ، والألسن بشكر محاسنه ناطقة وقلوب الأعداء من بأسه ومهابته خافقة " وكذلك قوله :" ولازالت عزائمه مرتفعة الحد ، وكفالته كفيله بنجاح القصد ، ومغانمه في سبيل الله تعرب عن الاجتهاد في قهر الأعداء والجد " ومنها ما يوظف الكاتب اسم البلاد كقوله : " ولازال النصر حلبة أيامه ، وشامة شامه وغمامة ما تلف على بلده المخضر من غمامه " [2] .

ومن ذلك لنائب حلب في توظيف لقبها ، الشهباء في تورية على اسم الفرس الشهباء ، قوله :" ولازال يعد ليوم تشيب منه الولدان ، يعد دونه كل محارب بينه وبين الشهباء والميدان ، ويعم من كل أيامه ما لا يفقد معه الاسم ابن حمدان" ومنها قوله :" وأعلى له من الأقدار قدراً ، وضاعف لديه من لدنه سروراً وبشراً ولا أعدم الممالك من عزائمه تأييداً ونصراً " وكذلك قوله :

---

[1] القلقشندي صبح الأعشى ج٧ ، ص ١٤٥

[2] المصدر نفسه ج ٧ ، ص ١٤٥ -١٤٦

" وأخصه بجميل المناقب ، وأمنحه من المزيد علو المراتب ، وضاعف لديه من الإيثار شريف المواهب " [١] .

وثمة دعاء يظهر فيه توظيف اسم المكان بشكل جلي ، ذلك دعاء لنائب سلطنة حماة يقول فيه :"وحمى حِمَاهُ ، وزان موكبه بأحسن حُمَاة وحسن كنائن سهامه ، التي لا يصلح لها غير بلدة حَمَاةٍ " ، ودعاءٍ آخر يصلح لنائب الكرك ومن في معناه ممن رتبته المجلس العالي :" وأيد عزه ، وأيد حزمه ، وفوق إلى نحر الغراء سهمه "[٢] وهنالك من الأدعية ما يناسب أرباب السيوف دون غيرهم ، أورد القلقشندي أدعية كثيرة نذكر منها قوله :" لا زالت ترد بالسيف صدور الكتائب ، وترد الظماة منها مورد السحائب ، وتحدث عن البحر وكم في البحر من عجائب" ومنها قوله :" لا أخلى الله من ودها ولا قطع وظائف حمدها ، ولا قضى مغايبها إلا جعل لها ذكرى بعدها " وآخر منها :" لا زالت في تقليد المنن سابقة في الجود العزى ، مقتسمة في مكارم التكريم : باطنها للندى وظاهرها للقبل " [٣] .

لا حظ الباحث أن هذه الأدعية ، قد استنبطت معانيها مما اختصت به السيوف ، سواء كانت صفات لها ، أم مما تقوم به من في الحروب .

---

(١) المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٤٨ _ ١٤٩
(٢) المصدر السابق نفسه ، ج ٧ ، ص ١٤٣ _ ١٥٣
(٣) المصدر السابق نفسه ، ج ٨ ، ص ١٩٢ - ١٩٣

كما أن هنالك ألقاباً اختصت بأرباب الأقلام ، تؤخذ معانيها من بعض المعاني المختصة بالأقلام ، وتلك المعاني التي يتداولها من يتعامل بهذه الصنعة ، ومما ذكره القلقشندي في هذا المجال قوله :" لا بـردت مفاخره مفصلة ومحبتها في الخواطر ممثلة ، والكواكب تود لو فارقت فلكها وأصبحت لديها مسبلة " ومنها :" لا زالت صحائف الإحسان مسطرة ، ولقلوب الأعداء مفطرة ، وصنائع المعروف إذا أمسكت الأخواء ممطرة " (١) .

وثمة أدعية تكتب في المناسبات ولكل مناسبة أدعية تناسبها على وجه الخصوص ، وتكون هذه الأدعية دالة على المناسبة ، فيما يكتب في الهناء غير ما يكتب في العزاء ،" فإنه متى خرج الدعاء عن المناسبة وباين المقصود ،خرج عن مادة الصناعة ، وتوجه اللوم إلى الكاتب ،لاسيما إذا أتى بما يضاد المراد " (٢) .

ويبقى الاختلاف قائماً بحسب حال المكاتبات ، ففي معنى البشارة بجلوس المَلِك على تخت المُلكُ وكتب :" لا زال أمره وأمتعه من البشائر بما يتضح على جبين الصباح بشره ، وما يترجح على ميزان الكواكب قدره ، وما ينفسح عن أوقات أمن ، آيات النصر تشي عليه من صحف البشائر ، ونفائس

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٢٨٧
(٢) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٨٧

الظفر تجلى على سره في أُسعد طائر ، وفواتح الفتح تزهى به الأسرة ، وتزهو بنوره المنابر " (١) .

ومنها ما يكتب في التهنئة بعافية بقوله : " ولا برح في برد الصحة راكناً ، ولا زال الزمان بعزمه وحزمه كافلاً ، والإقبال لجنابه العالي بالهناء بعافيته واصلاً " (٢) .

وقد يكون الدعاء مناسباً للحال الذي يكون عليها المكتوب إليه ، فيكتب لمن خرج إلى الغزو : " وحظه بلطفه فلا يخيب ، وهيأ له النصر والفتح القريب ، وجعل على يديه دمار الكفار ، حتى لا يبقى لهم من شدة بأسه من السلامة نصيب " ، وكذلك يكتب لمن خرج إلى الصيد : " وأمتعه بصيوده ، وجعل الأقدار من جنوده ، وأراه من مصارع أعدائه بسيوفه ورماحه ، ما يراه من مصارع صيد بازاته وفهوده " ومنه ما يكتب لمن خرج في سفر :" وقضى بقرب رجعته ، وجعله كالهلال في مسيره سبب رفعته ، وسكن بقدومه أشواق أوليائه وأهل محبته " (٣) .

وتارة يكتب باعتبار الوظيفة التي يزاولها المكتوب إليه ، من ذلك ما يكتب إلى قاضٍ :" وفصل بين الخصوم بأحكامه المسددة ، وأقضيته التي بها

---

(١) المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٨٧ _ ٢٨٨
(٢) المصدر السابق نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٨٨
(٣) المصدر السابق نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٨٨

قواعد الإسلام ممهدة ، وأبنية الشرع المطهرة وأركانه المشيدة " ومنـــــها مـــا يكتب للمتصوف :" وأعاد من بركان تهجداته وأنار الليالي بصالح دعواته"(١).

ومن الأمور التي تؤخذ بالاعتبار في الدعاء لقب أو اسم المكتوب إليه ، فمن ذلك ما يكتب لمن لقبه سيف الدين : " ولا زال سيفه في رقـــاب أعدائـــه مغمداً ، ومدهُ يزر كل مُلحِدٍ ملحداً " ويكتب لمن لقبه عز الديـــن بقولـــه :" ولا زال عزه دائماً والزمان في خدمته قائماً ، وطرف الدهر عن مراقبة سعادتـــه نائماً " وكذلك لمن لقبه شمس الدين :" ولا زالت شـــمس ســعادته مشــرقة ، وأغصان فضله بالعوارف مورقة ، وعيون طوارق الغير عنه في محل زمـــن مطرقة " أما لمن لقبه ناصر الدين فيكتب له : " ونصر عزائمه وشكر مكارمـه ، ووفر من الحسنات مغانمه " (٢) .

وقد أجيز الدعاء لأهل الكفر ، وأجاز العلماء من ذلك الدعاء لهم بطـول البقاء ، ولعل ذلك عائد لما فيه فائدة تعود على المسلمين ، من دفع الجزيـــة أو الغنيمة أو أجر الجهاد ، إلى أن الدعاء لهم يقتصر على مــــا لا يعيـــن علـــى المسلمين ، أو يجلب لأهل الكفر منفعة فقد عوتب الشافعي _ رضي الله عنه _ عندما دعا لنصراني بقوله :" أعزك الله فلربما ذلك أدى إلـــى انتكـــاس حـــال المسلمين "، وقد استدلوا على جواز الدعاء لهم بما روي أن الرســـول_ﷺ _

---

(١) المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٨٩
(٢) المصدر السابق نفسه ج ٦ ، ص ٢٨٩

استسقى فسقاه يهودي ، فقال له جملك الله ، فما رؤي الشيب في رأسه حتى مات !" فدل على جواز الدعاء للكافر بما لا ضرر فيه للمسلمين ، ما لم تنظر إليه قوة ونحو ذلك " (١) .

وقد رتبوا المكاتبة بالدعاء على ثلاث مراتب : المرتبة الأولى _ الدعاء للمقر ، وثمة فوارق فيما يكتب في هذه الرتبة من الأدعية ، فإن كان المكتوب له من أرباب السيوف ، كتب له : أعز الله أنصار المقر الكريم ، ثم يؤتى بألقابه ثم يدعى له بما يناسبه مثل :" ولا زالت جيوشه جائلة ، وجنوده بين الأعداء وبين مطالبها حائلة ، وأولياؤه على صهوات خيلها لديه قائلة " وكذلك مثل قوله : " ولا برحت الآمال بكرمه تعترف ، وبوارق صوارمه لأبصار الأعداء تختطف " .

أما إذا كان من رؤساء الكتاب ، فيكتب له : بسط الله ظل المقر ، أو أسبغ الله ظلال المقر الكريم ، ثم يؤتى بألقابه ، ويتلو ذلك بما يليق به من دعاء مثل قوله : " ولا زالت الأمور إليه مفوضة ، ومضارب العز إلا عنه مقوضة ، وصحائف الحسنات بتسويده على أثناء الدهر مبيضة " ومثله : " وصرف لسان قلمه ، وشرف مكان قدمه ، وعرف من كان يناويه أنه أصبح لا يعد من خدمه " (٢) .

المرتبة الثانية : الدعاء للجناب وهو على ثلاث طبقات :

---

(١) المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٨٦
(٢) المصدر نفسه ، ج ٨ ، ص ١٩٥ _ ١٩٦

الطبقة الأولى _ " أعز الله نصرة الجناب الكريم " ، فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف كتب له : أعز الله نصرة الجناب الكريم ويؤتى على ألقابه ، ثم يدعى له ومن ذلك قوله : :" ولا زالت عزائمه تعير السيوف المضاء ، وتعلم السهام النفوذ في الفضاء " ومثله أيضاً : " ولا زال جنابه مرتعاً ، وسحابة مربعاً ، ورعبه لا يدع من قلوب الأعداء موضعاً " . أما إن كان من الكتاب كتب له : أدام الله الجناب الكريم ، ويتلو ذلك بألقابه ، ثم يدعو له بمثل قوله : " وبلغه أشرف الرتب ، وملأ به قلوب الأعداء غاية الرعب ، وشكر ندى قلمه الذي لم يدع للغمام إلا فضل ما وهب " وإن كان قاضياً كتب له : أعز الله أحكام الجناب الكريم العالي ، ويتبع ذلك ألقابه ، ثم يدعو له كقوله : " ونور الله بعلمه البصائر ، وسر بحكمه السرائر ، وجعل فيض يمه مما لا تودع درره إلا في الضمائر " [١] .

الطبقة الثانية : " ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي " ، وهنا أيضاً تختلف الأدعية حسب المكتوب له فإذا كان من أرباب السيوف كتب له : " ولا زال عزمه مؤيداً وعزه مؤبداً ، واجتهاده وجهاده هذا يسر الأولياء ، وهذا يسوء العداء " وأن كان من الكتاب فيدعى له بقول : " ولا زال يرجع لكل جليل ، ويُأمل لكل جميل ، ويُأهل لكل منهى تقصر دونه أصابع النيل " فإن كان من القضاة ، كتب له :" دفع عنه الأباطيل ، وأرشد بهداه من الأضاليل "

---

[١] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ١٩٧ _ ١٩٨

ويكتب لرجال الصوفية بمثل قوله : " نفع الله بدعواته التي لا حجاب لها عن الإجابة ، ولا عارض يمنعها عن الإصابة وأمتع ببركاته التي هي أمن للناس ومثابة " (١) .

الطبقة الثالثة : " أدام الله نعمة الجناب العالي " فإذا كان من أرباب السيوف دعي له بالقول : " وموه بجهاده كل سنان ، ونبه بجلاده جفن كل سيف وسنان " فإن كان من الكتاب كتب : " ولا زال قلمه لأبواب الأرزاق فاتحاً ، ونجم رفده لأنواء الفضل مانحاً " وإن كان من القضاة كتب له :" ولا أخلى الله أفق الفضل من كوكبه ولا مجال الجدال من مركبه " وإن كان من مشايخ الصوفية كتب له بعد الألقاب نحو : " نفع الله ببركات خلواته التي كم أنجلت عن الرشاد ، وبان في مرآتها نور الهدى للعباد ، وأنارت إنارة الشمس لا إنارة الزناد " (٢) .

المرتبة الثالثه _ " الدعاء للمجلس ، ويختص بالمجلس العالي "

ويكتب لأرباب السيوف في هذه الرتبة بقوله : أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي ، ويتلو ذلك ألقاب المكتوب له ، ثم يؤتى بدعاء مثل قوله : "ولا زال سيفاً يدفع مجده ، ويجري ماء النصر من فرنده ، ويتنوع به الظفر فيقتل بتجريده ويخاف وهو في غمده ، وإن كان من الكتاب قيل في الدعاء له :" ولا نزع عنه ثوب سعادة ، ولا غير منه جميل عادة ، ولا عرف سوى بابه

(١) المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ١٩٩ _ ٢٠٠
(٢) المصدر السابق نفسه ، ج ٨ ، ص ٢٠١ _ ٢٠٢

الذي لوكان له الحق في جبهة الأسد لاستعاده ". ويقال في الدعـــاء للقضـــاة : "ولا برحت طلعته مفيدة المطالب ، وموربة الهدى في الغياهب ، قائمة أقــــلام هدايتها في ليالي الحيرة مقام الكواكب " .

وإن كتب لمشايخ الصوفية قيل " أعاد الله من بركاتـــه علـــى الراعـــي والرعية ، وجعل خلواته خلوات كل نفس مرضية " (١) .

ما كره من الأدعية :

وقد كره استخدام بعض الأدعية لما فيها من تملق وتصنع مكشوف ومن ذلك قولهم : جعلني الله فداك ، أو قولهم : قدمني إلى السوء دونك ويؤيد ذلـــك ما كتبه أحد الكتاب _ وهو أخبر في أضرب الدعاء _ حيث قـــال : " جعلـــت فداك في الصحة والحقيقة ، لا على مجرى المكاتبة ومذهب العادة " علـــى أن ذلك يعتبر من الأمور الجائزة في الدعاء من الخواص ، الذين يرون أن بقائـــهم مرهون ببقاء رؤسائهم وأن ثبات نعمهم مقرون بثبات السلطان ، وأما من ذهب لكراهية مثل هذه الأدعية لما روي عن الزبير _رضي الله عنه_ ، أنـــه قـــال للنبي _ﷺ_ : " جعلت فداك _ قال له أما تركت أعرابيتك بعد !! " ومن ذهب لجواز هذه الأدعية ، فقد استند إلى قوله عليه السلام ، لسعيد بن مـــالك فـــي معركة أحد : " إرم فداك أبي وأمي " وما روي عن ابـــن عبـــاس *رضـــي الله*

---

(١) المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٠١ _ ٢٠٢

عنهما أن النبي ﷺ _ قال له : " الا اكلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ قال نعم جعلني الله فداك " ولم ينكر عليه [١] .

هنالك من الأعدية ما يكره استخدامه للرجال على وجه الخصوص ، فلم يستحسنوا الدعاء بالإمتاع نحو أمتع الله بك ، وأمتعني الله بك في حق الإخوان ، أما في حق الاتباع فقد أجازه بعضهم ، محتجين على ذلك بأن الرسول_ﷺ _ دعا لأبي اليسر كعب بن عبيد الله بقوله : " اللهم أمتعنا به " قال ابن عفير فكان آخر أهل بدر وفاة مات سنة ٥٥ للهجرة [٢] .

ومن الأدعية ما يكره استخدامه في الدعاء للنساء ، من ذلك أن لا يقال في مكاتبتهن "وأدام كرامتك " ولا " أتم نعمته عليك " ولكن لديك ، ولا " فضله عندك " ولا " وأدام سعادتك " وحول كراهية الدعاء لهن " بالكرامة " فذلك لما حكاه محمد بن عمر المدائني ، أن بعض عمال زبيدة ، كتب إليها كتاباً بسبب ضياعاً لها ، فوقعت له على ظهر كتابه : " أردت أن تدعو لنا فدعوت علينا ، فأصلح خطأك في كتابك وإلا صرفناك عن جميع أعمالك ! ". فأدركه القلق فجعل يتصفح الكتاب ويعرضه على الكتاب فلا يجد فيه شيئاً إلى أن عرضه على بعض أهل المعرفة فقال : إنما كرهت دعائك في صدر كتابك بقولك : وأدام كرامتك : لأن كرامة النساء دفنهن _ قال رسول ﷺ : " دفن البنات من

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٩٠ _ ٢٩١
(٢) المصدر السابق نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٩٢

المكرمات) فغير ذلك الحرف من كتابه وأعاده إليها فوقعت علـــى ظـــهره _ أحسنت ولا تعد _ وأما كراهية الدعاء بأتم نعمته عليك وأبدله بلفظ وأتم نعمتــه لديك : فكأنه لما يلمح فيه من ذكر العلو على النساء " (١) .

وكذلك على الكاتب أن يتجنب الخلاف في الدعاء في فصول الكتـــاب ، ولا يوالي بين دعوتين متفقتين . فأما الخلاف بالدعاء مثل أن يقول : " أطـــال الله بقاء سيدي " بلفظ الغيبة ، ثم يقول بعد ذلك : وبلغك أملك _ بلفظ الخطــاب . وأما الموالاة بين دعوتين ولا يأتي بهما متفقين مثل : حرس الله الأمير أعـزه الله ثم يقول في الفصل الذي بعده : أعزه الله تعالى (٢) .

وعلى الكاتب أن يتنبه لوقوع اللبس في الدعاء ، فإذا ذكر الرئيس مـــع عدوه لم يدعُ للرئيس حينئذ ، فلو قال : " وقد كان من عدو سيدي _ أبقاه الله _ كذا " لاحتمل عودة الدعاء للرئيس ، وإلى عدوه فيقع اللبس . ولكن إذا ما ذكـر الرئيس وحده فإنه يؤمن اللبس بقوله : " وقد كنت عرفت سيدي _ أبقـــاه الله _ كذا " (٣) .

_ مواضع الدعاء ، ويرى القلقشـــندي أن للدعـــاء ثلاثـــة مواضـــع : الموضع الأول في الطرة الولاية ، بعد ذكر ما يكتب في الطرة من ألقابه ، ولا يزاد فيه على دعوة واحدة تناسبه ، الوضع الثاني : في أثناء الولاية ، وذلـــك

---

(١) المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٩٢

(٢) المصدر السابق نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٩٣

(٣) المصدر السابق نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٩٣

بعد استيفاء الألقاب وذكر الاسم ، وهو ما في الطرة من الدعوة المناسبة له بغير زائد على ذلك . الموضع الثالث : في آخر الولاية بالإعانة ونحوها ، ويكون أقلها دعوتين ، وأكثرها أربع دعوات ، على أن من استُصغِر من المولين لا يدعى له في آخر ولايته [1] .

---

(1) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٢٦٩

التهنئة

تعتبر التهنئة أحد المظاهر الاجتماعية الضاربة في القدم ، إذ هي تعبير مباشر عن عواطف الاجتماع البشري ، فمن طبع الإنسان أن يسر بما يسر به صديقه أو قريبه ، فلا تكتمل سعادة الإنسان بما طرأ عليه من أسباب السعادة ، دون أن يقاسمه السرور ، إخوانه وأصدقاؤه المقربون ، ومن هنا حرصت المجتمعات وعلى اختلاف بيئتها ، على توطيد العلاقة فيما بين أفرادها ، وتنظيم أساليب المجاملات بين الناس ، وإظهار الغبطة ، وإعلان السعادة ، عندما تتوفر اسباب الابتهاج ، عند من يرتبطون معهم باسباب الاتصال (١) .

وكتب التهاني ، من التي تظهر فيها مقادير إفهام الكتاب ، ومنازلهم في الصناعة ، ومواقعهم من البلاغة ، وهي من ضروب الكتابة الجليلة النفيسة ، لما في التهنئة البليغة من الإفصاح بقدر النعمة، والإبانة عن موقع الموهبة ، وتضاعف السرور بالغبطة. وأغراضها ومعانيها متشعبة لا تقف عند حد(٢) .

ولما كان هذا النوع من المكاتبات، لا يقيده فوارق اجتماعية ،إذ قد يكتب الرئيس إلى مرؤوسه، أو يكتب المرؤوس إلى رئيسه ،بما يطرأ من مناسبات تستوجب ذلك، فإن القلقشندي ينبه على الكتاب مراعاة مرتبة المكتوب إليه والمكتوب عنه في الرسالة اللائقة بهما ، إذ أنه لا تسامح بمثل هذا (٣) .

---

(١) علي بن محمد : النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس ، دار المغرب الإسلامي ، بيروت لبنان ط ١ ١٩٩٩ ، ج ١ ، ص ٣٥٦

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٥

(٣) المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ٦

وقد طرق القلقشندي هذا الباب من الرسائل ، فكتب في العديد من مواضيعه ، من ذلك رسالة نظمها يهنئ فيها المقر البدري محمود الكلستاني ، الشهير بالسراي ، باستقراره في كتابة السر الشريف في سلطنة برقوق ، في الدولة الظاهرية في الدولة المصرية يقول فيها :

رفعت للمجد مذ وليت بنيانا   وشدت للفضل بعد الوهن أركانا

وأصبح الملك في زهو ومالكه   يميس عجباً ، وهنأ التخت إيوانا

قدمت مصراً فأمست منك في فره   تهز بالبشر من لقياك أردانا

وغودر النيل مذ وافيت مبتهجاً   وقد رمى الصد والإبعاد جيحانا [١]

بدأ القلقشندي ، هذه الأبيات ، بعقد مقارنة ، بين ما كان عليه الحال قبل مجيء الممدوح ، وبعد استقراره في الديوان ، ويستخدم المجاز في التعبير عن هذا التغير ، الذي طرأ على الديوان ، فيشخص المجد والفضل ، ويجعل لهما بنياناً يرفع ، وإيواناً يشيد .

ويظهر الكاتب فضل الممدوح بشكل كبيرعندما يصل تأثيره الىالملك ، أي قمة الهرم في الدولة ، ويبان ذلك على الملك فيسير تيهاوعجبا ،ويتسع الرخاء حتى يعم مصر بأكملها فتهتز الأردان تعبيرا عن نشوة الفرح .

وينتقل الكاتب لايضاح دواعي وأسباب تلك المكانة ، التي احتلها الممدوح فيقول :

---

(١) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٢٢

ألفاظك الغرّ صارت للورى مثلا   وكتبك الزهر بعد اللثم تيجانا

تفوق قسا اذا تبدو فصاحتها   وتفضح المصقع الملاق سحبانا

قد أفحمت في مجازات بلاغتها   تركا وروما وبعد الفرس عربانا

فالدارس لهذه الأبيات يرى أنها تشي بمهنة الممدوح ، اذ هي ذات علاقة بالكتابة ، ولما اتصفت به مقدرة الكاتب ، فإنه تبوأ هذه الرتبة العلية في ديوان الإنشاء ، فألفاظه أصبحت أمثالا تحتذى ، وكتبه تتوج بها السهامات ، والقلقشندي مغرم بأسلوب المقارنة ، حتى فيما يكتب شعرا ، فيجعل ممدوحه متفوقا في الفصاحة ، على الخطيب الجاهلي المشهور ، بالفصاحة قس بن ساعدة ، واذا كان هذا الأخير قد اشتهر في مجال الفصاحة في النثر ، فإن ممدوحه قد تجاوز النثر إلى الشعر أيضا ، فهو يربو بفصاحته على سحبان بن وائل الشاعر المشهور ، وبذا فإن الممدوح ذو فصاحة تربو على الشعر والنثر ، بل إن فصاحته وبلاغته قد بزت غير العرب من الترك والفرس والروم .

والكاتب يرى أن ممدوحه قد أغنى عن كل من سبقه ممن تولى في هذا المنصب ، فلا أسف عليهم إذا ما ولّوا ، إذا بقي الممدوح في مركزه .

ولا بد من التنويه لاستخدام الباحث كلمة " الممدوح " وتكرارها ، مع أن الموضوع الذي كُتبت فيه هذه الأبيات هو التهنئة ، وليس المدح ، ولكن ما يراه الباحث أن الأبيات جاءت معبرة باسلوب مدحي ، أكثر منه تعبيرا عن تهنئة ، ولعل ذلك ما دفع القلقشندي لكتابتها شعرا ، مع أنه يفضل النثر على

الشعر ، فالمدح من كان موضوعه الشعر ، على أن الــدارس للأبيــات يجــد الشاعر فيها جنح للضرورة ، كما في القافية مما أظهر الخلل عنـــــده فــــي المعانـــي ، كذكـــره " سحبان بن وائل " وهو لا يمتاز على غيره من الشــعراء كثيراً ، كمـــا امتاز " قس بن ساعدة " على الخطباء في الخطابة .

وكذلك تقديمه " للترك والفرس والروم " على العــرب ، إذ أن العــرب فاقتهم في الفصاحة والبلاغة ، فيرى الباحث أنه ليس من دافع وراء ذلـــك إلا اضطراره للقافية النونية ، التي بدأ بها قصيدته ، وللقلقشندي تهنئـــة أخــرى ، كتبها نظما ، يهنىء بها المقرّ الأشرف الناصري محمد بن البارزي ، كـــاتب السر الشريف المؤيدي ، في الممالك الاسلامية بمناسبة حلول شهر رمضـــان ، وكان ذلك سنة ست عشرة وثمانمائة للهجرة الشريفة ، يقول فيها :

أيا كاتب السر الشريف ومن به   تميس نواحـــي تيهـــا مـــع الشـــام

ومن جَلتْ الجَلِيّ كتائـــب كتبـــه   ومن ناب عن وقع السيوف بأقلام

ويستهل القلقشندي هذه التهنئة كذلك بمقدمة مدحية ، ولعل السر في ذلك أن النفس الانسانية أميل لسماع الثناء في استهلال الأحاديث . ويُلحـــظ قــرب الشاعر من المكتوب له – سواء القرب النفسي ، أو المكاني-مـــن الاســتفتاح بالنداء واستخدام الهمزة كأداة نداء للقرب والتحبب ، كقولك : (أبنـــي) فـــهو يخاطبه عن مقربه ، ويكون النداء له باسم الوظيفة التي يشغلها ، مما يدل على أُن المنادى يرغب في ذلك لعلو رتبة وظيفته ، وإلا لناداه باسم أو كنية أخــرى

، مما يحبب إليه ، و ثمة سبب لاختياره المخاطبة باسم الوظيفة ، فهو كـــاتب يصور الشاعر كتبه بالكتائب ، وأقلامه ذات وقع أشد من بتر السيوف ، وبـــذا استحق أن يفخر بوظيفته وتقدم على كناه وألقابه .

فبعد هذه المقدمه المدحية يأتي ببيتين يحملان التهنئة بقوله :

تهنّ بهذا الصـــوم والعيـــد بـــعده ومن بعده بالعيد والعـــام فالعـــام

وترقى رقي الشمس في أوج سعدها وتبقى بقاء الدهر في فيض انعام

والتهنئة في هذه الأبيات تأتي صريحة باللفظ ، وهي مقرونـــة بالدعـــاء للمكتوب له بطول العمر ، وكذلك الارتقاء في سلم المجد .

ويفطن القلقشندي إلى أهمية الناحية الفنية في الشعر ، كما هـــي فـــي النثر ، فيلحظ الدارس لهذه الأبيات الموسيقى الداخلية ، الناجمة عـــن اختيـــار أحرف معينة لتشكيل هذه الموسيقى كقوله : " والعيد بعده ، ومن بعـــده العيـــد والعام فالعام " فتردد حرف العين وحرف الدال والقاف في قوله " وترقى رقـــي _ تبقى بقاء " ويعطي للأبيات جرساً موسيقياً يرتاح له السامع . وثمـــة تهنئـــة نظمها القلقشندي للمقرّ الأشرف الناصري محمد بن البارزي ، صاحب دواوين الانشاء الشريف ، بالممالك الاسلامية في الدولة المؤيدية " شيخ " بمناسبة عيـــد الفطر ، بعد أن قضى للقلقشندي حاجة كان سأله إياها .

سألت نظام الملـــك كاتب سره ازالة ضنك أرهف الدهر حده

فمن بجاه زعزع الأرض وقعه وجاد بمال لا يرى الفقر بعده

وبالبارزي ازدان وصف مكارم   فاشبه في فضل اباه وجده

فيهناه صوم ثم عيد مسرة   وطالع إقبال يقارن سعده

ورفع دعاء لا يغب تتابعاً   وطيب ثناء خامر المسك نده (١)

يستهل القلقشندي قصيدته التي كتبها في التهنئة ،بتمهيد مدحي من خلال إيراد تلخيص حادثة وقعت أحداثها بين الشاعر والمكتوب له ،يشير فيها أنه سأل المكتوب له معونة ،تعينه على ضيق ألم به ،فيصف هذه الضائقة ؛ وكأنها السيف على عنقه ،وأن الزمن عمل على إمضاء حده ،فأزال المكتوب له هذه الضائقة ،ومنحه من العز ما جعل الأرض تهتز له ،ومن المال ما يخفي الفقر من حياته .

ولعله من الممكن وصف هذه المقدمة بأنها وصفية قصصية ،وإن كانت تتضمن المدح في ثناياها ،ويبلغ المدح أقصاه في البيت الثالث ،عندما يجعل الشاعر الفضائل تزدان بالممدوح ،ويعتبر أن هذا الأمر متوارث فبذلك يشبه الممدوح آباءه وأجداده .

ثم يأتي بعد ذلك بالتهنئة والدعاء للمهنيء .

وقد لاحظ الباحث أن القلقشندي قد خص موضوع التهاني _ وحسب ما توفر لديه من نصوص _ بالشعر دون النثر ،ولعل ذلك عائد _ كما أسلفها _ لقرب موضوع التهنئة من المديح ، إذ لا يخلو نص من نصوصه من المديح

---

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٩ ، ص ٤٥

للمكتوب له ، وبالتالي فإن المديح بيته الشعر ، عرف به منذ العصر الجـاهلي ، وإن القلقشندي قد ارتأى الشعر أكثر مناسبة للمدح ، ولو لم يكن كذلك لكتـــب فيه نثراً ... إذ هو من قدم النثر على الشعر .

الاستماحات

يتسم هذا النوع من الرسائل بأنه ذو طابع شخصي ، موجه من كاتبه إلى صاحب الشأن والمسؤولية ، مؤملاً الكاتب من ذلك قضاء حاجة ، أو تلبية رغبة ، وغالباً ما يكون هذا المسؤول ، هو القادر على قضائها وتلبيتها . وتتنوع هذه الحاجات والرغبات كطلب المنح المالية ، أو تولية المناصب والوظائف ، أو إزالة جور أو ظلم حل للكاتب .

وهذا ما يعود بالذاكرة لأولئك الشعراء ، الذين وظفوا شعرهم بهدف التكسب ، فدفعهم ذلك لإلباس ممدوحهم الصفات الجليلة ، ابتغاء الحصول على العطاء الجزيل ، وتلبية الرغبات المبتغاة [١] .

ولما كانت الحاجات والرغبات تختلف لدى الكتاب ، فإننا نجد تنوعاً وتمايزاً في تشكيل هذه الرسائل ، وإن كان ثمة اشتراك في رسم صورة الممدوح_ فهو ذو كرم وجود ، وهو صاحب نخوة وشهامة ، يلبي حاجة الملهوف ويغيث المحتاج ويزيل الظلم عمن ألم به .

وقد أدرك القلقشندي هذه الأمور فأشار إلى ذلك بما أخذه صاحب " مواد البيان " يقول :" ورقاع الاستماحة يختار أن تكون مودعة من الألفاظ ما يحرك قوى السماح ، ويبعث داعي الارتياح ، ويوجب حرمة الفضل السهلة

---

[١] أنظر محمد الدروبي : الرسائل الفنية في العصر العباسي ، ص ٣٣٢

بذل المال الصعب بذله ، إلا على من وفر الله مروءته ، وأرخص عليه أثمان المحامد وإن غلت " [١] .

وثمة ما يدعو للتنبيه عليه ، وهو أن هذا النوع من الرسائل يحتاج إلى جواب ، وأن هذا الجواب يحمل في طيه أحد أمرين : فإما يكون بالإيجاب وتلبية الحاجة ، وإما أن يكون سلباً ويمنع صاحب الرسالة حاجته ، ولا يخفى ما لذلك من أثر نفسي سيء على الكاتب ، إضافة لمنعه حاجته ولذلك فإنه : "ينبغي للكاتب أن يتلطف فيها ، التلطف الذي يعود بنجاح المرام ، ويأمن من الحصول على إراقة ماء الوجه والخيبة ، بالرد عن البغية ويعدل عن التثقيل والإلحاف المضجرين ولا يضيق العذر على السماح ، إلا أن يتمكن للثقة به ، ويعلم المشاركة في الحال " [٢] .

ولعل القلقشندي صاحب الخبرة في شطري الأدب_ نثره وشعره _ وهو من قدم النثر على الشعر _ يرى أن الشعر أكثر ملائمة لهذا النوع من الرسائل ، لما امتاز به من رقة الألفاظ ، ومقدرة على تحريك لواعج الصدور ، فاختاره لينظم أبياتاً لأمير المؤمنين ، المستعين بالله أبي الفضل العباس ليستسمحه حاجة ، وقد حضر مجلسه ولده يحيى وأخواه داود ويعقوب .

---

[١] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ١٧٦ / وانظر علي بن خلف الكاتب : مواد البيان ، تحقيق حسين عبداللطيف ، منشورات جامعة الفاتح ١٩٨٢ ، ص ٦١٨ .

[٢] القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٩ ، ص ١٧٦

بقوله :

إن رمت أن تحظى بنيل مآرب   فبادر إلى العباس من آل عباس
إمام به ثغر الخلافة باسم   وعرنينها يسمو على قمة الراس
أبى الفضل إلا ان يكون لأهله   دواماً وأن يُدعى أبا الفضل في الناس
فللمستعين أقصد تجد خير منجد   حريص على المعروف يبرأ بإيناس
فيحيا له يحيى وداود له صنوه   ويعقوب أعضاداً وحصناً من الباس [١]

يلاحظ الباحث أن القلقشندي قد ابتعد عن التصريح بطلب حاجته في هذه الأبيات ، واكتفى بالتلميح لها من خلال استخدامه ضمير المخاطب " إذا رمت " ، وكأن حديثه موجه لصاحب حاجة آخر ، وليس للخليفة ، فهو يدعو من كان ذا حاجة إلى التوجه للعباس الخليفة ، وكأن الحديث الدائر ليس في مجلسه وبحضرته ، وربما كان ذلك أبلغ لاشعار القارئ أن الأبيات قيلت بعيداً عن الخليفة ، وإن ما ورد فيها ليس من باب التزلف والتقرب ، وإنما هي وصف لحال قائم ، فيصور أن ثغر الخلافة باسم بالامام ، والتبسم والبشاشة من الدوافع التي تدفع صاحب الحاجة لطلب حاجته ، وكيف إذا ما علمنا أن الخلافة هي التي تبتسم ؛ لوجود الخليفة على رأسها ، فإن ذلك أدعى للاستبشار بالخير .

ويوظف الشاعر كنية الممدوح (أبو الفضل) ليجعل الفضل باحثاً عن

---
[١] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ١٨٠

العباس ، ليدعوه الناس بهذه الكنية ، فهو لم يبتدعها وإنما الفضل من أراد ذلك ، ويتابع الدعوة للإقبال على الخليفة ، وبذلك يستحث الخليفة على إجزال العطاء له ، فيصفه بأنه خير من قدم العون ، والحريص على تقديم العون مؤنساً لمن قصده .

أما البيت الأخير فيأتي مفيداً بالدعاء للممدوح بالبقاء وطول العمر لابنه يحيى ، وأخويه داود ويعقوب ، ليكونا له درعاً يحميه من صروف الدهر .

وهناك رسالة أخرى كتبها القلقشندي في الموضوع نفسه ، قصد بها قاضي القضاة ، شيخ الإسلام ، جلال الدين عبد الرحمن بن عمر البلقيني يطلب فيها حاجة وقد جاءت نظماً يقول فيها :

أيا شيخ إسلام وقاضي قضاته ومن قد سما في الناس علماً ومنصبا
لقد عم نوء منّك كل مؤمل وحاش لبرق شمت يظهر خلباً *
أأحرم معروفاً له كنت أرتجي ويحجب ذو بُعدٍ من القوم أقربا
وما زلت أرجو من زمانك رفعة ولكن جواد الحظ بالبعد قد كبا
ولن يستعيض الخفض بالرفع ماجدٌ خصوصاً ومن أخرت ما نال مطلبا
ولست أرى منى إليك وسيلة سواك وحسبي باعتلاك تقربا (١)

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ١٨٠

* خلب : السحاب يومض برقه حتى يرجع مطره ، ثم يخلف وينقشع ، ويشبه به من يعد ولا ينجز / المعجم الوسيط مادة خلب / القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ١٨٠

إن أول ما يجلب الانتباه في صيغة الخطاب ، التغاير في هذه الأبيات على سابقتها ، ولعل مرد ذلك أن الأبيات الأولى كان صاحب الشأن هو الخليفة ، فانحاز القلقشندي إلى تجريد شخص آخر يخاطبه ، بل وتحدث عن الخليفة في صيغة الغائب ، لما للخليفة من مكانة رفيعة ورتبة علية ، ربما كان من الكياسة تجنب استخدام ضمير المخاطب معها ، أما في هذه الأبيات فإن المخاطب " قاضي القضاة " وهي رتبة قد قاربها القلقشندي ، كما أنه لا يخفى على الدارس ، ما تشي به الأبيات من علاقة صداقة تربط الشاعر بالممدوح . ومع أن الخطاب جاء مباشراً للممدوح ، إلا أن القلقشندي يحافظ على إجلال ممدوحه والثناء عليه ، بل قد يبالغ في ذلك فخير الممدوح قد نال كل من ارتجاه ، فهو إن وعد أنجز .

ويلمح الباحث صيغة العتاب في الأبيات ، إذ لا تخل من روح الصداقة ، التي جعلت الشاعر يتأمل من ممدوحه أن ينال ما يرتجي منه ، وأنه لم يتوقع منه هذا الحرمان .

وهنالك أمر آخر لم نجده في الرسائل السابقة ، وهو التصريح بطلب الحاجة ، ولعل الدافع هنا ما ذكرناه بأنه لا تخلو علاقة القلقشندي ، من المودة والرحمة مع جلال الدين البلقيني ، وذلك واضح في البيت الأخير ، حيث يصرح الشاعر بأنه لا يملك وسلية للممدوح ، سوى الممدوح نفسه ، مما يدل

على أنه من الأصدقاء والخلان المقربين له ، وللقلقشندي رسائل أخرى جاءت نظماً أيضاً طلب فيها حاجات من ذوي الشأن فيها [1] .

ويلاحظ الباحث أن هذه الرسائل ، التي نظمت جاءت على شكل مقطوعات ، تتوزع أبياتها بين مقدمة مدحية ، ثم التعريض أو التصريح بالحاجة المطلوبة ، كما أنها لا تخلو من الدعاء لصاحب الشأن أحياناً ، وهي تنبئ عن مقدرة شعرية لا بأس بها عند القلقشندي ، وإن كان أميل لاستخدام النثر في معظم الموضوعات التي كتب فيها .

---

(1) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٨١

رسائل المفاخرات والمناظرات:

لما تعددت موضوعات الرسائل الأدبية ، فقد تبعها تعدد في أشكال التعبير عنها ، فمال الكتاب إلى إبتكار طرائق فنية جديدة ، يقدموا من خلالها رسائلهم ، التي تحمل أغراضاً شتى ، ولعلهم أحسوا بأن التعبير عن تلك الموضوعات بالصورة النمطية يحتاج إلى التجديد ، وإدخال تغييرات عليه في الأسلوب والشكل ، فظهرت الرسائل التي تحتذي حذو المفاخرات [١]

والمفاخرات : ضرب من الرسائل ، التي يعمد فيها الكاتب إلى الحديث على لسان شخوص ، أو يلجأ إلى انطاق الأدوات كالسيف والقلم ، والنباتات كالورود ، والمباني كالقصور ، وغالباً ما تظهر على شكل حوارية يحاول كل طرف إظهار محاسنه ومناقبه والطعن في محاسن ومآثر الطرف الآخر ، وقد تكون بين أكثر من طرفين ، كالمفاخرة بين العلوم وفي هذه الحالة لاتصل لدرجة الحوارية الكاملة إذ أن كل علم ، يدحض ما قاله من قبله ويذكر محاسنه ، ثم يأتي العلم الذي يليه ليفعل فعلته ، دون العودة للأول ، فلعلها في هذا الجانب قريبة من المفاضلات لا الحواريات .

---

(١) محمد الدروبي : الرسائل الفنية في العصر العباسي ص ٤٠٩

وقد كتب القلقشندي في كلا الصورتين ، فكتب مفاخرة بين العلوم ، أحصى بها نيفاً وسبعين علماً ، ذاكراً محاسن كل منها ، مشيراً إلى ما يميزها عن غيرها من العلوم ، وله مفاخرة أخرى إعتمد فيها الحوارية شبه الكاملة وهي بين السيف والقلم .

أما المفاخرة بين العلوم ، فقد أنشأها سنة ثمان وتسعين وسبعمائة ، لقاضي القضاة شيخ الاسلام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي حفص عمر البلقيني ، ابتدأها بعلم اللغة ، وختمها بفن التاريخ ، وقد ذكر ما إمتاز به كل علم واحتج بما فيه من الفضائل دون غيره من العلوم [١] .

يبدأ الكاتب المفاخرة على شكل خطبة يستهلها بالحمد لله ، الذي منح العلم جلالا جعل الفضائل والأقلام تلهج بالثناء عليه ، ثم التشهد والصلاة على الرسول عليه الصلاة والسلام ، الذي أتى بفصل الخطاب فأقر منه الخصوم وأهل البلاغة ثم تكون البعدية ، فيذكر أن العلوم بشتى أصنافها مشتركة في أصل الفضل ، وأن التفاوت في الشرف فيما بينها يعود لمدى حاجة الانسان لها ، مع أن كل واحد منها يرى أنه الأفضل والأعلى بينها .

---

(١) القلقشندي صبح الأعشى ج١٤ ، ص٢٠٤

ويهيء للدخول في المفاخرة ، بفقرة يفتتحها باسم الاشارة " هذا " الذي يحمل حرف التنبيه " هاء " ، فيذكر أن العلوم اجتمعت ، وقام بينها الجـــدال والتفـــاوض والتخاطب والتحاور ، كل يدعي الشرف لنفسه دون غيره ، فتفاخرت وتسابقت فـــي تقديم الحجج والبراهين ، وطرح الأسئلة وإقامة الاعتراضات [1] .

يلاحظ الباحث أن القلقشندي بدأ المفاخرة بعلم اللغه ، ولعل في ذلك تقديمـــاً للغة عند الكاتب على غيره من العلوم ، فهي الوعاء الذي فيه توضع بقية العلـــوم ، وبدلالاتها يميز بين الخاص والعام ، حتى أن الله _ عز وجل _ قـــد علمـــها دون غيرها ، لآدم _عليه السلام _فكانت له ميزة على الملائكة ، وربما كان هذا التقديـــم لهذا العلم مرده اشتغال القلقشندي فيه ، وميله للأدب ، ولذلك يلحظ الناظر أنه رتـــب العلوم لقربها من اللغة ، التي جعلها أول العلوم يتصدى لها علم الصرف ، فيحـــاول ايضاح ما وقع فيه علم اللغة ، من ترفعه على غيره من العلوم ، فيحاول جلب الأمثلة ليقرب المعنى ، الذي يرنو إلى توصيله للمتلقي ، "حط قدر من ترفع علـــى أبنـــاء جنسه، ولو عقدت عليه الخناصر، وما يجري البازي بغير جناح، أويغني الســـاعي إلى الحرب بغير سلاح، وأنّى يطعن رمح بغير سنان، أو يقطع سيفٌ لم يؤيد بقـــائم ،ولم يقبض عليه ببنان " [2]

---

[1] القلقشندي صبح الأعشى ج١٤ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٦
[2] المصدر نفسه ج١٤ ، ص٢٠٦

ويواصل ذلك أنه مهما كان له من فضل ، وعراقة أصل ، فإنـــه غــير مستقل بذاته ، ولا مستغن عن غيره ، فهو يعتمد على علـــم التصريــف فـــي التعرف على أصول الأبنية للكلمة في جميع أحوالها ، من أسماء وأفعال ، وفي أحوال الحروف ترتيبها ومخارجها ، والأصل والمزيــد والمــهموس والرخــو والشديد ، وكيفية التثنية والجمع ، ثم يلتفت لناحية أخرى ، وهي أن علم الخــط يكاد يقوم مقام علم اللغة ؛ بل هو يزيد عليه فـــي ترتيــب الأحــوال وضبــط الأموال ، ويعين على نقل الأخبار من زمان لزمان ، ويعين على كتمان الســر من مكان لمكان [1]

وهكذا يبرز له علم النحو في اظهار محاسنه ، والطعن في فضائل سابقه ، وتلحق به بقية العلوم في هذا الأسلوب ، حتى تكثر الدعاوي وتتابع الحجــج ، فيقوم علم السياسة ويظهر ما لديه من ميزات ، ويثني علـــى حديــث العلــوم المختلفة بأنها أجادت فيما ذكرت . ولكن يجب ان تســلك مســالك العدالــة ، فينصف كل واحد الأخر ويقف عند حده ، عندما يتقدم علم تدبــير المــنزل ،

---

[1] المصدر السابق ، ج ١٤ ، ص ٢٠٧

فيطري على علم السياسة ويقترح ؛ أنه لا بد من حكم ، يكون على معرفة بكل هذه العلوم ، يحكم فيما بينها .

ويلاحظ الباحث أن الكاتب بدأ بالتمهيد " لمدحيته " التي يريد بها ممدوحه ، الذي كتبت له هذه المفاخرة ؛ فيخصص لذلك علم الفراسة – والذي تعرف به حقيقة الرجال – ويطيل علم الفراسة الحديث مديحا للممدوح ، جلال الدين عبد الرحمن البلقيني ، فيعدد مناقبه وسعة اطلاعه ، ويعقد له مقارنة مع علماء شتى العلوم ويجعله فوقهم ، بل هو قدوتهم ، حتى لو أنهم لحقوا به لتخلوا عن علمهم له ، وكانوا تلاميذ في مجلسه .

ويتصدى للقول علم الأخلاق ، فيثني على علم الفراسة ، ويبرز للباحث غرض آخر يكمن في المفاخرة ، فعلم الأخلاق ينحو منحى آخر يطلب فيه من العلوم أن تشهد للكاتب ، وتكون وسيلة له عند الممدوح ، ليشمله بنظره وعنايته : " بأن ينتصب كل منكم له شفيعا إلى هذا السيد الجليل ، ويكون له وسيلة إلى هذا الامام الحفيل ، أن يصرف إليه وجه عنايته وينظر إليه بعين الإقبال والرعاية ، ليعز في الناس جانبه ، ويطلع أفق السعد بعد الأفول غاربه ..." (١)

---

(١) المصدر السابق ، ج ١٤ ، ص ٢٢٨ – ٢٢٩

ويأتي الدور الأخير في المفاخرة لعلم التاريخ ، ليدلـــهم علـــى مكـــان الممدوح الذي سيحتكمون إليه ، ولا يخلو حديثه من الاطـــراء والثنـــاء علـــى الممدوح فيجعله الفرد الذي ينفرد في الصفات ، بين من سبقه ومن عـــاصره ، بل هو من حلت الرياسة في فنائه وألقت السيادة عصا الترحال إليه .

وهكذا تجتمع العلوم على الرحيل إلى الممدوح ، ولكنها ترى أنه لا بـــد من تقديم مدحية بين يديه ؛ ولما قدمت من المدح فيه نثرا ، فقد ارتأت ان تلجـأ للشعر ليسعفها بقصيدة تكون مدحا للممدوح ، وخاتمة للمناظرة فيكتبها الشعر :

" بشرا كم معاشر العلوم أن   جُمِعتم بصدر حبر كامل

فنونه لـــم تجتمـــع لعـــالم   وفضله لم يكتمل لفاضل [1]

ويستشف الباحث أن مغزى الكاتب من هذه الرسالة كان يـــدور حـــول أربعة محاور : أولاها المديح للمكتوب له ، وهذا واضح من العبارات المدحيـة ، المنتشرة في ثنايا الرسالة ، وخاصة تلك التي كتبها في الدور الـــذي يقدمـــه (علم الفراسة) [2] ، أما ثانيها فهو الاستمناح وطلب العطف ، والرعاية مـــن الممدوح ، وقد أشار له الكاتب صراحة في حديث علم الأخلاق ، ومشـــورته على العلوم الأخرى ، بذكره عند الممدوح والتماس العطف منـــه للكـــاتب [3] والهدف الثالث : إبراز ثقافة الكاتب وسعة اطلاعه ، إذ يعرض لنا أكثر مـــن

---

[1] المصدر السابق نفسه ، ج ١٤ ، ص ٢٣٠

[2] المصدر السابق نفسه ، ج ١٤ ، ص ٢٢٥- ٢٢٨

[3] المصدر السابق نفسه ، ج ١٤ ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩

سبعين علماً مظهراً ما يختص به كل علم من العلوم ، ويشير من خلال ذلـــك لكثير من العلماء في شتى العلوم وفروعها ، ومن خلال مقارنتهم بـــالممدوح ، فيذكر أسماءهم وأسماء الكثير من كتبهم التي ألفوها في تلك العلوم المختلفه .

وأما المحور الأخير من هذه الرسالة ، فيدور حـــول مقـــدرة الكـــاتب الإنشائية من خلال استخدامه للسجع والموازنة والتجنيس ، وكذلك في التبـــادل بين النثر والشعر ، وتوظيف الموروث ، أضف إلى ذلك ما لاحظه الباحث من حسن استهلال ، وانتقال بين أجزاء الرسالة ، وحسن التخلص والخاتمة .

وثمة هدف يمكن أن نستخلصه من هذه الرسالة ، فهي رســالة تثقيفيـــة تعليمية ، تعطي القارىء نبذة حول العلوم المعروفة ، والتي كتـــب بـــها فـــي عصر الكاتب والعصور السابقة له ، وكما تعطي للقارىء تصوراً حول الثقافـة التي تمتع بها كتاب الموسوعات في ذلك العصر ، ومنهم كتاب هذه الرسالة .

ويذكر القلقشندي أنه :" لم ير من تعرض للمفاخرة بين العلوم ، ســـوى القاضي الرشيد أبي الحسين بن الزبير ، ويذكر الكاتب ، أنها لم تكـــن جاريـــة على نمط رسالته السابقة ، ولامرتبة على ترتيبها ، إذ أنه اقتصر فيـــها علـــى علوم قليلة ، عمل على المفاضلة بينها " [1]

---

[1] المصدر السابق نفسه ، ج٤ ص٢٣١

وهنالك رسالة مفاخرة أخرى للقلقشندي ، كتبها في المفاخرة بين السيف والقلم ، أنشأها للمقر الزيني أبي يزيد الدودار الظاهري ، في سنة أربع وتسعين وسبعمائة أسماها " حلية الفضل وزينة الكرم بين السيف والقلم " [1] .

بدأها الكاتب بخطبة ، مفتتحة بالحمد ، جعل السيف والقلم فيها متحدان في علو المكانة والرتبة ، والتفرد والاقتران في المجد ، فالسيف رمز القوة للحكم والسيطرة في حين جعل القلم رمز العلم والحكمة والسياسة ، منها للدولة كالجناحين للطائر ، لا يطير بأحدهما دون الآخر .

ولكن الكاتب يلتفت إلى الممدوح في هذه الرسالة منذ البداية ، إذ هو يحمل شرف هاتين الأداتين ، ويجمع بين فضليهما ، ولمّا قلّ ذلك وندر وجوده ،فقد حمد الكاتب الله على ذلك ، وتلاه بالتشهد والصلاة على نبيه _عليه السلام_ لينتقل إلى البعدية ، ويكون الحديث فيها على دواعي المفاخرة والمنافرة :" فإنه ما تقارب اثنان في الرتبة إلا تحاسدا ولا اجتمعا في مقام رفعة إلا ازدحما على المجد وتواردا ، وراح كل منهما أن يكون الفائز بالقدر والعلم وأن يكون مَفرَقه هو المُتوّج وجيده هو المحلّى ، وادعى كل منهما أن جواده هو السابق ، في حلبة السباق والفائز بقصب السبق في السباق [2]

وبعد هذا التمهيد العام ، يعرض الكاتب للسيف والقلم المتفاخرين ، واصفاً ما هما عليه من تقارب ومركزية ، تدور حولها دوائر الكمال " وسعدين

[1] المصدر السابق نفسه ، ج ١٤ ، ص ٢٣١
[2] المصدر السابق ، ج ١٤ ، ص ٢٣٢

يجتمعان في دائرة الأعتدال ، ونجمين يهريان إلـــى المعـــالي ، ومصبـــاحين يستضاء بهما حنادس[١] الليالي وقاعدتين تبنى الدول على أركانـــهما ..." [٢] فتوقدت بينهما نار المنافسه واحتدت الشحناء فقامت بينهما المناظرة ، وأخذ كل منهما يفرغ ما في صدره لنفسه من عجب ومفاخر ولنقيضه ما يكن في نفســه من نقض واقلال من الشأن .

وتكون التقدمة للقلم ، ويصفه الكاتب بصدق العزم وعدم التلعثم ، ولعـل في هذا ما يشي بميل الكاتب لأرباب الأقلام الذين هو منهم ؛ إذ يرى الكـــاتب أنه يرمز لهم بالقلم ، فيحتج القلم بأنه أول مخلوق ، وأن الله أقسم به ، وشـرفه بذكره له في كتابه الكريم بقوله: ﴿ ن والقلم وما يسطرون ، ماأنت بنعمة ربـك بمجنون ﴾[٣] وقوله عز وجل : ﴿ إقرأ وربك الأكرم الذي علـم بـالقلم علـم الانسان مالم يعلم﴾ [٤] . ويرد عليه السيف بأن القلم وإن ذكر في القرآن الكريم ، فقد حرم الله تعالى على رسوله الخط به ، وهذا شرف ناله السيف اذ به قاتل الرسول _صلى الله عليه وسلم_ ، على أنه تعالى قد ذكر صنفه فـــي القـرآن الكريم بقوله : ﴿ وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾[٥] ولكـــن القلـم يرد عليه بأنه فر من الشريعة إلى الطبيعة التي تميل إلى القوة والعدوان وأنـــه

---

[١] الحنادس : ثلاث ليالٍ تكون في آخر الشهر ، الحندس : الليل شديد الظلمة ، انظر المعجم الوسيط مادة حندس

[٢] القلقشندي : صبح الأعشى ج١٤ ، ص٢٣٢

[٣] سورة القلم آيه ١-٢

[٤] سورة العلق آيه ٣-٥

[٥] سور الحديد : آية ٢٤

يؤثر القساوة ويكدر أوقات الصفاء ، ويؤكد مواقع الجفاء ، ويمدح القلم نفسه فهو صاحب الحق والفضل ، وهو الذي يخط السطور فيهزم بها الجيوش ، فيثير هذا غضب السيف ليرد عليه بلهجة غاضبة ، يصفه بإطالة الغيبة ، والعودة بالخيبة ويتفاخر بأفعاله :

" السيف أصدق إنباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب [1]

إن نجادي لحلية العواتق ومصاحبة آمنة من البوائق ، ما تقلدني عاتق إلا بات عزيزا ولا توسدني ساعد الا كنت له حرزا حريزا [2]..." [3]

وتطول المناظرة والجدال بين المتفاخرين ، فهذا يذكر مآثره ومناقبه ويهجو الطرف الآخر ، مفصحا عن مثالبه ومعايبه ، وينبري الأخر ليرد على صاحبه بأقبح مما قال ، ويبسط قوله فيما يرى أنه من محاسن صفاته على أن " السيف يحرص على المسائل البينة والفوائد المادية الملموسة والصفات المجسدة التي لا يختلف اثنان على حقيقتها ، وهي القدرة على التفريج عمن يحمله وقيمته في نصرة الحق ، ويحاول القلم أن يحرز نوعا من السبق عندما يقرر أن الممالك تدور على الكتابة ، وما تنتجه الأقلام من المخاطبات " [4]

ولما لم يجد أحدهما على الآخر سبيل ، ولم يعترف أي منهما لصاحبه بالأفضلية ، فدفع به الأمر للبحث عن بديل لهذه المحاورة والمسابة التي تبدو

---

(1) أبو تمام ، حبيب بن أوس الطائي ، الديوان ، تحقيق حمد عبده عزام ، دار المعارف بمصر ، ط ٢ ، ج ١ ، ص ٤٥ .

(2) (حرزا حارزا) منيع لا يدرك ، انظر المعجم الوسيط مادة حرز .

(3) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥

(4) علي بن محمد : النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٩٩٠ ،ج١ ص٤٥٢

بلانهاية ، ومرة أخرى يكون القلم صاحب السبق في الجنوح للسلام والدعوة له ، ويرى الباحث أن ذلك ليس محض مصادفة بل هي النزعة المسيطرة على العقل الباطن للكاتب وميله ثانية لأرباب الأقلام ، فجعلهم القادة اللذين بدأوا المفاخرة والمناظرة وقالوها عبر هذه الحوارية إذ رمز لهم بالعلم ، فجعله يهتدي لطريق النهاية : " فمال إلى الصلح وجنح للسلم ، وأعرض عن الجهل وتمسك بالحلم ، وأقبل على السيف بقلب صاف ..." (١)

وثمة ملاحظة أخرى ، وهي أن القلم مع مقاربته من السيف والثناء عليه ، فهو يبقي على مدح نفسه ، والثناء على ذاته ، كصديقين متكافئين ، في قرابة الشرع وشقيقه في الكرم ، وأخوين في المجد ، فيقره السيف على ذلك ويتفقان على الالتقاء لدى الحكم الذي هو أهل لذلك .

وهنا يظهر دور الكاتب مرة أخرى ، بين شَخصَي المفاخرة ، لتحقيق هدف آخر ولعله الهدف الأول من إنشاء هذه المفاخرة ؛ وهو المدح للمقر الزيني أبي زيد الدودار الظاهري فيبسط له فنون المدح ، ويحشد له النعوت والألقاب ، التي يرى أنها مناسبة لرتبته ، ويلحظ القارىء أن الكاتب استخدم ضمير المثنى في أثناء هذا المديح إذ إن الكاتب يجعل السيف والقلم متفقين على ذلك ، ويدخل الكاتب شخصية جديدة في المناظرة وهي شخصية المنشد نيابة عنه عدد من الأبيات التي تشكل الخاتمة لهذه المفاخرة ، على أن هذه

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج١٤ ، ص٢٣٧-٢٣٨

الأبيات هي جزء من المديح للمدوح ، وقد لاحظ الباحث أن هذه المفـــاخرة إذا ما استثنينا المقدمة التي يظهر فيها دور الكاتب ، فإن المناظرة خلت في البدايـــة من أسلوب المجاملة ، والمقاربة في بداياتها وهذا ما يظهر أيضاً عند ابن بـــرد الصفي في مفاخرته بين السيف والقلم [1] كما نلاحظ أن هذه الرسائل الحوارية يتناوب فيها المتحاوران على الكلام إذ بدأ القلم ورد عليه السيف وهكذا .

---

[1] علي بن محمد : النثر الأدبي الأندلسي ج١ ، ص٤٥٢

الإجازات

الإجازات مفردها إجازة ، وهي : ما يصدر عن الشـيخ للتلميذ من السماح والموافقة أو الإقرار بالشأن الذي طلبت فيه الإجازة فإن الإجازة بالفتوى ، يحتاج التلميذ فيها لموافقة شيخه ، الذي يخضع لامتحانه ، والسماح له بمزاولة هذه الوظيفة ، وكذلك الإجازة بالتدريس ، في حين أن الإجازة بعراضة الكتب تحتاج لاقرار الشيخ ، بأن تلميذه قد حفظ ذلك الكتاب الذي امتحن فيه .

على أن تطوراً نال هذا الجانب من الكتابة ، من حيث الطرائق والشروط المنهجية ، المتبعة في حصول التلميذ على الإجازة ، وكتابة الشيخ له بها ولم تعد الإجازة شفوية من الشيخ لتليذه ، بل يكتب له بذلك إجازة خطية ، وجرت العاده أن يكون ما يكتب في الغالب في قطع عريض ، إما في فرخة الشامي ، أو نحوها من البلدي ، وتكون الكتابة بقلم الرقاع أسطراً متوالية ، بين كل سطرين إصبع عريض [1] وقد حصل القلقشندي على إجازة بالفتيا والتدريس والرواية ، اجازه بها : الشيخ العلامة ، سراج الدين أبو حفص عمر بن أبي الحسن الشهير بابن الملقن ، في سنة ثمان وسبعين وسبعمائة ، وقد كتب تلك الإجازة القاضي تاج الدين بن غنوم ، موقع الحكم العزيز بالاسكندرية وكان سن القلقشندي في ذلك الوقت إحدى وعشرين سنة [2]

---

(1) القلقشندي : صبح الأعشى ج١٤ ، ص٣٢٢

(2) المصدر نفسه : ج١٤ ، ص٣٢٢

وفي هذه الإجازة التي تحوي ثلاث اجازات أثنى الكاتب على القلقشندي بقوله : " ولما كان فلان أدام الله تعالى تسديده وتوفيقه ، ويسدد على الميزان طريقه ، ممن شب ونشأ في طلب العلم والفضيلة ، وتخلّق بالأخلاق المرضية الجميلة الجليلة ، وصحب السادة والفقهاء والقادة من الأكابر والفضلاء ، واشتغل عليهم بالعلم الشريف اشتغالاً يرضي ، وإلى نيل السعادة _ إن شاء الله_ يفضي ، استخار الله تعالى سيدنا ... أبا حفص عمر بن أبي الحسن ، أذن لفلان المسمّى فيه أدام الله تعالى معاليه ، أن يدرس مذهب الامام المجتهد أبي عبدالله محمد بن إدريس الشافعي ، وأن يقرأ ما شاء من الكتب المصنفه فيه ، وأن يفيد ذلك لطالبيه حيث حل وأقام ، كيفما شاء متى شاء وأين شاء وأن يفتي من قصد إستفتاءه خطاً ولفظاً على مااقتضى مذهبه الشريف المشار إليه ، لعلمه بديانته وأمانته ومعرفته ودرايته ، وأهليته لذلك وكفايته " [1] وقد كتب ابن الملقن نفسه بعد هذه الشهادة : " ما نسب إليَّ في هذه الإجازة المباركة ، من إذن باجازة فلان أدام الله النفع به ، وأجرى كل خير بسببه ، في تدريس مذهب الامام المطلبي محمد بن إدريس الشافعي ... والإفتاء به خطاً ولفظاً ، صحيح ؛ فإنه ممن فاق أقران عصره بذكائه ، وبرع عليهم بالاستحضار وتحرير المنقول ووفائه ... وأجزت له مع ذلك أن يروي عني مالي من التآليف ... وأجزت له مع ذلك ما جاز لي وعني ، بروايته بشرطه عند أهله ،

---

[1] المصدر السابق ج١٤ ، ص٣٢٤-٣٢٥

زاده الله وإياي من فضله "[1] .

وأما النوع الآخر من الإجازات فهو عراضة الكتب ، والعادة الجارية فيها أن بعض الطلبة إذا حفظ كتاباً في الفقه ، أوالنحو ، أوغيرذلك من الفنون ، يعرضها على مشايخ العصر فيقطع الشيخ المعروض عليه ذلك الكتاب ، ويفتح منه أبوابا ومواضع ، يستقرئه إياها من أي مكان اتفق ، فإن مضى فيها من غير توقف ولا تلعثم ، استدلَّ بحفظه تلك المواضع على حفظه جميع الكتاب ، وكتب له بذلك كل من عرض عليه في ورق مربع صغير ، يأتي كل منهم بقدر ماعنده من الملكة في الإنشاء ، وما يناسب ذلك المقام من براعة الاستهلال ونحوها من عالٍ وهابط ، وربما خفف بعضهم فكتب " وكذلك عرض علي فلان " أو " عرض علي وكتبه فلان " إما رياسة وتأبياً عن شغل فكره وكد نفسه فيما يكتبه ، وأما ما عجز عن مضاهاة من يكتب معه[2] ".

وقد مارس القلقشندي هذا النوع من الإجازات ، ومن ذلك إجازة كتبها لمن اسمه " محمد " ولقبه " شمس الدين " من أبناء بعض أصدقائه ويذكر أنه عرض عليه أربعين حديثاً للإمام النووي ، وورقاتٍ في الأصول واللمحة البدرية في النحو للشيخ أثير الدين أبي حيان دفعة واحدة ، ولم يبلغ هذا الفتى العاشرة من العمر .[3]

---

[1] القلقشندي: صبح الأعشى ج١٤ ، ص٣٢٦
[2] المصدر السابق : ج١٤ ، ص٣٢٧
[3] المصدر نفسه : ج١٤ ،ص٣٣١

قدم القلقشندي لإجازة الطفل بهذا التعريف _ وهو على غاية الأهمية_ لأنه يعطينا الثقافة المطلوبة من الطلبة الصغار ،_وهم في العاشرة من العمـر_ ، والمفروض أنه حفظ القرآن الكريم وتلاه كـاملاً ، يضـاف إليـه كتـاب " الأربعين حديثاً " " الورقات " " اللمحة البدرية " ليستكمل بذلك دراسـة الأصول وعلوم اللغه العربيه " [١] .

وقد لاحظ الباحث أن القلقشندي قد طبق ما أشار إليه في تقديمـه لـهذا النوع من الإجازات ، حيث قال : " ويأتي كل منهم بقدر ما عنده من الملكـة في الانشاء ، وما يناسب ذلك المقام من براعة الاستهلال " ، فيدرك الناظر في هذه الإجازة براعة الاستهلال ، إذ استهلها بالحمد ، على نعمة النجابـة التـي امتاز بها تلميذه ، وأنها لم تكن أمراً طارئاً بل هي متوارثة في آبائه ، ثم يعمـد لاستخدام التورية – وهي من الأساليب الفنية التي اشتهرت في ذلك العصر – فيوظفها القلقشندي في التعبير عن مقدرة ذلك الطالب في اتقـان محفوظاتـه " فأدرك العربية في لمحة ، وسمّى بفهمه الثاقب على الأمثال فأمسـى ، وفـهم (الورقات) لديه كالصفحة ، وفرق بكرم بدايته العادة فجاز الأربعين لـدون العشر وأتى على ذلك بما يشهد له بالصحة " [٢] .

---

[١] عمر موسى باشا : تاريخ الأدب العربي (العصر المملوكي) دار الفكر المعاصر بيروت لبنان دار الفكـر دمشـق ط١ ١٩٨٩، ص٥٥٨

[٢] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١٤ ، ص٣٣١

ثم تكون البداية ليذكر أن التلميذ - ويذكر اسمه - قد عرض عليه مواضع من كتاب كذا وكتاب كذا ، ولم يأتِ وصف الكاتب لحفظ الطالب مباشرة بل شبهه " فمر فيها مرور الصبا ، وجرى في ميادينها جري الجواد فما حاد عن سنن الطريق ولا كبا " [١] .

ولعل مجيء هذه الإجازة مجملة النص لحداثة سن التلميذ ، في حين تكون الإجازةُ للفقهاء والعلماء أطول ، ويسهب فيها الاستاذ اسهاباً كبيراً [٢] .

---

[٢] المصدر نفسه : ج١٤ ، ص٣٣١

[٣] عمر موسى باشا : تاريخ الأدب العربي (العصر المملوكي) ، ص٥٥٩

تقريض القصائد

التقاريض نوع من الكتابة ، الذي يعمد فيها إلى المدح والثناء على المصنفات المصنفة والقصائد المنظومة ، " فقد جرت العادة أنه إذا صنفت في فن من الفنون ، أو نظم شاعر قصيدة فأجاد فيها أو نحو ذلك ، أن يكتب له أهل تلك الصناعة على كتابه أوقصيدته بالتقريض أو المدح ، ويأتي كل منهم بما في وسعه من البلاغة في ذلك "[١]

وقد كتب القلقشندي تقريضاً على قصيدة نظمها شرف الدين عيسى بن حجاج العاليه ، في مدح النبي _ صلى الله عليه وسلم _ جاء فيها من أضرب البديع ما يضاهي قصيدة صفي الدين الحلي .

ويلاحظ الباحث أن هذا التقريض قد جاء طويلاً مقارنة بتقاريض أخرى ، كتبها المقر الشهابي بن فضل الله على قصيدة ميمية ، للشيخ غرس الدين خليل الصفدي ، وتقريض للشيخ صلاح الدين الصفدي ، كتبه على مصنف وضعه الشيخ تاج الدين علي بن الدرهم الموصلي [٢] ، و مما يلاحظ على هذا التقريض أيضاً أنه النوع الوحيد من الكتابة الذي أفتتح عند القلقشندي بالبعدية " أما بعد " ثم تلاه بالتحميد لما أنعم الله على الأدباء من بديع خيال ، وذلل لأفكارهم صعاب الألفاظ ، وأوضح لهم سبل الفصاحة فانقادت لهم بيسر . بهذا التمهيد يتقدم الكاتب في تقريضه حتى يصل لقوله : " وقفت على البديعية

---

[١] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١٤ ،ص٣٣٥

[٢] المصدر نفسه : ج١٤ ،ص ٣٣٥-٣٣٦

البديعة التي نظمها الفاضل الأرفع ، أديب الزمان ، وشاعر الأوان شرف الدين أبو الروح عيسى العالية " (١) .

ويتابع مدحه وثناءه على الشاعر والقصيدة ، مستخدماً في ذلك الشعر والنثر بالتناوب وموظفاً ذلك بعض الآيات القرآنية ، وتلحظ المبالغة والتهويل من الكاتب في مدحه لهذه القصيدة حتى جعلها أم القصائد وكعبة القصاد ، ومحط الرحال ومنهل الوراد (٢) .

ويستشف القارىء أنه لايخلو من أسلوب نقدي ، يفصّل فيه الكاتب مواقع القوة في القصيدة فألفاظها كالدر المنثور ، ومعانيها أخجلت الروض الممطور، كما أن وزنها من الدقة يفوق وزن الذهب ، وقوافيها تزكو على غيرها ، ويعلل في بعض المواقع سبب تفضيلها على غيرها من القصائد ، فاطنابها لايعد إطناباً ؛ لفصاحتها ، وايجازها لايعيبها ؛ لأن بلاغتها جعلت من معانيها إطناباً في مواضعها ، ويتنبه الكاتب لما لبراعة الاستهلال من أهمية عند المتلقي ، ويرى أن مطلعها يحث السامع لتتبع ما فيها شغفاً ، ويفطن لأمر اهتم به النقاد ، وهو " حسن التخلص " ؛ اذ أنه وسيلة الانتقال ، وكلما كان سلساً جنّب القصيدة الوقوع في الفواصل التي تضعف النص ، بل جعل أبياتها مسبوكة سبكاً يجعل أبياتها وأفكارها ، يأخذ بعضها برقاب بعض فيصف التخلص فيها : يسرق الأسماع للطافته ، و القلوب لكلفها به ، ولم ينسَ الكاتب

---

(١) المصدر السابق : ج١٤ ، ص٣٣٧

(٢) المصدر السابق نفسه : ج١٤ ، ص٣٣٨

ختام القصيدة ، إن الامور بخواتيمها فيذكر ان حلاوة ختامها يجعل النفوس تذوب عليه أسفاً [١] .

ويجمل الكاتب القول ، ومآثر القصيدة لا تحصى وجمائلها لا تستقصى ، فيقارنها بالنثر ، إذ يرى أن قس بن ساعدة – الخطيب الجاهلي – وكأنه يأخذ الفصاحة منها ، وابن المقفع الذي اشتهر في منهجه بالكتابة يهدي بمنهجها ويروي بلاغتها ، وامرأ القيس يأخذ منها صنعة الشعر ، حتى أن جريراً الشاعر الأموي المشهور ؛ لو قرأها لأعتبر ما نظم من الشعر جريرة اقترفها ، وهكذا يستمر الكاتب في مقارنتها مع شعر فحول الشعراء اظهاراً لعظمتها [٢] .

وربما شعر القلقشندي أنه أطال في هذا التقريض ، فيمهد للخاتمة بقوله : " ولانطيل فمبلغ القول فيها أن آيتها الحكمة الناسخة لما قبلها ، وبرهانها القاطع قاض بأن لاتسمح قديمة أن تنسج على منوالها ولايطمع شاعر أن يسلك سبلها وآيتها الكبرى التي دل فضلها على أن من لم يشهد الفضل جاحد " [٣] .

وثمة سمة اتسمت بها التقاريض ، وهي أن الكتاب عمدوا بجعل فاتحتها شعراً ، إما بيتاً واحداً كما ورد عند القلقشندي أو عدداً من الأبيات ، كما هو

---

(١) المصدر السابق : ج١٤ ص ٣٣٩
(٢) المصدر نفسه : ج١٤ ، ص٣٣٩-٣٤٠
(٣) المصدر نفسه : ج١٤ ، ص ٣٤٠

عند المقر الشهابي ، وكذلك عند صلاح الدين الصفدي في تقريضيهما اللذين سبقت الاشارة لهما .

ولابد من التوقف عند هذا المديح والثناء ، المبالغ فيهما تحرياً لدوافعه ويرى محمد الفقي : أنه كان من السنن المتبعة ، أن يفيض الأدباء في تقريضهم لهذه الآثار الأدبية ، التي هي ثمرات لقرائح الأدباء والعلماء ، وربما دفع إلى رواج هذه التقريضات ، ما يسودهم من الحب والمودة ، وما يجدونه فرصة للتباهي بهذه الفنون البديعية ، التي ملكت عليهم عقولهم حين يقرضون بهذه الأساليب (١) ولعل سراً آخر يدفعهم لمثل هذه المنهجية في الإطالة ، حيناً وفي الاغراق في الأساليب البلاغية والبديعية ، هو رغبة الكاتب في اظهار قدرته البلاغية والانشائة في مثل هذا الضرب من الكتابة .

---

(١) محمد الفقي : الأدب في العصر المملوكي ، الهيئه المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ ص١٢٠

إسجالات العداله

الإسجالات جمع إسجال وهو ما يدون في الكتاب ، ومنه السِّجل : الكتاب يدون فيه ما يراد حفظه (١) ويذكر القلقشندي أنه " جرت العادة أن أبناء العلماء والرؤساء تثبت عدالتهم على الحكام ، ويسجل لهم بذلك ، ويحكم الحاكم بعدالة من تثبت عدالته لديه ،ويشهد عليه بذلك ، ويكتب له بذلك في درج عريض " (٢) .

وقد أورد لنا الكاتب نسخة سجل ، أنشأه على ما كتب لولده نجم الدين أبي الفتح محمد- الذي سبقت ترجمته- عند ثبوت عدالته على الشيخ ولي الدين أحمد بن الإمام زين الدين عبد الرحيم العراقي ، خليفة الحكم العزيز بمصر والقاهرة سنة ثلاث عشرة وثمانمائة للهجرة .

استهل هذا السجل بالتحميد فالتشهد والصلاة على النبي _ عليه السلام _ ، ثم تكون البعدية ليتلوها بالحديث عن أهمية العدالة ، ومنها يستشف صفات من وصف بأنه عدل ، فيجعل العدالة أساس الشريعة ، وأنها الركن الأعظم الذي يقاس به الصواب من الخطأ والحق من الباطل ، فمن لايتصف بها لاتقبل منه شهادة ولا رواية " فقد بنيت الشريعة المطهرة على أركانها ، واعتمد الرواة في صحة الأخبار على أصولها وتعلقت الحكام في قبول الشهادة بأحضانها ، إذ هي الملكة الحاملة على ملازمة التقوى ،

---

(١) ابراهيم مصطفى وآخرون : المعجم الوسيط ، مادة سَجَلَ .
(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٤٦

والحكمة الثانية عن الجماح إلى ارتكاب الكبائر ، والعنان الصارف عن الجموح إلى الإصرار على الصغائر ، والزمام القائد إلى صلاح أعمال الظواهر وسلامة عقائد الضمائر " (١) ، ومن هنا تظهر أهمية العدالة ، والدور الذي تلعبه هذه السجلات في تقديم حامليها على غيرهم في تبوء المراكز الحساسة في الدولة ، كالولاية والقضاة ، كما أنها تكون رادعا عن ارتكاب الكبائر ، وتجنب حاملها تكرار صغائر الذنوب .

كما وتطلعنا الفقرة السابقة من السجل الذي كتبه القلقشندي على سعة ثقافته ، واطلاعه على علم من علوم الشريعة ؛ وهو علم الجرح والتعديل ، ودوره في اختيار من يؤخذ عنهم رواية الحديث الشريف ، ومن تقبل شهادته في قضايا الدين والدنيا .

وينتقل الكاتب بعد ذلك لصاحب الإسجال المكتوب له ، وهنا يبدأ بذكر ألقابه فهو الحسيب ، القاضي الأجل والفقيه الفاضل المشتغل ، سليل العلماء ويأتي على ذكر اسمه واسم ابنه وما يتقلد أبوه من وظائف _ ونعلم أن الكاتب هو والد المكتوب له _فجمع ما يصفه به عن قرب ، إلا أن موضوعيته بوصفه لولده ظاهرة ، فهو من ولد في بيت القلقشندي القاضي الفقيه فكان ميلاده في بيت ديانة وأخذ العلم من أبيه وأصدقائه العلماء ، بالإضافة لما لاح عليه من النجابة وتزين بمحاسن الفضائل ، قبل أن يصل سن التكليف ، فدلت

---

(١) المصدر السابق ، ج ١٤ ، ص ٣٤٧

هذه النشأة على المكانة التي احتلها نجم الدين ابن القلقشندي ، ومن ثم دفعته لكتابة قصة يطلب فيها الإذن بالسماع لبينته ليكتب بذلك إسجال عدالة [١] ، فهذا يدل على أن العدالة كانت تنال بعد كتابة قصة ، يطلب فيها الإذن بتقديم الامتحان ، للحصول على إسجال العدالة .

وهكذا يتدرج الكاتب في خطوات نيل إسجال العدالة ، فينتقل لمتولي هذا الأمر ويسبغ عليه من النعوت والألقاب الشيء الكثير ، ويتلو ذلك بالدعاء حتى يصل لاسمه ، وهو "جلال الدين البلقيني الناظر في أحكام الشريعة في الديار المصرية ، فيشير إلى أبي زرعة أحمد بن أبي الفضل عبد الرحيم ابن بن أبي عبد الله بن الحسين العراقي الشافعي ، للنظر إلى تلك القصة التي رفعت من طالب الإسجال _ على الوجه الشرعي _ ولا يفوت الكاتب أن يذكر من ألقاب هؤلاء ما يستحقونه .

فيستمع أبو زرعة العراقي إلى البينة بتزكية الطالب ، وتقبلها القبول الشرعي حسب ما هو دارج في مثل هذا الموقف ، فيشهد على نفسه من حضر مجلس حكمه وقضائه ، ويثبت تاريخ المجلس ، ويشير إلى أنه ثبت عنده وصح الدين على الوضع المعتبر الشرعي والقانون المحدد المرعي ، بالبينة العادلة المرضية ، التي تثبت بمثلها الحقوق الشرعية ، عدالة القاضي الأجل العدل الرضي ، نجم الدين محمد زاده الله تعالى توفيقاً ، وسهل له إلى الخير

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٤٧

طريقاً ، وما اشتمل عليه من صفاتها ، وتحلى به من أدواتها ، ثبوتاً صحيحاً مستوفي الشرائط محرراً [١] فيحكم بعدالته ، وقبول شهادته ، ويأذن له في تحمل الشهادة وأدائها ، ويدعوه إلى الكتابة فيها والتأليف على شروط أدائها .

ويكون بعد ذلك الوصايا ، التي لا يكاد يخلو منها كتاب ، وتأتي بصيغة الأمر ، موجه على لسان مانح إسجال العدالة لطالبه : " وليحمد الله تعالى على ما منحه من ملابسها الجميلة ، وأناله من الترقي لرتبتها الجليلة ، وليتق الله تعالى في موارده ومصادره ، وليسلك مسالك التقوى في أول أمره وآخره ... " [٢] .

على أن الحاكم هو من يعلم " العلامة " بعد البسملة ، ويضع التاريخ في الوسط والحسبلة في الآخر ، كل ذلك بخطه ، ويشهد عليه فئة من كتاب الحكم وغيره [٣] .

أما الورق الذي يستخدم ؛ فهو فرخ الشامي أو نحو ذلك من الورق البلدي ، ويكتب بقلم الرقاع وأسطره متوالية ، بين كل سطرين تقدير عرض إصبع [٤] .

---

(١) المصدر السابق ، ج ١٤ ، ص ٣٤٩
(٢) المصدر السابق نفسه ، ج ١٤ ، ص ٣٤٩
(٣) المصدر السابق نفسه ؛ ج ١٤ ؛ ص ٣٤٩
(٤) المصدر السابق نفسه ج ١٤ ، ص ٣٤٦

المقامات

جمع مقامة بفتح الميم ، وجاءت في المعجم بمعنى الجماعة من الناس ، والمجلس [١] ومنه أخذ المعنى الاصطلاحي ، فأطلقت على الأحدوثة من الكلام فهي تحكى في جلسة واحدة يحضرها الناس [٢] ، ولم تكن هذه الأحاديث تتجاوز النصح والإرشاد في الدين ، وإذا تجاوزتها فإلى وقائع التاريخ : " كأيام العرب وأخبارهم ، فلم تتميز بقواعد محددة تضبطها من حيث الشكل والمتن " [٣] .

وهكذا مرت المقامة في مراحل النشوء والتطور ، حتى أخذت قالبها الخاص ، وشخصيتها المستقلة بين الأنواع الأدبية المختلفة ، ويذكر القلقشندي أن أول من كتب فيها بديع الزمان الهمذاني (ت ٣٩٨ هـ _ ١٠٠٧ م) ثم تلاه في ذلك أبو عبد الله محمد القاسم بن علي الحريري ، الذي رزق الحظوة التامة في عمل المقامات ، وفضلها أكثر من أن يحصر ومن عرفها حق معرفتها ، استدل بها على فضل هذا الرجل وغزارة مادته وكثرة اطلاعه [٤]

---

(١) المعجم الوسيط ، مادة (قام)

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١١٠

(٣) عبد الله إبراهيم : السردية العربية ، بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي ، مركز الثقافة العربي بيروت ، ط١ ١٩٩٢ ، ص ١٧٥

(٤) عبد الرحيم بن أحمد العباسي (ت ٩٦٣ هـ) معاهد تنصيص على شواهد التلخيص ،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، عالم الكتب ، بيروت ، بلا طبعة ، ١٩٤٧ ، ج ٣ ، ص ٢٧٢ _ ٢٧٣

وبفضل هؤلاء الرواة الأوائل عرفت المقامة كنص أدبي يعتمد السجع والمحسنات البديعية من حيث الشكل وتتخذ بطلاً وراوياً من حيث الإسناد _ وإن حدث بينهما اندماج في العصور اللاحقة _ وأما الموضوعات فقد بقيت في تطور وتغير مستمر ، فلم تعد موضوعاتها تدور على الكدية والاستجداء ، بل وظفت في أغراض شتى فدخلت في خدمة الغزل والمجون ، والموعظة والحكمة والتعليم والوصف والمديح ، وافتن فيها الكتاب فنوناً كثيرة .

وما أن جاء العصر المملوكي ، و قد حفل كتّابه في الصنعة البديعية أيما احتفال ، فقد كان المناخ المناسب ازدهار المقامات وتطور موضوعاتها فكتب جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) مقامته في النحو والفقه والتاريخ ، وكتب صلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤ هـ) مقامتين ، الأولى : " مقامة رشف الرحيق في وصف الحريق " تحدث فيها عن الحريق الذي شب في دمشق وأما الثانية فهي " لوعة الشاكي ودمعة الباكي " ويتحدث فيها عن غرامه لغلام تركي صادفه في رحلة له مع صديق في الرياض ، وكذلك نجد " مقامة العشاق " لشهاب محمود الحلبي ، ومقامات العشاق للشاب الظريف (ت ٦٨٨ هـ) وهنالك أيضاً مقامة الشيخ جمال الدين عمر بن الحسين الرسعني ، " في وقعة حلب مع التتار " وكتب بها عمر بن

الـــوردي (ت ٧٤٩ هـــ) " وقد كتب فيها كثيرون من أشهر الأدباء ، بـــل لا نكاد نجد أديباً كبيراً لم يحاولها أو لم يكن له فيها نصيب " [١] .

وعلى الرغم من هذا الكم في كتابة المقامة والتنوع في موضوعاتـــها ، إلا أن آراء الباحثين المحدثين تكاد تتضارب حول ازدهارها ، وتطورها فـــي العصر المملوكي ، إذ يرى عمر موسى باشا : " أن فن المقامات لم يزدهر في هذا العصر ولم يهتم به أدباؤه ... كما أن قلة النصوص التي وصلتنا عن هـــذا الفن تحول بيننا وبين الحكم عليه حكماً موضوعياً قائماً على البحث والدراسة " [٢] في حين يرى محمد كامل فقي أنه " لم يقصر كتاب هذا العصر في تنـاول المقامة بل كان إليهم أدنى ، ولهم أطوع إذ المقامة فن يعتمد على الصناعـــة ، ويشحد كيانه من البديع وضروبه ، وهم أسرى البديع وأرقاؤه لقد وسع الكتـاب المملوكيون دائرة المقامة ... " [٣] وقريب من ذلك مقولة محمد زغلول ســلام : " وإذا ما تركنا فن الرسائل فإنا نلتقي من فنون النثر بهذا العصر بالمقامـــة . وتلي الرسالة أهمية وشهرة ، بل لعلها تقدمت عليها عنـــد بعــض الأدبـــاء إذ فضلوها لصياغة أعمالهم ، وقد كتب فيها كثيرون من أشهر الأدبـــاء ... " [٤] وقوله : " ومن المقامات ما يتصل بموضوع أو مناسبة ، وقد قـــامت المقامـــة بدور الشعر في العصور السابقة ، واختلف عن دور المقامة في القرنين الرابع

---

[١] محمد زغلول سلام : الأب في العصر المملوكي ، دار المعارف ، مصر ١٩٧١ ، ج ٢ ، ص ١٧
[٢] عمر موسى باشا : أدب الدولة المتتابعة دار الفكر الحديث ، ط ١ ١٩٦٧ ، ص ٨٠٦

[٣] محمد كامل الفقي : الأدب في العصر المملوكي ، ص ١١٧
[٤] محمد زغلول سلام : الأدب في العصر المملوكي ، ج ٢ ، ص ١٧

والخامس وبهذا شاركت المقامة في الأحداث الجارية ، وكانت شكلاً من أشكال التعبير عنها ، ولم تقتصر على المتعة الذهنية بين الخاصة أو التملح والتفكه ، أو إبداء المقدرة " (١) .

ومما سبق فإن الباحث يرى أن المقامة قد قامت بالدور الذي أسند إليها في العصر المملوكي ، فجاءت معبرة أكثر من أي عصر مضى ؛ عن الحياة الاجتماعية التي عاشها الناس في هذا العصر فهي تروي أحداثه ، وتصور اهتمامات أهله المتنوعة وأخلاقهم المتباينة ، وطرائقهم المختلفة في تناول سبل الحياة .

ومن تجديدهم المجيء باسم الراوي بما يشي بالمناسبة التي كتبت بها المقامة أو الموضوع الذي تتحدث عنه ، فصلاح الدين الصفدي يختار لمقامته " رشف الرحيق في وصف الحريق " راوياً يحمل اسماً يناسب هذه الحادثة فيسميه " شعلة بن أبي لهب عن أبي زناد شهاب " ولا يخفى ما لهذه الأسماء من علاقة بالحرق ، فهي إما من مسمياته أو أدواته ، وكذلك في مقامة ابن الوردي " صفو الرحيق في وصف الحريق " إذ يستهلها بقوله : " حديث غيلث بن سحاب عن ندى بن بحر " وغير خافٍ تمام المناسبة بين الحريق والماء الذي أشار إليه بهذه الأسماء ، إذ الحريق يستدعي الماء وهو عدة إطفائه (٢) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢١

(٢) محمد على الفقي : الأدب في العصر المملوكي ، ص ١١٨

وقد ساهم القلقشندي في هذا النوع الأدبي الذي شاع في عصره ، فكتب في مقامته التي وسمها بـ " الكواكب الدرية في المناقب البدرية " [١] وتناول فيها موضوعين الأول : المديح ، وفي ذلك يقول : " ووجهت القول فيها لتقريض المقر البدري بن المقر العلائي بن المقر المحيوي بن فضل الله، صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية يوم إذ " [٢] أما الموضوع الثاني الذي طرحه القلقشندي ، فهو فضل الكتابة ومدلولها وتفضيل كتابة الإنشاء على باقي أنواع الكتابة ، وصفات الكتّاب وآدابهم . ويشير لذلك في مقدمة كتابه صبح الأعشى إذ يقول : " أنشأت مقامة بنيتها على أنه لا بد للإنسان من حرفة يتعلق بها ، ومعيشة يتمسك بسببها ، وأن الكتابة هي الصناعة التي لا يليق بطالب العلم من المكاسب سواها ... وجنحت فيها إلى تفضيل كتابة الإنشاء وترجيحها وتقديمها على كتابة الأموال وترشيحها ، ونبهت فيها على ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد وما ينبغي أن يسلكه من الجواد ... " [٣] .

ويلحظ الباحث أن القلقشندي وشى بهذين الموضوعين الأول من خلال عنونته للمقامة ، " فأسماها بالكواكب الدّرية في المناقب البدرية " ، والموضوع الثاني باختياره اسم الراوي الناثر بن النظّام ، ولا تخفى علاقة هذا الاسم

---

(١) القلقشندي صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١١٠
(٢) المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ١١١
(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٩

بالكتابة فقد حمل شقيها النثر والنظم ، على أن هذا من التجديد الذي ألم بـــهذا الفن في عصر القلقشندي وقد أشرنا إليه .

ونالت هذه المقامة استحسان الباحثين المحدثين ، كقــول محمــود رزق سلام : " ومقامته تلك واسمها الكواكب الدرية في المناقب البدريـــة ، عظيمــة القيمة ، لا لأسلوبها وما به من طرف الفن البديعي فحسب ، ولكن أيضا لمـــا تضمنته من معان متجددة وأفكار جيده ، ولأنه أرخ بها لأصول صناعة الكتابة ، وما ينبغي لكاتب الإنشاء أن يتحلى به من ضروب المعرفة إلى غير ذلـــك ، فهي مقامة تعليمية تهذيبية " [١] أما مصطفى الشكعة فيعتبرهـــا : " صــورة جلية صادقة للأدب العربي إنشاء وفكرا وصناعة في فترة من فـــترات حقبـــه المتطاولة ، وهي الفترة التي عاش فيها القلقشندي ... " [٢] وفي موقع آخــــر يصفها بقوله : " على أن هذه المقامة المغمورة تعتبر في رأينا عملا أدبيا كبيرا وجهدا ثقافيا مرموقا تنبئ عن أعماق أدبية ثرية فـــي نفـــس القلقشـــندي " [٣] ويصنف محمد الفقي ، كاتب هذه المقامة بين أشهر كتاب المقامة في العصـر المملوكي [٤] .

---

(١) محمد رزق سلام : عصر السلاطين المماليك ، ج ، ص ٤١٣

(٢) مصطفى الشكعة : أبو العباس القلقشندي ، وكتابه صبح الأعشى تأليف نخبة من الأساتذة _ الجانب الأدبـــي فـــي صبـــح الأعشى بقلم مصطفى الشكعة الهيئة المصرية العامة للكتاب _ القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٢٣٥ _ ٢٣٦

(٣) المرجع نفسه ، ص ٢٤١

(٤) محمد الفقي : الأدب في العصر المملوكي ، ١١٩ _ ١٢٠

ويعتمد القلقشندي في مقامته الحكاية البسيطة في حبكتها، والحوار الذي نكاد نفقده بين الشرح المطول، والوصف الذي يطنب فيه الكاتب، بين كل حوارين حتى يعود للقول : " قال " أو " قلت " كما أنها تكاد تخلو من الخيال .

ويرى الباحث أن الكاتب يوفق في استهلاله لمقامته من جهتين الأول،: في حسن اختيار اسم الراوي، لموافقته الموضوع الأول في المقامة _ الكتابة_إذ أسماه " الناثر بن النظام " ومن جهة أخرى، جعله يستخدم ضمير المتكلم مما يدل على أنه شاهد أحداث المقامة، بل هو بطلها الذي شارك في هذه الأحداث، كما أن عبارة الاستهلال لم تخرج عن تلك العبارات المعهودة في استهلال المقامات منذ بدايتها كقوله :" حدثنا عيسى بن هشام "... "روى الحارث بن همام" "حكى القاسم بن جريال" وعند القلقشندي" حكى الناثر بن النظام" فهذه الأفعال تفيد معنى متقارب في الحكاية والحديث والرواية .

وتنتمي هذه الصيغ الاستهلالية للماضي ، هادفة لكشف واقعة حصلت في الماضي [١]، ويتابع الراوي الحديث مهيئاً الجو المناسب لاستقبال الأحداث، ولفتح أفق التوقع عند المتلقي ، فيكون حديثه عن نفسه كبطل للقصة، فيسرد ما ألم به من حب للعلم وما أنفق في سبيل ذلك من جهد ومال، مستخدماً في ذلك جملاً مسجعة ، تتباين بين الطول والقصر : " لم أزل من قبل أن يبلغ بريد عمري مركز التكليف ، ويتفرق جمع خاطري بالكلف بعد التأليف ،

---

(١) عبد الله إبراهيم : السردية العربية ، ص ١٩٤

انصب لاقتناص العلم أشراك التحصيل ، ...واغتنم الصحة قبل تجافيها ، قد حالف جفني السهاد وخالف طيب الرقاد ... و أنس من شوارد العقول وحشيها ، وأشرد عن روابض المنقول حوشيها ، والتقط ضالة الحكمة حيث وجدتها ، وأقيد نادرة العلم حيث أصبتها ، مقدماً من العلوم أشرفها ، ومؤثراً من الفنون ألطفها ، معتمداً من ذلك ما تألفه النفس ويقبله الطبع مقبلاً منه على ما يستجلي حسنه النظر ويستحلي ذكره السمع " (١) .

ويجد الباحث في هذه المقدمة إضافة ، للتمهيد سبيلاً للولوج في قصة المقامة فائدة أخرى ، حيث يستطيع الدارس أن يتتبع منهج " الناثر بن النظلم " الممثل لدور القلقشندي نفسه ، فيتعرف على منهجه في تلقي علومه وطريقته في اختيار العلوم ، التي يراها لائقة بطالب العلم تعلمها ، فهو يختار من الحكمة ضالتها ومن العلوم أشرفها ، ومن الفنون ألطفها ، مقياسه في ذلك ما تألفه النفس ويقره الطبع ، ويرتاح له السمع ويكتشف حسنه النظر ، ويتنبه القلقشندي لما لظرفي الزمان والمكان من أهمية في بنية العملية التعليمية ، فيتخير لهما أليق الأماكن ومن الزمان أوفقها .

ويبقى العنصر الرئيس في هذه العملية ، فالتعليم لا يتم دون مصادر يستقي منها الطالب علمه ، ولا يفوت القلقشندي ذلك ، فمصادره متنوعة متوزعة بين الشيوخ والكتب والدفاتر ، وهذه المصادر لها مواصفات خاصة

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١١٢

تمتاز بها ، على غيرها من المصادر فيتخير منها ؛ " منتقياً من الكتب أمتعها تصنيفاً وأتمها تحريراً وأحسنها تأليفاً ، منتخباً من الأشياخ الإفادة أوسعهم علماً وأكثرهم تحقيقاً ومن أقران المذاكرة أروضهم بحثاً وألطفهم تدقيقاً عارفاً لكل عالم حقه ، وموفياً لكل علم مستحقه " (١) ، فهو لا يكل ولا يمل في سبيل جمع العلم وتحصيله ، " وأشن غارات المطالعة على كتائب الكتب فأرجع بالغنيمة ، وأهجم على حصون الدفاتر ثم لا أولي عن هزيمة بل كلما لاحت لي فئة من البحث تحيزت إليها ، أو ظهرت لي كتيبة من المعاني حملت عليها " (٢) .

وعلى نهج المقامات فهي لا بد وأن تحمل في طيها " المفاجئ " ، فيرى الباحث أن القلقشندي يصطنع المفاجأة اصطناعاً ، إذ إن سن التكليف ، لا يفاجئ الإنسان ، وإنما هي سن يتدرج الإنسان في سنوات عمره حتى يصلها ، ولعل الكاتب أراد إظهار مدى انشغاله في العلم ، وانغماسه في البحث فيه ، ليصحو على أجراس هذا السن وقد غشيه ، فيقع البطل في حيرة الاختيار بين العلم وطلب الرزق ، ولما لم يجد للسبيل استقامة لأحدهما دون الآخر ، أخذ يحث على الجمع بينهما ، فيحاول إيجاد مهنة يقتات بها دون تركه للعلم والتعلم . وفي خضم هذا البحث يلتقي بأحدهم ، وربما جازت تسميته " بالراوي المساعد " الذي سمح له الراوي البطل المعروف لدينا " بالناثر بن النظام "

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٤ ، ص ١١٢
(٢) المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ١١٢ _ ١١٣

تقديم جزء من المقامة ، بلغته كعارف بالأحداث يستخدم في ذلك ضمير المتكلم كالراوي الأول .

ويتوقف الباحث أمام طريقة التعرف بين الراوي والرجل الذي صادفه ، وهي كما وصفه في المقامات تبدأ بالسمع قبل البصر : " إذ رفع صوت قرع سمعي برنته ، وأخذ قلبي بحنته ، فقفوت أثره متبعاً وملت إليه مستمعاً ، فإذا رجل من أحسن الناس شكلاً ، وأرجحهم عقلا ، وهو يترنم وينشد " (١) ، فينشد هذا الرجل الأبيات التي يصف بها الكتاب ، فيعجب بهم " الناثر بن النظام " ، ويمتدح هذه الصفات وكأنه وجد ضالته في مهنتهم ، فالكتابة هي المهنة التي تجمع بين العلم وطلب الرزق ، فيعود الرجل لمدحه للكتاب والكتابة ، ويحشد في سبيل ذلك ما يلائمه من الآيات القرآنية ويظهر من أسباب منع الرسول _ عليه السلام _ من الكتابة ، ويظهر من مرتبة الكتابة ومكانة الكتاب " فالكتابة قانون السياسة ورتبتها غاية رتب الرياسة عندها تقف الإنافة ، وإليها تنتهي مناصب الدنيا بعد الخلافة والكتّاب عيون الملوك المبصرة ،وآذانهم الواعية وألسنتهم الناطقة وعقولهم الحاوية بل محض الحق الذي تدخله الشكوك ، وإن الملوك إلى الكتّاب أحوج من الكتّاب إلى الملوك وناهيك بالكتابة شرفا وأعلى بذلك رتبة وكفى أن صاحب السيف والقلم يزاحم

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١١٣

الكتّاب في قلمه ولا يزاحم الكتّاب صاحب السيف والقلم في سيفه وعلمه " [١]

ويبلغ إعجاب الناثر بن النظام غايته ، فيطلب إلى الرجل أن يدله على هـؤلاء القوم ، لعله ينتسب إليهم ليجتمع بالعلم شملي ، ويتصل بالاشتغال حبلي فـأكون قد ظفرت بمنيتي وفزت ببغيتي [٢] .

ولكنه يقع في حيرة بين أنواع الكتابة ، فيسأل الرجل أي أنواع الكتابـة قصد ؟ فيجيبه بما يفهم منه أن كتابة الإنشاء هي المقصودة ، ولكن القلقشـندي يعمد إلى إدارة الحوار بينهما ، حول أيتهما أهم كتابة الإنشاء أم كتابة الأمـوال ؟ مضمناً لذلك من مقامات الحريري ، ويكون الرد أيضاً من مقامات الحريري ؛ وبذا تقر عين الناثر بن النظام لمكانة كتابة الإنشاء وعلو رتبة كتابها ، فيسأل الرجل عما يحتاجه كاتب الإنشاء فيجيبه الرجل قائلاً : " أعلم أن كاتب الإنشاء لا تظهر فصاحته وتبين بلاغته ، وتقـوى يراعته ، وتجل براعته إلا بتحصيل ، ومعرفة الاصطلاح والإحاطة بالرسوم " [٣] .

ويجد الباحث القلقشندي ، وقد رتب العلوم المختلفة مراتب حسب حاجـة كاتب الإنشاء لها ، فيجعل حفظ القرآن الكريم أولى هذه العلوم " فـهو معـدن الفصاحة ، وعنصر البلاغة ، وإدامة قراءته وتكرير مثانيه ، مع العلم بتفسيره وتدبر معانيه ... ليكون مستحضراً له في الوقائع التي يحتاج إلى الاستشهاد بها

---

(٣) المصدر السابق نفسه ، ج ١٤ ، ص ١١٥

(٢) المصدر السابق نفسه ، ج ١٤ ، ص ١١٥
(٣) المصدر السابق نفسه ، ج ١٤ ، ص ١١٨

، ويضطر إلى إقامة الأدلة القاطعة عليها، فلله الحجة البالغة ولآياته الأجوبة الدامغة " (١) ثم يأتي بعد ذلك مرتبة ، كلام النبي _ عليه الصلاة والسلام _ ، مع النظر في معانيها ومعرفة غريبها ، ومطالعة ما للعلماء في ذلك من آراء وأقوال ، فإنها النصوص التي تستند إليها الأدلة ، ويرتب بعد ذلك العلم بالأحكام السلطانية ، والتعرف لأشعار العرب القديم والمولد منه ، ومعرفة الأمثال نظمها ونثرها ، ومعرفة المحاورات والمناقضات وكذلك مطالعة خطب البلغاء ورسائل الفصحاء ، والعلم بأيام العرب ، ووقائعهم والنظر في أخبار وتاريخ الدول الماضية ، مع المعرفة في سير الملوك وأحوال الممالك ، أما اللغة فيعتبرها القلقشندي رأس مال الكاتب إذ أن النحو ملح الطعام ، وبالتصريف تعرف أبنية الكلام وعلوم المعاني ، والبديع والبيان هي حلية للسان الكاتب ، ويؤكد على العلم بالخط وآلات الكتابة وأنواعها (٢) .

وبالرغم من ترتيب هذه العلوم في درجات ، إلا أنها لا تأتي في المرتبة الأولى فهي : " أصوله التي يبنى عليها ، وقواعده التي يرجع إليها فإذا أحاط بهذه الفنون علماً وأتقنها فهماً غزرت عنده المواد واتضحت له الجواد ، فأخذ في الاستعداد وسهل عليه الاستشهاد " (٣) ، وعلى العكس من ذلك " فمتى

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ج ١٤ ، ص ١١٨

(٢) المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ١١٨ _ ١٢٠

(٣) المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ١٢٠

أخل بشيء من ذلك فاتته الفضائل وقلت بضاعته ، ونقصت صناعته وساءت آثاره وقيّمت أخباره ... " [١] .

ثم يذكر له علوماً أخرى تأتي بالمرتبة الثانية ، بل هي كالنافلة للكاتب يستزيد منها ما يشاء ، منها : علم الكلام والمنطق والجدل وأحوال الفرق والنحل ، وأصول الفقه وعلم العروض وعلم والقوافي ، وعلم الفلاحة و المساحة ومراكز الأثقال ، والمرايا المحرقة والأرصاد والفلك والنجوم ، وعلم الطب والبيطرة والبيزرة ؛ وهذه العلوم تساعد الكاتب على إكمال صناعته وزيادة مهارته فيها ، ولكنْ ثمة علوم ، ذات علاقة بالكاتب نفسه ، وهي في المرتبة الثالثة : مثل علم التعبير وعلم الأخلاق وعلم السياسة ، وتدبير المنزل والفراسة ، ويرى أنه وإن استغنى الكاتب عن هذه العلوم ، بعض وقته إلا أنه يأتي عليه وقت ، لا يجد لنفسه عذراً في الجهل بها ، حتى أنه يتمنى لو أنها تشترى فيشتريها [٢] .

وينتقل بالسؤال عن رسوم هذه العلوم فيذكر منها الشيء الكثير ، حتى ليكاد يحصيها ويبدأ بالولايات وما يتصل بها من عهود وتقاليد ، وتفاويض والمراسيم والتواقيع والخطب ، والوصايا والمناشير والمربعات الجيشية ، كما يرى أنه يترتب عليه معرفة رتب المكاتبات ، ودرجاتها تلك الصادرة عن الأموال السلطانية والواردة عليها ، وغير ذلك من أضرب المكاتبات ، وما

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ج ١٤ ، ص ١٢١
(٢) المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ١٢٠

يلزمها من طرة وطغراء (*) وعنوان وتأليف ، وعلامة توضع على أماكن خاصة في الكتب ليعرف منها مقدار المكاتبة والمكتوب له ، وكذلك ترتيب الكتاب وطيه وختمه ، وأساليب إخفاء الكتابة أو تعمية ما فيها باستخدام الرموز الخاصة ، وكذلك الأمانات والدفن والمفاسخات ، وما يتوجب على الكاتب معرفته من أنواع الورق ، وما يناسب كل مكاتبة وما يناسبها من الأقلام ، كذلك معرفة مراكز البريد وأبراج الحمام ، ومراكب هجن الثلج والمحرقات والمناور (١) .

ويلحظ الباحث تركيز القلقشندي على الخط وترجيعه في ذلك ، حتى ليجعله واسطة عقد الكتابة ويرى أن خيره ما قرىء ، ويتطرق للسجع والازدواج ويرى أنهما ملاك الحل والعقد في الكتابة ، وأن خير السجع ما جاء على الطبع بعيداً عن التكلف(٢) .

---

* الطغراء: وصل يوضع في مناشير الكبار كمقدمي الألوف والألقاب السلطانية ويأتي بين الطرة والبسملة أنظر القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ، ١٦٢ _ ١٦٦ ، ابن فضل الله العمري : التعريف ، ١١٨

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١٢٢ _ ١٢٣
(٢) المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ١٢٤

وينتقل لمحور آخر في المقامة ، ليعمل فيه على المدح والتقريض لصاحب الديوان بدر الدين بن فضل الله ، فكال له المدح حتى ليجعل بيت الكتابة قاصراً على " آل فضل الله " ويجعل بيتها أشهر من معلقة إمرئ القيس " قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل ... " ويجعل بدر الدين قطبها الذي عليه تدور ، ثم يذكر عدداً من شيوخ الكتابة ويرى أنهم لو عاصروه ؛ لأقـرّوا له بالفضل والتقدم عليهم ، فبعد هذه الأوصاف يطلب الناثر بن النظّام من الرجل أن يدله عليه بعد أن عرفه ، فيقرب له الوصف : "إنه صفي الملك ونجيّه ، وكاتب سره ووليه ، والقريب منه إذا بعدوا ، والمخصوص بالمقام إذا طردوا ، والموجه إليه بالخطاب إذا حضروا ، والمستأثر بالورود إذا صدروا ... " [1] . وهنا يعرفه الناثر بن النظّام حق المعرفة ، ويأخذ في مدحه ويلتقيه فيُخَيَّر بين كتاب الدست وكتاب الدرج ، فيختار القسم الثاني بموافقته لخاطره ؛ إذ هو باحث عن الكتابة وصناعتها ، وليس بالمركز والمكانة في الديوان فهو عصامي في هذا المجال وليس عظامياً ورثها عمن سبقه من آبائه . وبهذا فإنه : " يخيل لنا أنه أراد في هذه الفرصة السانحة أن يبرز للناس ، ولصاحب الديوان مقدار علمه هو ، وإحاطته بما ينبغي لصاحب هذه الصناعة من ضروب المعرفة الشاملة الكاملة ؛ والنتيجة المنطقية لهذا أنه يتحلى بكل هذه الضروب، وأن له فيها القدم الراسخة الثابتة ، وتكون هذه المقامة بمثابة "

---

(١) المصدر السابق ، ج ١٤ ، ص ١٢٥

عرض حال " يثبت فيه لصاحب الديوان كفايته ، ومؤهلاته التي تخول له الولوج من باب الديوان ، والقعود بين جلة كتابه " [١] ، وأشار القلقشندي بهذه المقامة في مقدمة كتابه " صبح الأعشى في كتابة الإنشا " ، وبين أنها كانت الأساس الذي دفعه لتأليف كتابه المذكور ، فيقول مشيراً للمقامة : " إلا أنها قد وقعت موقع الوحي والإشارة ، ومالت إلى الإيجاز فاكتفت بالتلويح عن واسع العبارة فعزّ بذلك مطلبها . وفات على المجتني ببعد التناول أطيبها فأشار من رأيه مقرون بالصواب ومشورته عرية عن الارتياب ، أن اتبعها بمصنف مبسوط ، يشمل على أصولها وقواعدها . ويتكفل بحل رموزها وذكر شواهدها ليكون كالشرح عليها ، والبيان لما أجملته والتتمة لما لم يسبقه الفكر إليها ......" [٢] ومن هنا يرى الباحث أنه يمكن اعتبار هذه المقامة البنية الأولى في معظم مؤلفات الكاتب ، إذ أنها كما أشرنا كانت الأساس والقاعدة التي بنى عليها كتابه صبح الأعشى ثم تلاه بكتاب مختصر له وسمه " بضوء الصبح المسفر وجني الدوح المثمر " حيث أحدث كتاب صبح الأعشى ضجة في عصره ، بين أوساط المفكرين فملأ الدنيا وشغل طلبة العلم ، وقد طلبوا منه اختصاره ليستفيد منه العامة ، كما استفاد منه الخاصة من المنشئين ، والموقعين في دواوين الإنشاء ، وهذا الاختصار سنة معروفة وأسلوب متبع

---

[١] محمود رزق سليم : عصر السلاطين المماليك ج ٥ ، ص ٤١٥ .

[٢] القلقشندي : صبح الأعشى ج١ ص٩

في هذا العصر " [١] ولعله ارتأى أن يتوسع في بعض جوانب صبح الأعشى الذي جاء مختصراً فألف كتابه " نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب " سنة (٨١٦ هـ) وتبعه " بقلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان " سنة (٨١٩ هـ) و " مآثر الإنافة في مسائل الخلافة " سنة (٨١٩ هـ) ،فمعرفة ذلك من لوازم الكتابة ، و هذا ما يظهر للدارس أهمية هذه المقامة في البنية الأدبية لأعمال القلقشندي .

ولمّا كانت هذه المقامة الوحيدة في أدب القلقشندي ، أنشأها في أجلِّ المواضيع لديه ، فقد حشد لها كل ما لديه من فنون الإنشاء ؛ يصبه فيها،من توظيف للموروث كتوظيفه لقصة " ابن عباس " وسكوته في خلافة عمر بن الخطّاب _ رضي الله عنه _ [٢] ومن ذلك أيضاً توظيفه لأسماء الشخوص ، لما تحمل من دلالات ، أفاد منها في رفع قدر ممدوحه مثل ذكره " الفاضل عبد الرحيم " [٣] " وقدامة " [٤] ، " والصابئ " [٥] ، " وابن العديم " [٦] ، " وابن مقلة " [٧] ، " وابن هلال " [٨] ، ومن توظيفه كذلك توظيف أسماء الأماكن ، كجبال النبك [٩] ، وله تناصات كثيرة مع القرآن الكريم ، منها ما

---

[١] عمر موسى باشا : تاريخ الدب العربي العصر المملوكي ص ٥٥١

[٢] أنظر القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٤ ، ص ١٢٦!

[٣] هو القاضي الفاضل عبد الرحيم بيساني أحد أئمة الكتابة والإنشاء (ت ٥٩٦ هـ)

[٤] قدامة بن جعفر : أحد الكتاب البلغاء الفصحاء المتقدمين في علم المنطق والفلسفة يضرب به المثل في البلاغة (ت ٣٣٧ هـ)

[٥] أبو اسحق الصابئ : أحد أئمة الإنشاء والترسل (ت ٣٨٤ هـ)

[٦] محمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله المعروف بن أبي جرادة كان من النساخ الفضلاء (ت ٦٢٨ هـ)

[٧] محمد بن علي : وزير من الشعراء الأدباء يضرب بخطه المثل (ت ٣٢٨ هـ)

[٨] هو نفسه ابن ا لبواب علي بن هلال كان خطاطا مشهورا هذّبطريقة ابن ملقة وكساها رونقاً (ت ٤٢٣ هـ)

[٩] جبال مرتفعة ظاهرة للعيان تقع بين حمص ودمشق .

جاء اقتباسه كما في قوله تعالى : ﴿ إقرأ وربك الأكرم الذي علم بـــالقلم علّـــم الإنسان ما لم يعلم ﴾ [١] ، وقوله : ﴿ ن ، والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ [٢] ، وقوله تعالى : ﴿ وإنّ عليكم لحافظين كراماً كـاتبين﴾ [٣] صدق الله العظيم ، ومنها ما جاء بطريقة التضمين كقوله : " وإنها لكبـــيرة إلا ، ولكن سأحدث لك مما سألت ذكرى ، وأنبئك بما لم تحط به خـــبرا " [٤] ففي قوله : وإنها لكبيرة إلا تناص مع قوله تعـــالى :﴿ واســتعينوا بـــالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ [٥] وفي قوله : " ولكن سأحدث لك مما سألت ذكرى " تناص مع قوله تعالى :﴿ قال فإن تبعتني فلا تسألني عـــن شيء حتى أحدث لك منه ذكرى﴾ [٦] وأما قوله : " وأنبئك بما لم تحـــط بـــه خبرا " تناص مع قوله تعالى : ﴿ وكيف تصبر على ما لـــم تحط بـــه خبـــرا ﴾ [٧] ، وهنالك تناصات كثيرة مع الشعر من ذلك ، إيراد أبيات لأبـــي تمـــام حبيب بن أوس الطائي : -

ولضربة من كاتب ببنانه　　　أمضى وأقطع من رقيق حسام

قوم إذا عزموا عداوة حاسد　　　سفكوا الدماء بأسنة الأقلام

---

[١] سورة العلق : الآية ٣ _ ٥
[٢] سورة القلم : الآية ١ _ ٢
[٣] سورة الانفطار : آية ١٠-١١
[٤] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١٢١
[٥] القرآن الكريم : سورة البقرة ، آية ٤٥
[٦] سورة الكهف : آية ٧٠
[٧] سورة ا لكهف : آية ٦٨

وثمة تناصات مع الأمثال كقوله " والمنشئ جهينة الأخبار " وهو من المثل القائل : " وعند جهينة الخبر اليقين " [١] كما ويجد الدارس أنه وظف شيئاً من المقامات فأفاد من " المقامة الفراتية " للحريري .

ولا شك أن القلقشندي أعطى للسجع أهمية خاصة ، وقد تناوبت سجعاته بين السجعات القصيرة كقوله : " إن لها للقدح المعلى ، والجيد المحلى ، والذروة المنيفة ، والرتبة الشريفة ، كتابه أس الملك وعماده ، وأركان الملك وأطواده " [٢] وهنالك السجعات الطويلة كقوله : " أمَرِّنُ النفس على الاشتغال كي لا تمل فتنعز عن الطلب وتجمح ، مميلاً جانبي قصدها عن ركوب الأهواء والميل إليها متخيراً أليق الأماكن وأوفق الأوقات ، قانعاً بأدنى العيش راضياً بأيسر الأقوات " [٣] .

ويبرز الاهتمام بالجانب البديعي في المقامة ، ولا غرو في ذلك إذ أنه من الأركان التي بنيت عليها المقامات في الأساس . فمن ذلك الجناس ووروده

---

(١) الميداني : مجمع الأمثال ، ج ٢ ، ص ٣ ، وانظر العسكري جمهرة الأمثال ، ج ٢ ، ص ٤٤
(٢) القلقشندي صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١١٦
(٣) المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ١١٢

في المقامة كثير كقوله : " تكليف وتـأليف ، أشـراك وإشـراك ، والأوقـات والأقوات ، ووحشي وحوشي ، ويستجلي ويستحلي ، وشقيق وشفيق " ، وكذلك يستخدم العكس كقوله : " هـذه صفات الملوك بل ملوك الصفـات ، وأكـرم الفضائل بل أفضل المكرمات " [١] .

ومن مجازاته التي وردت كقوله : " يبلغ بريد عمري مركز التكليـف ، وأنزه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل " [٢] .

وفي أثناء ذلك يوشي كلامه بالتورية إذ يقول : " أنزه توحيد الاشـتغال عن إشراك التعطيل " والتعطيل رفض التوحيد والشريعة ، وهو المعنى القريب لسبق التعطيل بالإشراك والتوحيد ، وهو لا يريده ، وإنما يريد التعطيـل عـن الاشتغال بالعلم والانصراف عنه ، وبالمثل لا يريد بالإشراك ، الكفرَ الذي قـد يظهر من اقترانه بالتعطيل إنما يريد الشركة أو المشاركة ، وأيضـاً لا يريـد بالتوحيد توحيد الله ، لاقترانه بالتنزيه وإنما يريد الوحدة والتعبير لذلك كله ملئ بتوريات متعاقبة ، وبالمثل قوله في نهاية كلامه : " الفتح " وقد تلاه بالغنيمـة والقسمة مورياً بذلك عن الفتح العلمي ، لا كما يظن من السياق الفتح الحربي ، وبالمثل كلمة " القسمة " ، فهو لا يريد بها المعنى القريب الملائم للغنيمة ، وهو

---

(١) المصدر السابق ، ج ١٤ ، ص ١١٤

(٢) المصدر نفسه ، ج ١٤ ن ص ١١٢

القسمة في الحرب ، وإنما يريد بها المعنى البعيد ، وهو : الحظ من قولهم قسمة ونصيب " [1] .

على أن القلقشندي أحدث تغييراً آخر في المقامة ، وفي الخاتمة على وجه الخصوص ؛ حيث كانت تختم المقامات بأبيات من الشعر ، في حين اختار القلقشندي لمقامته آية من القرآن الكريم تناسب موضوع المقامة ، وتكون خاتمة لها . مما يجعل الباحث يعتقد أن القلقشندي ، استطاع توظيف هذا الضرب من فنون الأدب ، ليناسب عصره في الشكل والمضمون ، فلا يخفى على الدارس طغيان النزعة الدينية على مناحي الحياة كافة ، في العصر المملوكي ولعل ذلك كان وراء اختيار القلقشندي لهذه الخاتمة لمقامته ، وتجنبه الخاتمة الشعرية .

---

[1] شوقي ضيف : عصر الدولة والإمارات (مصر والشام) دار المعارف القاهرة مصر ١٩٨٤ ، ص ٤٥٣

الفصل الثالث

الدراسة الفنية لأدب أبي العباس القلقشندي

يحاول الباحث في هذا الفصل ، دراسة أدب القلقشندي دراسة فنية ، بعد أن رس مضامينه في الفصل السابق ، وقد جاءت الدراسة الفنية في بعض جوانبها مفيدة من المناهج الحديثة في دراسة التناص ، بأشكاله المختلفة : الديني الأدبي والتاريخي ، ولما كانت الفنون البديعية من أشهر المياسم التي وسم بها ب هذا العصر فقد طرقها الباحث في أدب الكاتب كما ودرس لغته وأسلوبه ، الخيال والصورة في إبداعه .

تناص :

لقد تعرض هذا المصطلح النقدي في تعريفه لكثير من الاجترار منذ أن طلقت الباحثة جوليا كرستيفا تعريفها الأول له سنة ١٩٦٦ م بقولها : " هو النقل عبيرات سابقة أو متزامنة وهو (اقتطاع) أو (تحويل) وهو عيّنة تركيبية جمع تنظيم نصي معطي التعبير المتضمن فيها أو الذي يحيل إليه "[١] أو جملة المعارف التي تجعل من الممكن للنصوص أن تكون ذات معنى ، وما أن كر في معنى النص ، باعتباره معتمداً على النصوص التي استوعبها وتمثلها ، إننا نستبدل بمفهوم تفاعل الذوات مفهوم التناص "[٢] وجاء رولان بارت في

---

[١] أحمد الزعبي : التناص نظريا وتطبيقيا ، اربد ، مكتبة الكتاني ، ط ١ ١٩٩٠ م ، ص ٩

[٢] صبري حافظ : أفق الخطاب النقدي ، دار شرقيات للنشر والتوزيع ، باب لوق القاهرة ط ١ ١٩٩٦ م ، ص ٥٩

كتابـه (من العمل إلى النص) حيث اعتبر كل نص هو " نسيج من الاقتباسات والمرجعيات والأصداء " [١] ومن ثم يأتي مارك أنجينو ليقول : " إن كل نص يتعايش بطريقة من الطرق مع نصوص أخرى ، وبذا يصبح نصا في نص ، تناصا .. " [٢] أما (هارولد بلوم) فيذهب إلى أبعد من ذلك ، إذ " لا يفترض أن علاقات أي نص هي علاقات تناصية بالدرجة الأولى فحسب ، ولكنه يتصور أن علاقة النص بالنصوص الأخرى ذات طبيعة أوديبية ، وأنها في أعماق الأعماق من علاقته بهذه النصوص جميعا ، علاقة أوديبية أساسية بنص رئيس ، هو بمثابة الأب له ، نص يريد أن يدمره وأن يحتل مكانه " [٣] أما من النقاد العرب فقد عرّفه محمد مفتاح بأنه : " تعالق " الدخول في علاقة " نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة " [٤] وكذلك أحمد الزعبي ، الذي جاء بتعريف مبسط ، يرى فيه أن التناص : " يعني أن يتضمن نص أدبي ما ، نصوصا أو أفكارا أخرى ، سابقة عليه عن طريق الاقتباس ، أو التضمين أو التلويح أو الإشارة ، أو ما شابه ذلك من المقروء الثقافي لدى الأديب ، بحيث تندمج هذه النصوص ، أو الأفكار مع النص الأصلي وتندغم فيه ، ليشكل نصا جديدا واحدا متكاملا " [٥]

---

(١) أحمد الزعبي : التناص نظريا وتطبيقيا ، ص ١٠

(٢) المرجع نفسه : ص ١١

(٣) صبري حافظ : أفق الخطاب النقدي ، ص ٦١

(٤) محمد مفتاح : تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء _ المغرب ، ط ١ ، ١٩٨٥ ، ص ١٢١

(٥) أحمد الزعبي : التناص نظريا وتطبيقيا ، ص ٩

ومهما كانت الأبعاد بين التعريفات ؛ فإنها تدور حول ملتقىً واحدٍ ؛ وهو علاقة النص المكتوب بالنصوص الأخرى ، ولعله بمقدور الباحث القول : أن جميع التعريفات وقعت في تناص مع التعريف الأول لجوليا كريستفا .

ويرى الباحث ، أنه من الصعب مناقشة التناص بعيداً عن التلقي ، إذ أنه كما للنص إشارات وشفرات تشع ، فإن ذلك مرتبط بأفق المتلقي ، الذي يمتلك هو الآخر ثقافة تدفعه لإعادة صياغة النص ، وإدخاله في تناص مع نص جديد ، قد يأتي مدعماً لمقولته ، أو مضاداً له أو محوِّراً ذلك في سبيل خدمته وهذا الذي يذهب إليه الباحث ، ليس بجديد على النقد العربي فمن ذلك على سبيل المثال رأيهم في حل المنظوم " وإذا أتمَّ معه المعنى المحلول في قرينة واحدة فيفرض له من حال فكره أو من ذخيرة حفظه ، ما يناسبه ، وله أن ينقل المعنى إذا لم يفسره إلى ما شاء ، فإن كان نسيباً وتأتّى له أن يجعله مديحا فليفعل ، وكذلك غيره من الأنواع " [١] ومن المعاني التي كثر انتقالها من نص إلى نص ومن غرض إلى آخر وفق ما يراه متلقيه قوله عليه السلام : " إن من البيان لسحراً " حيث حُوِّل ليضرب كمثل [٢] في زمن لاحق . ولكن عندما يكون المتلقي شاعراً ، فإنه يلتقط الفكرة ، وتصبح من مخزونه وممتلكاته كمتلقي ، وتخرج من قيده ؛ إذا ما

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٢٨٣ ، وانظر الحلبي حسن التوسل ، ص ٣٢٦

(٢) الميداني أبو الفضل احمد بن محمدالنيسابوري (٥١٨هـ-١١٢٤م) مجمع الأمثال،حققه وعلق حواشيه محمد محي الدين ،مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٥ ،ج ١ ، ص ٧

أعاد صياغتها في نص جديد مسخرها لما يعتلج في فكره ، وكان الشاعر الــــذي التقط النص ابن الرومي فساغه شعراً في النسيب :

وحديثها السحر الحلال لو أنه   لم يجن قتل المسلم المتحرز [1]

ولكن التناص مستمر ، ما دام هنالك متلق يستقبل النص ويعيــد إخراجــه ، وفي هذه الكَرّة ، يكون القلقشندي الذي يعيده نثراً ، وفي غرض آخر وهو المديــح : " فإن تكلم أتى من بيانه السحر الحلال ، أو حاور أتى من البلاغة بما يقصـــــر عن رتبته كاتباً في المقالة " [2] .

هذا المثال ، البسيط من التناص ، الذي حافظ فيه النص الأول على مفرداتــه ، أثناء تنقله من متلق إلى آخر ، فكيف لو أن هذه النقلات تعدت الألفـــاظ لتــأتي بالمعنى المراد أو المعاكس ؟! ولعله من الصعب ، إغضاض الطرف عــن ردود المتلقي أو القارئ المنتج ، كما يسميه بعضهم ، لأنه الوسيلة التي يتخطـــى فيــها النص الزمان ، فمن خلاله يجعل النص في نصوص أخرى ، بصـــــور متعــددة الملامح .

والقلقشندي كقارئ منتج أو متلقٍ فاعل ، يحفز الباحث على دراسة التنــاص في إنتاجه الأدبي ،علاوة على محاولته لطـــرح القضيـــة [3] ، محـــاولاً تقديــم الوصايا للكتّاب ، وما يحتاجونه في إنشائهم . وقد عمد الباحث لدراسة التنــــاص

---

(1) ابن الرومي الحسن علي بن العباس : الديوان تحقيق حسين نصار ، مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٧٦ م ، ج ٣ : ص ١٦٤

(2) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١٩٥

(3) المصدر نفسه : ج ١ ، ص ١٥٠ _ ٣٠٦

عند القلقشندي ، ضمن ثلاثة محاور : التناص الديني ، و التناص الأدبي ، والتناص التاريخي .

التناص الديني :

وهو توظيف الكاتب للنصوص الدينية داخل النص الذي ينشأه ، وتقدر أساليب التوظيف والاستخدام ، كما أن النصوص الدينية متعددة الأنواع ، ومختلفة الأشكال .

أولاً القرآن الكريم :

" وقد أخرج من الكتاب العزيز ، شواهد لكل ما يدور بين الناس في محاوراتهم ، ومخاطباتهم ، مع تصور كل لفظ ومعنى له ؟! وعجز الإنس والجن عن الإتيان بسوره من مثله " [١]

واستخدام آيات القرآن الكريم ، يأتي على ثلاثة أضرب :

الضرب الأول : الاستشهاد ، وهو إدخال شيء من القرآن الكريم في الكلام مع التنبيه عليه ، بقوله : " قال تعالى " أو " كقوله عز وجل " أو " كما ورد في كتاب الله " إلى آخر ذلك من أساليب الإشارة والتنبيه لما يجاب من غير كلام الكاتب [٢] ويصفه القلقشندي بأنه " أقلها وقوعاً في الكلام ، ودوراناً في الاستعمال ، في حين يشير شهاب الدين الحلبي لكثرة وقوع الاستشهاد ، بقوله : " وقد أكثر

---

[١] شهاب الدين الحلبي : حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، ص ٧٢
[٢] القلقشندي : صبح الأعشى ج١ ص١٩٤

الناس في الاستشهاد : فمفرط في الحسن ومفرّط "[1] ولعل الحلبي أراد بالكثرة التي أوردها في مقولته ، شتى أضرب التوظيف ، وليس الاستشهاد فقط ، وقد لاحظ الباحث قلة لجوء الكتاب لمثل هذا الضرب من التوظيف ، إذ قلما ينبه الكتاب لما يدخل في نصوصه من آيات القرآن الكريم .

ويقدم الباحث عدداً من التناصات القرآنية ، على طريقة الاستشهاد في كتابات القلقشندي ، وقد لاحظ الباحث أن هذه التناصات جاءت ضمن الكتابات الديوانية وإن خرج بعضها فنجده في ثنايا المقامة أما الرسائل الأخوانية ، فتكاد تخلو من هذا الضرب من التناص .

ومما ورد في بيعة مرتبة على موت خليفة ، قوله : " واشهدوا عليهم بذلك من حظر مجلس العقد من الأئمة الأعلام ، والشهود والحكام ، وجعلوا الله تعالى على ما يقولون وكيلا ، فاستحق عليهم الوفاء بقوله عزت قدرته ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا﴾ "[*] [2] وهنالك استشهاد آخر ، في البيعة نفسها في قوله : " ويلجأون إليه ، أن يجعل أئمتهم ممن أشار تعالى إليه بقوله :﴿ اللذين إن مكناهم في الأرض أقاموا

---

[1] الحلبي : حسن التوسل : ص٧٨
[*] سورة النحل آيه ٩١
[2] القلقشندي صبح الأعشى ج٩ ص٣١٣

الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ [١] إن شاء الله تعالى " [٢] .

ومثل ذلك نجد في بيعة مرتبة على خلع خليفة ، فمن ذلك قوله : " ويحقق لهم بمن استخلفه عليهم وعده الصادق ، بقوله تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض ، كما استخلف اللذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا﴾ [٣] إن شاء الله تعالى " [٤] وجاء من ذلك في عهدٍ كَتَبَهُ القلقشندي ، يقول فيه " ... ووصية الرجل لبنيه مطلوبة ، فقد قال تعالى ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب ﴾ [٥] " [٦] .

وثمة استشهادات وردت في التواقيع [٧] ، وأخرى جاء بها القلقشندي في مقامته : " الكواكب الدرية في المناقب البدرية " [٨] .

---

[١] سورة الحج : آية ٤١
[٢] القلقشندي : صبح الأعشى ج٩ ص٣١٣
[٣] سورة النور : آية ٥٥
[٤] القلقشندى : صبح الأعشى ج٩ ص٣١٩
[٥] سورة البقرة : آية ١٣٢
[٦] القلقشندي : صبح الأعشى ج ٩ ص٣٧٥
[٧] المصدر نفسه : ج١٢ ص٥٠ ، وانظر سورة النور: آية ٥١ والنساء آيه ٦٥

[٨] المصدر نفسه ج١٤ ص١١٤ وانظر سورة القلم آيه ١-٢ ، الانفطار آيه ١٠ ، الأنعام آيه ٢٥ ، العلق ٣-٥

الضرب الثاني الاقتباس أو التضمين :

وهو إدخال آيات قرآنية ، أو أجزاء منها وتكون منصصة ، ولكن الكاتب لا ينبه عليها ، كما في الاستشهاد ، ويلاحظ الباحث أن هذا الضرب من التناص ، استخدمه الكاتب أكثر من سابقه ، وإن اشترك معه في مواقع توظيفه ؛ فمعظم ما وجده الباحث في الكتابات الديوانية ، وآخر في المقامة ، في حين تكاد تخلو منه الرسائل الاخوانية .

ومن أمثلة استخدامه في الكتابة الديوانية ، ما أورده الكاتب في بيعة مرتبة على موت خليفة ، مظهراً مكانة المبايَع ، وعظم صفاته ، حتى أن الخلافة هي التي تطلبه لنفسها ، لا هو من يسعى إليها ، فيقول : " ولا كفء تخطبه ، يكون لديها مكينا إلا الإمام الفلاني المشار إليه ، فدعته لخطبتها ، وهي بيت عرسه ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ﴾ [١] فأجاب خطبتها ، ولبىّ دعوتها " [٢] وقد يميل الكاتب إلى تضمين الآية التي ترد في أكثر من سورة من سور القرآن الكريم ، وقد وجد الباحث ذلك في تضمين الكاتب ، لآية بسياق حديثه في بيعة مرتبة على خلع خليفة ، حيث يقول : " وأوضح لهم مناهج الحق ، ودعاهم إليها ، وأبان لهم سبل الهداية :﴿ فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن أضل فإنما يضل عليها﴾ (*) صلى الله عليه ، وعلى آله أئمة الخير ، وخير

---

[١] سورة يوسف : آية ٢٣

[٢] القلقشندي صبح الأعشى ج ٩ ص٣١٠

الأئمة "[1] ومثله ما أورده في عهد عن الإمام المتوكل علـــى الله ، محمــد بــن المعتضد أبي الفتح أبي بكر ، لولده العبــاس يقــول : " ... وأوضح السبيل فــي التعريف بمقام الآل ، والعترة النبوية "﴿ فلا يكن أمركم عليكم غمة﴾ "" [٢] وفــي العهد نفسه أيضا يقتبس آية أخرى ، في قوله : " .... معينا لأبيه في حياته خليفــة له من بعده ، وأن يصرح له بالاستخلاف ، ويوضح ويتلو عليه بلسان التفويــض ﴿ أخلفني في قومي واصلح ﴾ * " [٣] وهنالك تضمينات أخرى في العهد نفســه [٤] ، وكذلك في البيعة السابقة [٥] ، وما نجده في نسخة تقليــد أنشــأه الكــاتب بالإشارة ، للأمير جمال الدين يوسف البشاسي ، استدار في الدولة الناصرية فرج يقول فيه : " ... إن أشار برأي ، تمسك الملك منه بالحبل المتيــن ، أو محضــه كلام نصح ، قال : ﴿ .... إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ * " [٦] ولعل الإتكــاء الواضح على الاقتباس من القرآن الكريم ، في الكتابات الرسمية ، عــائد لرغبــة الكاتب ، بإصباغ الصبغة الدينية على من يكتب له ، لما لذلك من أثر في نفــوس الناس ، حيث طغت النزعة الدينية على شتى مجالات الحياة ، فمن ذلـــك ؛ مــا يورده الكاتب في نسخة تصدير ، أنشأه لقاضي القضاة ، بدر الدين محمود وولــده

---

[١] القلقشندي صبح الأعشى ج ٩ ص ٣١٤ * انظر سورة يونس آيه ١٠٨ ، الاسراء آيه ١٥ ، الزمر آيه ٤١

[٢] المصدر نفسه ، ج ٩ ص ، ٣٧١ ، * انظر سورة يونس آية ٧١

[٣] المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ٣٧٤ ، * انظر سورة الأعراف آية ٤١

[٤] المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، وانظر الآيات في سورة الطلاق آية (٢) وســورة غافر آية (٥١) وسورة هود (١٨) وسورة الفرقان أية (٣١ ش) وسورة الذاريات آية (٥٥)

[٥] المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ٣١٧ ، ٣١٩ ، وانظر الآيات سورة الفتح آية (١٠) وسورة الرحمن آيــة (٦٠)

[٦] المصدر نفسه ، ج ١١ ، ص ١٥٤ ، * وانظر الاية في سورة يوسف آية (٥٤)

، جلال الدين محمد ، بإعادة تصديرين كانا باسمهما ، بالجامع الأموي بدمشق يقول فيه : " والله يقر لهما بهذا الاستقرار عينا ، ويبهج خواطرهما بهذه الولاية ، إبهاج من وجد ضالته فقال : ﴿ هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ * " [١] وقد لاحظ الباحث ، أن الكتابات الرسمية غالبا ما تختم بآية من القرآن الكريم ، تأتي قبل المشيئة .

وضفر الباحث ، بشيء من التضمين للآيات القرآنية الكريمة في المقامة ، التي كتبها القلقشندي ، مثل قوله عندما تعرف الناثر بن النظام على المقر البدري ، بعدما تحدث له الرجل عنه ، وأنشد أبياتا من الشعر يصف له المقر البدري فيها ، فيقول الناثر بن نظام : " حسبك قد دلني عليه عرفه ، وأرشدني إليه وصفه ، وبان لي محتسده الفاخر وحسبه الصميم ، وعرفت أصله الزاكي وفرعه الكريم ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ * " [٢] .

الضرب الثالث : التلميح والإشارة

وهو أن يذكر بعض الآية ، وربما كلمة واحدة منها تدل على الآية ، وقد تبين للباحث ، أن هذا النوع من التناص القرآني ، أكثرها انتشارا في كتابات القلقشندي ، ويرى الباحث أن السبب في ذلك ، يعود لكون الضربين الأولين ، استخدمهما الكاتب للتدليل على ما يذهب إليه من آراء ، أو كحجج يجلبها ليدعم

---

(١) المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ١٨٤ ، * انظر الآية في سورة يوسف آية (٦٥)

(٢) المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ١٢٥ ، * وانظر الآية في سورة المائدة (٥٤) وسورة الحديد آية (٢١) وسورة الجمعة آية (٤)

فيها آراءه في أغلب الأحيان ، أما التلميح ؛ فإنه بالإضافة لهذا السبب، فإن الكاتب يأتي به لسبب أسلوبي وبلاغي يرمي من ورائه إظهار حسن السبك في الكتابة ، والتنوع في الأسلوب .

وقد لاحظ الباحث ، أن معظم هذا الضرب من التناص ، جاء في الرسائل الديوانية كسابقيه ، ومن أمثلة ذلك قوله في دعاء : " وسقى عهد العهاد وشفى بعدله العباد ، وزان به حسن بلده التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وهي ارم ذات العماد ، أصدرنا إلى المقر الكريم بسلام تسر به النفوس ... " (١) فقوله : " التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وهي إرم ذات العماد " مأخوذ من قوله تعالى ﴿ إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ " (٢) وقوله ، في دعاء آخر : " ولا زال يعد ليوم تشيب منه الولدان ويعد دونه كل محارب بينه وبين الشهباء والميدان " (٣) ويلحظ الدارس أن قوله : " ولا زال يعد ليوم تشيب منه الولدان ، مأخوذ من قوله تعالى :﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا ﴾ (٤) وقد يكون التناص أكثر تعمية ، وأقل وضوحا للعلاقة بين ما يكتبه الكاتب ، وبين الآية القرآنية الكريمة ، كقوله في المقامة : " وأهجم على حصون الدفاتر ثم لا أولي عن هزيمة ، بل كلما لاحت لي فئة من البحث تحيزت إليها ، أو ظهرت لي

---

(١) المصدر السابق ، صبح الأعشى ، ج ٧ ص ، ١٤٦

(٢) القرآن الكريم : سورة الفجر ، آية (٨٧)

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ١٤٨

(٤) القرآن الكريم ، سورة المزمل . آية (١٧)

كتيبة من المعاني حملت عليها " (١) ففي مقولته هذه تلميحا قد يبدو بعيد _ للآية القرآنية الكريمة ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ (٢) وكذلك ما ورد في المقامة من قوله : " وتساويا في الترجيح ، فلم تجنح واحدة منهما إلى السلم " (٣) فهو يشي بالآية الكريمة ﴿ فإن جنحوا للسلم ، فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴾ (٤) ومنه ما يكون أكثر وضوحا في تلميحه للآية ، التي يقع معها التناص ، كقوله في كتاب أنشأه في الإجابة على كتاب سلطاني :

" وأجاب داعيه بالامتثال سامعا طائعا ، وسجد سجود الشكر لذلك فعرف بسيماهم " (٥) فيشير لقوله تعالى :﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثرا لسجود ... ﴾ (٦) .

وقد وجد الباحث أن بعض التناصات في هذا الضرب ، قد عمد الكاتب فيها إلى الإشارة لحوادث وقصص قرآنية ، كإشارته لقصة أصحاب الكهف في قوله " فوجدت قوما قد حفهم الحسن وزانهم الإحسان ، فقلت : الحمد لله ! هؤلاء فتية

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١١٨
(٢) القرآن الكريم : سورة الأنفال ، آية (١٦)
(٣) القلقشندي صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١١٣
(٤) القرآن الكريم ، سورة الأنفال آية (٦١)
(٥) القلقشندي : صبج الأعشى ، ج ٨ ، ص ٣٨٠
(٦) القرآن الكريم : سورة الأعراف ، آية (٥٩)

ذاك الكهف بلا امتراء " [1] ففيها إشارة لقصة أصحاب الكهف الواردة في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ، إذ أوى الفتية إلى الكهف ، فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيئ لنا من أمرنا رشدا ﴾ [2] وكذلك نجد تكرارا في توظيف قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز ، مثل قوله واصفا حرص الخلافة على العهود له ، وأن يكون الخليفة القائم بأمرها : " وتطمع في قربه ، وتتغالى في حبه ، وتميل إلى أنسه ، وتراوده عن نفسه ، وهو كفؤها المتجمع لشرائطها المتصف بصفاتها " [3] فهذا في تناص مع قوله تعالى : ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال ما عاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ﴾ [4] وكذلك نجد يورد قصة حلم العزيز الذي فسره يوسف عليه السلام في قوله : " وترفع بركاتها عن الأمة حصرا ، وتبدل العسر يسرا ، فتعيد عجاف الزمان سمانا ، وسنبلات الوقت بعد اليبس خضرا ، وسلم تسليما كثيرا " [5] والتناص فيها مع قوله تعالى : ﴿ وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر ، وأخر يابسات ، يا أيها الملأ

---

(1) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١٢٧
(2) القرآن الكريم : سورة الكيف ، آية (٩) وما بعدها
(3) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٣٧٣
(4) القرآن الكريم ، سورة يوسف ، آية (٢٣)

(5) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١١ ، ص ١٥٤

افتوني في رؤياي ؛ إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ (١) _وبهذه الطريقة نجده يلمح لقصة زكريا _ عليه السلام _ وابنه يحيى ، التي وردت في سورة مريم ، إذ يقول : " وتقبل دعاء أبيه فوهب له من لدنه وليا وأجاب نداءه فيه فمكن له في الأرض ، وآتاه الحكمة صبيا فاستوجب أن يكون حينئذ للمسلمين ولي عهدهم " (٢) ويأتي التناص مع قوله تعالى : ﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ... يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا *﴾ (٣) ومنه أيضا توظيفه لقصة طالوت الواردة في القرآن الكريم ، بقوله : " واصطفاه على أهل عصره ، وزاده بسطة في العلم والجسم ، فلا يعزم أمرا إلا كان رشادا ولا يعتمد فعلا إلا ظهر سدادا "(٤) ويأتي هذا تناصا مع قوله تعالى : ﴿ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم ﴾ (٥) وقد أكثر الكاتب من هذا الضرب من التناص ، حتى أنه يشير لقصتين في القرآن الكريم في العبارة الواحدة ، من ذلك إشارته لقصة مريم _ عليها السلام _ ، عندما جاءها المخاض ، وقصة موسى _ عليه السلام _ عندما عبر البحر ، هاربا من فرعون وجنوده ، حيث يقول : " وقد

---

(١) القرآن الكريم : سورة يوسف ، آية ٤٣ _ ٤٩
(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٣٧٣
(٣) القرآن الكريم ، سورة مريم ، آية ١ ، ١٥
(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٣٧٢
(٥) القرآن الكريم : سورة البقرة ، آية ٢٤٧

اتخذت من الاحتشام معقلا وحصنا لا يفشى وانتبذت من حسادها مكانا قصيا فـلا تخافوا دركا ولا تخشى " (١) ففي قوله : " فانتبذت من حسادها مكانا قصيا " تناص مع قوله تعالى :﴿ فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ﴾(٢) والمقصود هنا مريم _ عليها السلام _ أما قوله : (فلا تخاف دركا ولا تخشى) فهو تناص مع قوله عز وجل : ﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى ﴾ (٣) وهنالك تناص آخر مع قصة موسى _ عليه السلام _ بقوله : " وصدني كد الكد عن الاهتمام بالطلب والاحتفال ، فغشيني من القبض ما غشيني ، وأخذني من الوحشة ما أخذني " (٤) ففيه تلميح لقوله تعالى : ﴿ فاتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾ (٥) ونلحظ التغيير في معنى الاستخدام هنا ، إذ هو يريد الغم الذي ركبه ، في حين المراد في الآية الكريمة ؛ البحر وأمواجه التي غرقوا فيها ، وثمة موقع آخر نلحظ فيه إجراء التغيير من قبل القلقشندي في كلمات الآيات ، لتناسب مبتغاه ، كقوله في نسخه بيعة : " الحمد لله الذي جعل بيت الخلافة مثابة للناس وأمنا " (٦) والتناص واضح مع قوله تعالى : ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٣٧
(٢) القرآن الكريم : سورة مريم ، آية (٢٢)
(٣) القرآن الكريم : سورة طه ، آية (٧٧)
(٤) القلقشندي صبح الأعشى ج ١٤ ، ص ١١٣
(٥) القرآن الكريم : سورة طه ، آية (٧٨)
(٦) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٣١٣

إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعـــاكفين والركع السجود ﴾ (١) .

فالبيت الذي ورد في الآية ، يقصد به البيت الحرام في مكة المكرمة ، أمـــا البيت الذي قصده الكاتب فهو دار الخلافة في القاهرة ، ولعل هذا التغيير الذي نبه شهاب الدين الحلبي على تجنبه ، بقوله : " أما تغيير شيء من اللفـــظ بغــيره أو إحالة معنى عما أريد به فلا يجوز ، ولا ينبغي العدول عنه ، مـــهما أمكــن والله أعلم " (٢) .

ومثل ذلك ما ذكره القلقشندي في صبحه حيث يقول : " فأما تغيير شيء مـن اللفظ أو إحالة معنى عما أريد به فلا يجوز بحال " (٣) وقد حرص بعضهم علــى عدم جواز الاستشهاد ، بما أراد الله به نفسه ، إلا فيما يضاف إلى الله _ ســبحانه وتعالى _ مثل قوله :﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريــد ﴾ (*) ممـــا يقتضيــه الأدب مع الله تعالى (٤) . على أن الباحث وجد الشيء الكثير من التناص ، جــاء على طريقة التلميح ، ولعل ما أورده من تمثيل على هذا الضرب من التنـــاص ، يفي بالغرض ويكتفي به تجنبا للإطالة (٥) ، ويشير القلقشندي أنه يتوجب علـــى

---

(١) القرآن الكريم : سورة البقرة ، آية (١٢٥)
(٢) الحلبي : حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، ص ٧٨
(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٩١
(*) القرآن الكريم : سورة ق ، آية ١٦
(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٩١
(٥) انظر على سبيل المثال لا الحصر: صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١١٨ وسورة البقرة آية (٢٨٩) / صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١٩٦ وسورة البقرة آية (٢٦١) / ج ١٤ ، ص ٢٥٢ ، وسورة لقمان ، آية (٢٠) / ج ١٤ ، ص ٢٢٩ وسورة البقرة آية (٢٦١) / ج ١٤ ، ص ٢٣٨ وسورة النساء آية (١٢٨) / ج ١٤ ، ص ٣١٩ سورة الحج آية (٥) وسورة ق ، آية (٧) / ج ١١ ، ص ١٩٣ ، وسورة المائدة ، آية (٥٤) / ج ١١ ، ص ٢٣٧ وسورة مريم ، آية (٨٧

الكاتب مع حفظه للقرآن الكريم ، وتفسيره لتوظيفه فيما يكتـب ، كذلـك يحتـاج لمعرفة ما يختص به من علوم ، من القراءات السبع ، والشواذ وأشهر من عـرف بالقراءة ، ومعرفة رؤوس المفسرين ؛ ليقيم المفاضلة بينهم وبين من يكتب عنـهم ، ويوري ويقايس بأعيانهم [١] .

---

٨٨) / ج ١١ ، ص ٢٤٠ ، وسورة التوبة ، آية (١٠٨ _ ١٠٩) / ج ١١ ، ص ٢٥٢ وسورة النحل ، آية (٤٠) / ١٢ ، ص ٥٠ وسورة العنكبوت آية (٥٨) / ج ١٢ ،ص٥١ ، وسورة طه آية (٧٢) / ج ١٢ ، ص ٥٣ ، وسورة رقان آية (٧٦) / ج ١٣، ص ٤٧ ، وسورة النساء ، آية (٤) .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٢٠٠

التناص مع الحديث النبوي الشريف :

وهو القسم الثاني من التناص الديني ، أي بعد التناص القرآني ، ويفيد التناص مع الحديث : توظيف الأحاديث النبوية في خدمة النص ، سواء من الناحية المضمونية أو الشكلية ، ويأتي التناص مع الحديث بإحدى طريقتين ، الأولى : الاستشهاد وهو : توظيف الحديث الشريف مع التنبيه عليه ، وهو في هذه الحالة ، غالبا ما يكون بنصه ، ومن أمثلة ذلك قول القلقشندي ، في نسخه توقيع بنظر صادر : " .. ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي ندب إلى مبرة أهل الفضل وذويه ، ورغب في رعاية المودة للآباء بقوله :" إن من أبر البر بر الرجل أهل ود أبيه " صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه اللذين عرفت بهم مهمات فقاموا بحقها ... " [1] فيتضح أن الكاتب ، قد أخذ الحديث بنصه ، ووظفه بما يناسب موقعه ، إذ إن الحديث في توقيع الصادر ، وهو ما يؤخذ من الفرنج عند زيارتهم الإسكندرية ، ويصرف في أهل الصلاح ،وليؤكد الكاتب المعنى الوارد في الحديث ، نجده يأتي به بعد الشهادة ، ثم يتلوه بالصلاة على النبي ، فيتضح في الكلام ، وتحصل له المكانة المناسبة ، من حيث الحث على ود أصحاب الوالدين ، والحديث كما رواه ابن عمر قال : سمعت رسول الله _

---

[1] القلقشندي : صبح الأعشى ج١١ ص ٤١٧ .

صلى الله عليه وسلم _ يقول : " إن من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيــــه

د أن يولى " [1]

أما الطريقة الثانية في التناص مع الحديث ، فـــهي الاقتبـــاس : وهـــو أن

ـمن الكاتب ، شيئا من الحديث النبوي الشريف دون أن ينبه عليه [2] ومثل هـذا

ير الحصول ، ولا يكون مقتصرا على ضرب من ضروب الرسائل ، فقد يقـــع

، الرسائل الديوانية أو الإخوانية ، كما قد يقع في غيرها من الكتابـــات ، مثـل

فاخرات والإجازات العلمية .

ومما جاء على هذه الطريقة تضمين الكاتب لقوله _ صلى الله عليه وسـلم _

لي بن أبي طالب كرم الله وجهه : " أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هـــارون

، موسى " [3] فضمنه الكاتب بقوله : " وجمع الناس في القرآن علـــى صحيفــة

حدة ، وكان من قبل ذلك صحفا ، ومن سرى إليه سر : أما ترضى أن تكـــون

ي بمنزلة هارون من موسى . فغدا يجر من ذيل الفخار سجفا " [4] فلـــم ينــبه

ى الحديث الشريف ، ولكنه يلاحظ أن الكاتب جاء بنص الحديث كاملا ، مـــع

، هذا لا يشترط في الاقتباس ، ولعل المقصد من ذلك أن مفردات هذا الحديـث ،

---

[1] القرطبي توفي (٦٧١هـ) تفسير القرطبي ، تحقيق أحمد عبد الحليم البردوني ، دار الشعب القـاهره ط٢ ، ١٣٧٢هـ / ج١٠ ص٢٤١ .

القلقشندي : صبح الأعشى ج١ ص٢٠٦ .

البخاري :صحيح البخاري ، المناقب حديث رقم ٣٣٥٦ / مسلم ، ابو الحسن ، مسلم بن الحجاج : صحيح سلم ، فضائل الصحابة ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، حديث رقم ٤٤٢٠

القلقشندي : صبح الأعشى ج٩ ص٣٠٩ .

يصعب اختزالها مع المحافظة على المعنى ، كما أن الكاتب قـــد أورد الحديـــث لإظهار مكانة علي _ رضي الله عنه _ فلم يغير باللفظ بل أبقـــاه علـــى نصـــه ، ومثل ذلك قوله : " باسم الله تعالى استفتح ، وبحمده اتيمن واستنجح إذ من شـــأني الكتابة ، ومن فني الخطابة ، وكل أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله فهو أجـــذم ، وكل كلام لا يستفتح بحمده فأساسه غير محكم ورداؤه غير معلم " [١] وهو مـأخوذ من قوله _ عليه الصلاة السلام _ : " كل كلام لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أجذم " [٢] وكذلك يلاحظ أن الكاتب لم يحور في الحديث ، وإنما اكتفى بعدم الإشارة إليه .

على أن هذه الطريقة من التناص ، تفتح المجال إلـــى الكتابـــة ، لاســـتخدام الحديث الواحد بأكثر من مكان ، وبطرق مختلفة ، من ذلك توظيـــف القلقشـــندي للحديث النبـــوي [٣].

جاء التوظيف الأول في توقيع بخطابة المسجد الأمـــوي فـــي دمشـــق ، يقـــول : " لا سيما الجوامع التي هي منها بمنزلة الملوك من الرعيـــة ، وأمـــاثل الأعيان من بين سائر البرية ، ومن أعظمها خطرا ، وأبينها في المحاسن أثـــرا ، وأسيرها في الآفاق النائية خبرا ، بعد المساجد الثلاث التي تشـــد الرحـــال إليـــها وتحول في قصر الزيارة عليها _ جامع دمشق الذي رست في الفخـــر قواعـــده ،

---

[١] البخاري : صحيح البخاري ،المناقب حديث رقم ٣٣٥٦ / مسلم : صحيـــح مسـلم ، فضـــائل الصحابـــة، حديث رقم ٤٤٢٠

[٢] القلقشندي : صبح الأعشى ج٩ ص٣٠٩ .

[٣] القلقشندي : صبح الأعشى ج١٤ ص٢٣٣ .

وقامت على ممر الأيام شواهده " [١] وواضح مع إجراء الكاتب في تقديم الكلام وتأخيره ، واجتزأ من الحديث الشريف ، ما يدل على معناه كاملا ، الذي يرمي من ورائه إجراء المقارنة ، وإظهار مكانة المسجد الأموي بدمشق ، حيث جعله يتلو المساجد الثلاثة مكانة ، ولعل هذا النوع من التناص الذي يقوم على اجتزاء الجزء الصغير من النص ، والدال على المعنى ، والقادر على مساعدة الكاتب من تحقيق هدفه من التناص ، ما يسميه محمد مفتاح بالإيجاز وهو نوع من آليات التناص ، يجعله عكس التمطيط [٢] .

أما التوظيف الثاني للحديث الشريف نفسه ، فقد جاء في نسخة إطلاق أنشأه الكاتب ، بمرتب على الفرنج الواردين على زيارة بيت المقدس يقول فيه : " من طيب الذكر ، وجميل الأثر وصفوة السريرة ، ولإقامته بالمسجد الأقصى الذي هو أحد المساجد الثلاثة ، التي تشد الرحال إليها ، وإحدى القبلتين المعول الإسلام عليهما" [٣] فلما كان الحديث في هذا التصدير عن المسجد الأقصى ، يدرك الكاتب مكانة هذا المسجد في نفس المتلقي ، وأنه ليس بحاجة لكبير وصف له ولمكانته ، يمر بالحديث الشريف ذاكرا جزء منه ، يفيد المعنى بقوله : " أحد

---

[١] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٢ ، ص ٧٥

[٢] محمد مفتاح : تحليل الخطاب الشعري ،المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء _ المغرب ط ١ ، ١٩٨٥ ص ، ١٢٥

[٣] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٤٦

المساجد الثلاثة التي تشد الرحال إليها " على أن القلقشندي يبين لإمكانية توظيف أسماء علماء الحديث ، من خلال المقارنة مع المكتوب لهم ، وأسماء الكتب .

التناص الأدبي :

ويعني تداخل نصوص أدبية يختارها الكاتب ؛ شعرا أو نثرا للنص الأصلي للكاتب ، منسجمة وموظفة ودالة على الفكرة التي حاول طرحها والرؤية التي حاول تنويرها ، للمتلقي [١] .

ويحاول الباحث دراسة هذا النوع من التناص ، ضمن محورين : التناص الشعري والتناص مع الأمثال .

التناص الشعري :

وهو محاولة الكاتب تسخير النصوص الشعرية السابقة ، لخدمة رؤاه وأفكاره في النص الذي يكتب ، وسبيله إلى ذلك ثلاث طرق :

الأولى : الاستشهاد ، " وهو أن يورد البيت من الشعر أو البيتين ، أو أكثر من خلال الكلام المنثور ، مطابقا لمعنى ما تقدم من النثر ، ولا يشترط فيه أن ينبه عليه : (بقال) ونحوه ، كما يشترط في الاستشهاد بآيات القرآن الكريم ، والحديث النبوي فإن الشعر يتميز بوزنه وصيغته عن غيره من الكلام ، فلا يحتاج إلى التنبيه عليه " [٢] .

---

[١] أحمد الزعبي : التناص نظريا وتطبيقيا ، ص ٤٢

[٢] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٢٧٤

ومن الأمثلة على الاستشهاد قوله في المقامة : - " على أنه لو اعتبر نفع كتابة الإنشاء لكان أبلغ ، وإقامة الدليل عليه أسوغ ، وأنىَّ لكتابة الأموال من التأثير في فل الجيوش من غير قتال ، وفتح الحصون من غير نزال ، فهذه هي الخصيصة التي لا تساوى والمنقبة التي لا تناوى :

تلك المكارم لا قعبان من لبن   شيبا بماء فعادا بعد أبوالا " (١)

و لما كان الكاتب يعرض في حديثه للمقارنة بين كتابة الحساب وكتابة الإنشاء ، وميله لكتابة الإنشاء ومناقبها ، وأنها تفل الجيوش دون قتال ، وهذا ما لم يتوفر لكتابة الحساب ، فقد جاء بيت النابغة الذي يفيد المقارنة والمفاخرة ، وكان البيت منسجما مع النص دون أن يجري فيه الكاتب أي تغيير . ويظهر مثل هذا الاستشهاد في الرسائل المدحية التقريضبة ، كقوله : " فإن رياسة أهل الدولة تتفاوت ، باعتبار قرب الرئيس من ملكه في مخاطبته ومناجاته ، واعتماد تصرفه في أمور دولته ، وتنيذ مهماته والاستناد على رأيه في جليل خطوبه وعظيم ملماته :

فعال تمادت في العلو كأنما   تحاول ثأرا عند بعض الكواكب(٢)

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١١٨

(٢) القلقشندي :صبح الأعشى ج ١٤ ، ص ١٩٢ و ٢٩٦ ورشف الرحيق : دراسة وتحقيق سمير الدروبي ، ص ١٠٢ ورواية الصدر في مجمع البلاغة (معالي تمادت في العلو كأنما) وفي صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٢٩٦ (إذا أقلعت لجت عَلَواً كأنما) وفي رشف الرحيق ، ص ٢ ، (ذوائب تحث في علو كأنما)

ولا خفاء أن صاحب ديوان الإنشاء من هذه الرتبة بالمحل الأرفع ، والمنزلة التي لا تدفع ولا تدافع " [١] ويدرك متلقي هذا النص المجتزأ ، أن الكاتب يحاول فيه التنبيه على مكانة صاحب الديوان من الدولة ، والملك على السواء ، فاستشهد ببيت الشعر لتدعيم البنيه التي عمد إليها لتقديم الفكرة .

والمتابع يلاحظ أن الاستشهاد كما قال القلقشندي : أكثر ما يقع في الإخوانيات [٢] وإذا ورد في المكاتبات الرسمية ؛ فإنه يكون في مقام المدح والثناء على المكتوب له ، وكذلك في الكتابة العلمية ، وهنالك مثال آخر يظهر بوضوح في المقامة البدرية : " هذا وأنه لألطف من النسيم الساري ، والماء الجاري ، وحتى من العذراء في خدرها ، وأشفق من الوالدة إذا ضمت ولدها إلى صدرها ، وأحلم من معن بن زائدة وإن كان أفصح من قس بن ساعدة

يغضي حياء ويغضى من مهابته   فلا يكلم إلا حين يبتسم [٣] " [٤] .

حاول الكاتب تقديم صورة الممدوح كشخصية تكتمل فيها الصفات المعنوية والمحسوسة ، يمتلك اللطف والحياء والحلم والفصاحة ، وهو مهيب في صمته ، وإن ملك الفصاحة التي لم يحتاج لإظهارها ، ولما كان بيت الفرزدق قائما على هذه المفارقة ، فإن الكاتب يوظفه بطريقة الاستشهاد ، دون أن يجد حاجة لتحويله

---

[١] القلقشندي :صبح الأعشى ج ١٤ ، ص ١٩٢ ..

[٢] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٢٧٤

[٣] الفرزدق ، همام بن غالب بن صعصعه ، الديوان شرحه وضبطه علي فاعور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧ ، ص ٥١٢ .

[٤] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١٢٦

أو حله . ومما جاء في المفاخرة بين السيف و القلم قوله : " فقال السيف أطلت الغيبة وجئت بالخيبة وسكت ألفا ونطقت خلفا .

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب [١] " [٢]

وقد لاحظ الباحث أن الكاتب يمهد للاستشهاد بالشعر ، بتضمين الأمثال ، تكون نقضا لحجة القلم فيكون الاستشهاد بصفات السيف أكثر وقعا ؛ إذ أن المفارقة تتسع ويظهر البون بين المتنافرين .

أما الطريقة الثانية في استخدام التناص الشعري فهي :

التضمين : وهو أن يعمد الكاتب إلى تضمين رسالته ، بيتا من الشعر أو أحد شطريه ويضع له قرينة تناسبه [٣] .

ومما ورد في رسائل القلقشندي ، تضمينه في رسالة المفاخرة بين السيف والقلم حيث يقول : " لكني قد نلت من هذه الرتبة أسس المقاصد ، وشهدت معه من الوقائع ما لم تشاهد ، وحلاني من كفه شرفا لا يزول حليه أبدا ، وقمت بنصره في كل معترك ، فسل حنينا وبدرا وسل أحدا [٤] " [٥] .

---

[١] أبو تمام ، حبيب بن أوس الطائي ، الديوان . شرح الخطيب التبريزي قدم له ووضع هوامشه راجي الأسمر ، دار الكتاب العربي : بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٢ ، ص ٣٢ .

[٢] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٢٣٤

[٣] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١ ص٢٧٦

[٤] البوصيري، شرف الدين ابو عبدالله محمد بن سعيد : الديوان ، تحقيق محمد سيد الكيلاني ، شركة و مكتبة و مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، ط ٢ ، ١٩٧٣ ، ص ٢٤٦ ، والبيت كما ورد في الديوان :

وسل حنينا وسل بدرا وسل احدا فصول حتف لهم أدهى من الوخم

[٥] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١٤ ص ٢٣٤

لجأ السيف إلى المفاخرة على القلم بما يشهد له به من المشاركة مع الرسول _ عليه الصلاة والسلام _ في الغزوات الحربية ، ومقارعة المشركين ، ويلاحظ أن الكاتب حاول تعداد الغزوات التي شهدها الرسول ، فوجد أن هناك بيت شعر سابق ، وما عليه إلا إعداد القرينة المناسبة ، تمهد للشطر الذي يريده من البيت الشعري ، فقال : " وقمت بنصره بكل معترك " فتهيأ المتلقي لسماع أسماء هذه المعتركات فجاء الكاتب بنصف بيت البردة ، الذي ترد فيه أسماء المواقع " فسل حنينا ، بدرا وسل أحدا " ، ومثل هذا النوع من التناص في المفاخرة بين العلوم كقوله : " قد لبست شرفا لا تطمع الأيام في خلعه ، ولا يتطلع الزمان إلى نزعه ، وانتهى إليه المجد فوقف ، وعرف الكرم مكانه فانحاز إليه وعطف ، وحلت الرياسة بفنائه فاستغنت به عن السوى وأناخت السيادة بفنائه ، فألقت عصاها فاستقر بها النوى [1] " [2] .

ويلاحظ الباحث أن الكاتب وظف الشطر الأول من البيت ليجعله عجزا للقرينة ، التي صاغها معه ، ويلحظ أيضا الانسجام بين القرينة وشطر البيت ، وأنهما يكملان بعضهما بعضا في المعنى ، ومما استخدم فيه صدر البيت مع قرينته عند الكاتب قوله : في نسخه مكاتبة الملوك : " والأجساد إذا تباعدت تعللت

---

(١) البيت لعقر بن حمار البارقي انظر : ابو القاسم ، الحسن بن بشر بن يحيى توفي ٣٧٠هـ : المؤتلف والمختلف تحقيق عبد الستار أحمد فراج ،مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر ط ١ ١٩٦٥ ص ١٢٧ - ١٢٨ - والبيت كما ورد في المرجع

(فألقت عصاها واستقر بها النوى   كما قر عينا بالاياب المسافر)

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ص ٢٢٩

بالمكاتبات في بلوغ الأقطار ؛ والديار إذا تناءت اكتفت بالمراسلة عن تقارب الدار ، والمودة إذا صفت لا يؤثر فيها البعاد والمحبة إذا صدقت لا تزال كل يوم في ازدياد : " والأذن تعشق قبل العين أحيانا " [١] ، والوصف يحرك من الشوق أغصانا وأفنانا "[٢] فجعل الكاتب عجز البيت صدرا للقرينة .والأمثلة على التضمين كثيرة في نثر القلقشندي .

وأما الطريقة الأخيرة من طرق التناص الشعري فهي :

حل المنظوم : -

وهو أن يأخذ الكاتب بين الشعر الذي يحمل المعنى الجليل فيحلها من أسباب الشعر ؛ كالوزن والقافية ويصيغها في كلامه المنثور . ولعل الدافع وراء لجوء الكتاب للشعر ؛ أنه المادة الثالثة ، بعد القرآن الكريم و الحديث الشريف فهو ديوان العرب ، وأنفس علومهم في الجاهلية ، به فخرهم وإليه محتكمهم ، فهو أكثر كلامهم وفيه تستودع معانيهم . والحل متسع على المجيد مجاله ، يتصرف العارف به وينفق منه وقت احتياجه فيحسن نثره و توشيته [٣] .

---

[١] بشار بن البرد : الديوان جمعه ودققه السيد بدر الدين العلوي ، نشر وتوزيع دار الثقافة ، بيروت لبنان ، ١٩٨٣ ، ص ٢٢٣ والبيت (يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا)

[٢] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٧ ص ٣٠٠

[٣] المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٨١ _ ٢٨٢

لم يزد في نثره ، على أنه أزال رونق الوزن ، وحلاوة النظر لا غير [١] وهـــو إما يكون بالتقديم والتأخير ، أو أن يكون الشعر مما يصعب التقديم والتأخير فيه ، فيكون إما بالزيادة أو الحذف .

أما المرتبة الثانية في نثر المنظوم : أن ينثر بعض ألفاظه ، ويستخدم ألفاظـا أخرى عن باقي ألفاظ المنظوم ، مما ورد في نثر القلقشندي على هذا الضـــرب ، قوله : " وأما غير ذلك من الوصايا الراجعة إلى أدب القضاء ، فلديه منها الخـــبر والخبر ومنه تستلمى وصيته " [٢] وأصل هذا الكلام مأخوذ من قول أبي الطيـــب المتنبي : _

واستكبر الأخبار قبل لقائه   فلما التقينا صغر الخَبَرَ الخُبْرُ [٣]

حيث أبقى الكاتب المعنى العام لبيت الشعر ، وكذلك أخذ بعـــض ألفاظـــه " الخبر الخبر " وبنى المعنى بألفاظ أخرى ، خدمة لصفات المكتوب له .

وقد ينقل الكاتب البيت من الغرض الذي كتب فيه إلى غرض آخر ينـاســـب مرماه " فله أن ينقل المعنى إذا لم يفسر إلى ما شاء فإن كان نسيبا وتأتى لـــــه أن يجعله مديحا فليفعل وكذلك غيره من الأنواع " [٤] .

---

(١) الحلبي : حسن التوسل ، ص ٣٢٣ _ ٣٢٤

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ح ١ ، ص ٢٨٣

(٣) المصدر السابق ، ج ١١، ص١٩٣

(٤) نسب القلقشندي هذا البيت للمتنبي ويذكر أنه أخذه من قول أبي نمام :

كان مساءلة الركبان تخبرنـــي   عن أحمد بن سعيد أطيب الخبـــر
حتى التقينا فلا والله ما نعمـــت   أذني بأحسن مما قد رأى بصري

أنظر صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٣١١

ومن ذلك ما فعله القلقشندي حين حل بين ابن الرومي :

وحديثها السحر الحلال لو أنه   لم يجن قتل المسلم المتحرز (١)

فقال الكاتب : " فإن تكلم أتى من بيانه بالسحر الحلال ، أو حاور أتى من
البلاغة بما يقصر عن رتبته سحبان في المقال " (٢) وواضح أن بيت ابن
الرومي جاء في الغزل ، حيث يصف حديث محبوبته بالسحر الحلال ، فنقله
الكاتب من النسيب إلى المديح ، ومن ذلك أيضاً نقله لبيت الخنساء :

أغر أبلج تأتم الهداة به   كأنه علم على رأسه نار (٣)

والبيت من قصيدة قالتها الخنساء في رثاء أخيها صخر ، فعندما حوله
الكاتب للمديح في قوله : " لا زال جزيل إحسانه ، أوضح من نار على علم ،
ومزيد امتنانه ، يشمل أرباب السيف والقلم ، وسحب بنانه تسح فلا تشح لجزيل
كرمه " (٤) .

ومما جاء موافقاً للمعنى الذي وضع من أجله الشعر حله لبيت خالد بن
الوليد:

عند الصباح يحمد القوم السرى   وينجلي عنهم غيابات الكرى (٥)

الشاعر يقصد حميد فعلهم ، إذ سرى خالد بن الوليد بالجيش من العراق إلى الشام *

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٢٨٣
(٢) الخنساء : تماضر بنت عمرو بن الحارث ، (ت ٤٢ هـ) ديوان تحقيق أنور أبو سويلم دار عمار للنشر ، عمان الأردن ط ١٩٨٢ ، ص ٣٨٦
(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١٩٥
(٤) الميداني : مجمع الأمثال ، ج ٢ ، ص ٣ * (هكذا في صبح الأعشى ج ١ ، ص ٢٩٧ أما في مجمع الأمثال فيذكر أن خالد بن الوليد ، سرى من اليمامة إلى العراق) ج ٢ ، ص ٣

، إذ كان يسير ليلا . فحله الكاتب قريب من معناه بقوله : " وقابلوني بالجميل قبل المعرفة ، وعاملوني بالإحسان والنصفة ، فلما رأيت منهم ذلك حمدت مسراي وشكرت مسعاي " [١] فالكاتب يحمد صنيعه ، إذ أصر على الوصول لمهنة تجمع له كسب العيش ، مع التوصل مع العلم ، ومثل ذلك أيضا حله لبيت الأخنس بن كعب الجهني ، الذي قاله ضمن أبيات عقب قتله للحصين بن عمور الكلابي : -

تسائل عن حصين كل ركب　　　وعند جهينة الخبر اليقين [٢]

فحله وذكر معناه بقوله : " ورأس ذروتها العلياء وسنامها ، وجهينة خبرها وحقيبة وردها وصدرها ومبلغ أنبائها وسفيرها ، وزند رأيها المواري ومشيرها " [٣] ومرة أخرى في هذا المثال ، نجد الكاتب يحوره عما وضع له في الأصل ، حيث أن الشاعر أراد الفخر والاستهزاء بالحالة التي حال إليها عدوه ، ولكن الكاتب حول المعنى ليجعله في مدح صاحب الديوان ، وإظهار مقدرته على جمع العلوم ، وأنواع المعرفة وأنه الخبير في هذه الأمور كلها .

---

[١] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١٢٨
[٢] الميداني ، مجمع الأمثال ، ج ٢ ، ص ٣
[٣] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١٩٣

أما الطريقة الأخيرة من حل الشعر ؛ فهي أن يأخذ الكاتب من بيت الشعر معناه ، ويكسوه بألفاظ من عنده ، وهي أعلى الطرق رتبة ، فإن زاد في المعنى فتلك درجة متقدمة ،وإن لم يزد فإنه أحسن التصرف [١]

ومن ذلك ما فعله القلقشندي في بيت الشعر التالي : -

ونفس عصام سودت عصاما وعلمته الكر والإقداما [٢]

فقال حين حله نثرا : " إذ كنت في هذه الصنعة عصاميا لا عظاميا ، متهما لا تهاميا تعلقت منها بحبال القمر ، واستوقدت نارها من أصغر الشرر " [٣]

فطرق المعنى ودعمه بأن جاء بنقيضه " لا عظاميا "" والعظامي " من توارث الأمر عن آبائه ، فهو يبني على أثر سابق ، أما العصامي ؛ فهو يبدأ من عدم فيكون أعلى درجة ، ثم يؤكد الكاتب ما رمى إليه بقوله : " واستوقدت نارها من أصغر الشرر " أي أنه بذل في سبيل ذلك جهده ، وأعمل فكرة ، حتى وصل هذه الدرجة .

ومثل ذلك قوله : " فلم تلف لها بعلا يكون لها قرينا ، ولا كفئا تخطبه يكون لديها مكينا ، إلا الإمام الفلاني المشار إليه ، فدعته لخطبتها ، وهي في بيت عرسه " وراودته التي هو في بيتها عن نفسه " فأجاب خطبتها ، ولبى دعوتها ، لتحقيق رغبتها إليه ، وعلمه بوجوب إجابتها عليه ... " [٤] وهذا النص المأخوذ

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٢٨٨
(٢) الميداني : مجمع الأمثال ، ج ٢ ، ص ٢٣١ ولم ينسبه لقائله
(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١٢٧
(٤) المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ٣١٠

من بيعة مبنية على موت خليفة ، يعتقد الباحث أنه حـــلا لأبيـــات عبـــاس بـــن الأحنف:

أتته الخلافة منقـــادة إليـــه تجـــرر أذيـــالهـــا

فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لهـــا

ولو رامها أحد غيره لزلزلت الأرض زلزالها (١)

فقد ضمن الكاتب المعنى المراد في أبيات عباس بن الأحنف ، وزاد عليـها ، بأن عاضد المعنى بالآية القرآنية من سورة يوسف ، والتي تشي برغبـــة امـــرأة العزيز بيوسف عليه السلام .

الأمثال :

ومن التناصات الأدبية ؛ التناص مع المثل فهو كالرموز والإشارات ، التـــي يلوح بها على المعاني تلويحا ، إذ هي " وشي الكلام وجوهـــر اللفـــظ ، وحلـــي المعاني والتي تخيرتها العرب ، وقدمتها العجم ، ونطق بها في كل زمـــان علـــى كل لسان ، فهي أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة لم يسر شيء كســـيرها ولا عم عمومها " (٢).

وقد كثر ورودها في أدب القلقشندي ، ومن ذلك قوله في توقيع لقضـــاء : " نحمده على أن أعطيت القوس باريها ، وأعيدت مياه الاستحقاق إلى مجاريـــها ،

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٢٠

(٢) المصدر السابق نفسه ، ج ١ ، ص ٢٩٦

وردت الشاردة إلى مالك ألفت منه بالآخرة ما ألفت من خيره في مباديـــها " [١]

وجاء المثل في قوله : " أعطيت القوس باريها " والأصل في هـــذا المثـــل قـــول الشاعر :

يا باري القوس بريا لست تحسنها لا تفسدنها وأعط القوس باريها [٢]

ويذكر القلقشندي ، أن طريقة استخدام الأمثلة وتوظيفها ، تختلف عنها فـــي الشعر ، حيث أنه بإمكان الكاتب حل ما يشاء من الشعر ، أما المثل فليس له ذلـك فلا يجوز له تبديل الألفاظ ، ولا تغيير أوضاعها لأنها بذلك عرفت واشتهرت [٣] إلا أن الباحث يرى أن الكاتب لم يتقيد بذلك ، إنه يتصرف بالأمثلـــة ، وإن كـــان يبقي من ألفاظها ما يدل عليها ، حتى أنه يعمد أحيانا إلى عكس معنى المثل ، مـن ذلك قوله : " فلو غرست الشوك أثمر العنباء أنى أرادهـــا " [٤] وعكـــس هـــذا المعنى ، الذي ورد المثل بعدة صيغ منها : " من يزرع الشوك لا يحصـــد بـــه العنبـــاء " [٥] " وأعجز من جاني العنب، من الشوك " [٦] و" إنـــك لا تجنـــي مـــن الشوك العنـــب " [٧] .

---

(١) المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ١٩٠

(٢) الميداني : مجمع الأمثال حققه وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٥ م ج ٢ ، ص ١٩

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٣٠٢

(٤) المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ١٩٦

(٥) الميداني : مجمع الأمثال ج ٢ ، ص ٥٣

(٦) المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٣

(٧) المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٥٢

ولاحظ الباحث أن القلقشندي يعمل فكره في طريقة توظيف المثل حتى أن المتلقي لا يستشعر بأن المثل غريب عن كلام المتكلم ،ويحاول الكاتب في سبيل إدغام المثل فيما يكتبه على محورين : الأول أن يكون المثل مدعما للمعنى الذي يقصده ، فيصب في عمق الفكرة التي يبتغيها ، ومن جهة أخرى ، يعمل على محور الصياغة اللفظية ، فيكون التناسق مع سجعات الكاتب ، يدخل من خلالها المثل لجسد النص المراد تضمين المثل فيه ، من ذلك قوله في المفاخرة بين العلوم ، حين يتحدث عن السياسة قال : " أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب ، وسائسها الكافي وحاكمها المهذب .. " [1] والمثال الوارد في النص هو قوله : " أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب " [2] ويتضح المقام الذي يختاره فيه الكاتب إذ هو في مقام المفاخرة ، ولو رجعنا للمقام الذي قيل فيه المثل ، لوجدنا أن قائله الحباب بن منذر الأنصاري يوم السقيفة ، حين أراد الخلافة لنفسه . ومن ذلك قوله أيضا في رد علوم المعاني والبيان والبديع على علم النحو : " وحملت عليه بصدق العزم في اللقاء حملة ، وقالت : " جعجعة رحى من غير طحن ، وتصويت رعد من غير مزن " [3] .

فيفهم من العبارة أنها تأتي ردا على كلام سابق ، والمثل الوارد قوله : " جعجعة ولا أرى طحنا "[4]. على أن توظيف الأمثال ، تعدى رسائل المفاخرات

---

[1] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٢٢٤
[2] الميداني : مجمع الأمثال ، ج ١ ، ص ٣١
[3] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٢٠٨
[4] الميداني : مجمع الأمثال ، ج ١ ، ص ٦٦٠

إلى رسائل التقريض والمدح، وكما تخير في السابقة ما يناسب المواقف من أمثال ووضع لها ما يناسبها ، من حسن البداية والإتباع بالسجع ، كذلك نجده قد فعل في الرسائل الإخوانية ، من ذلك قوله في تقريض المقر الفتحي ، صاحب دواوين الإنشاء :" ومن ثم عز المطلب بهذه الوظيفة ، حتى أنه لأعز من الجوهر الفرد... ولا تظفر به إلا ظفرك ببيض الأنوق إن كان يظفر به ظافر ، على أنه ربما سمح الدهر فأتى بالفذ من هذا النوع في الزمن المتباعد ، أو أسعد الدهر فأسعف بالواحد بعد ألف واحد "(١) .

ولما أراد من حديثه تفرد صفات صاحب هذه الوظيفة أي صاحب الديوان وندرة من تنطبق عليه الشروط ، فقد جاء بالمثل الذي يفيد ندرة الشيء ، فكان المثل قوله :" إلا ظفرك ببيض الأنوق " وهو من المثل القائل " أعز من بيض الأنوق " (٢) .

وله صيغة أخرى " ودونه بيض الأنوق " (٣) وكلتاهما تدلان على التفرد والندرة . ومن خلال استقراء النصوص الإبداعية للقلقشندي ، يجد الباحث أن التناص مع المثال أخذ حيزا واسعا ، يكاد يكون أكثر التناصات ورودا ، حتى أن الفقرة الواحدة تأخذ أكثر من مثال ، ولعل ذلك يدل على ما تحتويه جعبته من الأمثلة ، ومقدرته الواضحة على توظيفها ، توظيفا لا يخل بالنص الذي تدخل فيه

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ١٩٣
(٢) الميداني : مجمع الأمثال ، ج ٢ ، ص ٤٤

(٣) المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٢٦٤

، ومن ذلك ما ضمنه المفاخرة بين العلوم " فعندما غضب علم النحو واكفهر ، وزمجر واشمخر ، وقال : يا لله استننت الفصال حتى القرعا واستنسر البغاث ، فكان أشد ثلمة وأعظم صدعا لقد ادعيت ما ليس لك ففاتك الحبور ، ومن تشبع بما لم ينل فهو كلابس ثوبي الزور وهل أنت إلا بضعة منى تستند إلي وتنقل عني ... " [١] . وهذا النص المجتزأ ، والذي يرد فيه علم النحو على علم التصريف ، ويحاول التقليل من شأنه ، فيجلب الكاتب من أجل ذلك أربعة أمثلة ، في نص لا يتجاوز ثلاثة أسطر ، وكلها تفيد تبجح الضعيف الذي لا حول له ولا قوة فالمثال الأول قوله : " استننت الفصال حتى القرعا " [٢] والثاني قوله : " استنسر البغاث " وهو من المثل القائل : " إن البغاث بأرضنا يستنسر " [٣] والمثل الثالث قوله : " من تشبع بما لم ينل كلابس ثوب الزور " . و الرابع قوله : " ادعيت ما ليس لك ففاتك الحبور " .

ومن الأمثلة ما أوردها الكاتب للاستدلال سداد الرأي قوله : " أصبت سواء الثغرة ، وجئت بالرأي الأكمل ، وعرفت من أين تؤكل الكتف ، فطبقت الفصل بالمفصل ... " [٤] وهذا من المثل القائل إنه ليعلم من أين تؤكل الكتف [٥] وبموضع آخر : " أعلم من أين تؤكل الكتف " [٦] ومثل هذا التوظيف ، قوله في

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٢٠٧
(٢) الميداني : مجمع الأمثال ، ج ١ ، ص ٣٣٣
(٣) المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ١٠

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٢٢٨
(٥) الميداني مجمع الأمثال ، ج ١ ، ص ٤٢
(٦) المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٢

خطبة صداق ، كتبها لسيف الدين صدقة سيفي ازدمر ، على بنت أمير المؤمنين المتوكل على الله ، فلما كان الفارق الطبقي بين الخاطب سيف الدين والمخطوبة ابنة أمير المؤمنين ، وانعدام التكافؤ الاجتماعي والتكافؤ في النسب ، فلا بد للكاتب من البحث عن صفات أخرى ، تخرج الصداق المخرج المناسب ، فنعت ابنة أمير المؤمنين بالعلم والدين ، وجعل هاتين الصفتين من صفات الخاطب ، ويدعم الفكرة بمثل حمل قصة قديمة تشي بالمعنى المراد ، يقول الكاتب : " ومقدما لهم بالمصاهرة على أبناء الملوك والخلفاء ، فوافق الفضل شن طبقة ، وحاول سارة النعم منها خير خاطب فتلقى بقبول : أن الله تصدق عليكم صدقة " [1] والمثال الذي حدث فيه التناص " وافق شن طبقة " [2] ولا يخفى ما فيه من مناسبة للقصة .

على أن القلقشندي قسم الأمثلة من حيث سهولة الفهم ، وقرب التناول إلى قسمين : الأول ، قريب الفهم ، كقول خالد بن الوليد : " عند الصباح يحمد القوم السرى " [3] وبعيد الفهم كقول بعضهم : " أن يبغي عليك قومك لا يبغي عليك القمر " [4] ويضرب لمن ينكر الأمر الظاهر عنادا [5] .

---

[1] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٢٠ _ ٣٢١
[2] الميداني : مجمع الأمثال ، ج ٢ ، ص ٣٥٩
[3] المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٣
[4] المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٢١

[5] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٢٩٧

وقد أفرد القلقشندي قسما من الجزء الأول في كتابه صبح الأعشى للأمثال ، وتحدث فيه عما يحتاجه الكاتب في الأمثال ؛ منثورها ومنظومها ، وما ورد في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، والكتب المصنفة في ذلك ، وتحدث عن قديمها وحديثها ، وتحدث عن كيفية استعمال الأمثال ، وما استعمله أهل الصناعة من هذه الأمثال ، وضرب أمثلة على ذلك ولم يتوقف القلقشندي عند ذلك ، بل أورد الكثير من القصص المتعلقة بولادة الأمثال (١) .

التناص التاريخي :

وهو اختيار الكاتب لنصوص تاريخية مختارة ، ودمجها مع النص الأصلي(٢) ، وقد يتعدى ذلك ، لاستخدام أسلوب التلميح من خلال إدخال أسماء أعلام ، أو الإشارة لحوادث معينة ، يوظفها الكاتب لتخدم غرضه من الناحية الفكرية ، أو الفنية .

وتظهر التناصات التاريخية في إنشاء القلقشندي على اختلاف أنواعه ؛ الديواني والاخواني والمقامي ، وكذلك في المفاخرات والكتابة العلمية .

ومما جاء في الكتابة الديوانية ، قوله في بيعة مرتبة على موت خليفة :"خصوصا من جاء بالصدق وصدق به فكان له قرابة وصفوة الصفا،والمرجوع إليه في البيعة يوم السقيفة ، بعدما اشرأبت نحوها نفوس كادت تذوب عليها أسفا

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٢٩٥ _ ٣٠٥
(٢) أحمد الزعبي ، التناص نظريا وتطبيقيا ، ص ٢٥

،والقائم في قتال أهل الردة من بني حنيفة ،حتى استقاموا على الحنفية السمحة حنفا ، وعمت فتوحة الأمصار وحملت إليه أموالها فلم يمسكها إقتارا ولم يبذر فيها سرفا ،ومن كان فضله لسهم الاختيار من بين الصحابة الشورى هدفا ، وجمع الناس في القرآن على صحيفة واحدة وكانت قبل ذلك صحفا " (١).

والناظر في هذا النص القصير ، المجتزأ من البيعة ، يجد فيه إشارات لحوادث تاريخية ، كان لها الدور الفاعل في كيان الأمة الإسلامية في الوقت اللاحق ، حاول الكاتب توظيفها إظهارا لأهمية الخلافة ، والإمامة ودورها الرئيس في استقامة الحياة للرعية ، كل ذلك خدمة للفكرة التي يحملها النص الكامل في البيعة وهي جلب الطاعة للخليفة الجديد ، وما ضرب هذه الأمثلة إلا ليضع الناس على صورة ما ستكون عليه الرعية والبلاد ، لو أن أمرهم لم يستقم للخلافة والخليفة .

ومن هنا فقد جاء حديثه عن الخليفة الأول أبي بكر الصديق ، فتحدث عن مواقفه ، ولعل من أهمها يوم السقيفة ، وهو اليوم الذي كاد يدب فيه الخلاف بين الأنصار والمهاجرين ، كل يريد الخلافة ، وحديث سعد بن عبادة ، ويخرج من هذا التناص لحدث ربما كان أكبر ؛ وهو حرب الردة ، وما يحمله هذا الحدث التاريخي من أسئلة ، يطرحها المتلقي حولها ، وماذا تكون الأسئلة زمن هذه البيعة في عصر الكاتب ؟ والنص الغائب فيها مقولة أبي بكر "والله لو منعوني

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٣٠٩

عقال بعير كانوا يؤدوه لرسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ لقاتلتهم عليه ، هـــذه الأحداث التي يصدم بها الكاتب متلقي النص ، و يجعلها مرآة مجاورة ، لينتقل لها أفق التلقي لتكتمل الفكرة التي هي هدف البنية في النص ، فبعد المصاعب ؛ تكون تناصات الجذب كالانتصارات ، و ما عادت به من غنائم ، من الناحيـــة الماديـــة وتناص معنوي يفيد في أفق الحرية وهو أقرار الشورى، ثم الناحية الروحية للدنيا لما لها من آثار في نفس المسلم ، فيعرض لحادثة جمع المصحف .

ومن النصوص التي تحمل الصفات التاريخية ، وتدخل تناصا في البيعة مـــا يسمى بأيمان البيعة ، وهي أيمان مغلضه مطولة ، ليس فيها من الديـــن شـــيء و إنما بدأت تاريخيا ، أخذ الحجاج بن يوسف الثقفي البيعة على أهل العراق للخليفـة الأموي عبد الملك بن مروان ، ومن بعده ولديه الوليد وســـليمان ، ثـم أتخذهـا الكتاب يكتبونها في نسخ البيعات [1] ، وفي نسخة عهد أنشأها الكـــاتب ، يدخـل تناصا تاريخيا يحاول من خلاله إظهار شرعية العهد لمن يختار الخليفة يقـول : " ... ومن ثم اختلفت آراء الخلفاء الراشدين في العهد بالخلافة ، وتباينت مقـاصدهم وتنوعت اختياراتهم ، بحسب الاجتهاد واختلفت مواردهم ، فعهد الصديـــق إلـــى عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ متثبتا وتركها عمر شورى في ستة وقـال : " أتحمل أمركم حيا وميتا " وأتى _ رضي الله عنه _ لكل من المذهبين لما أذعن له الخصم وسلم ، فقال : " إن أعهد فقد عهد من هو خير مني أبـــو بكـر ، وإن

---

(1) انظر القلقشندي :صبح الأعشى ج٩:ص٣١٢ _٣١٣ /ج٩،ص٣١٨-٣١٩

أترك فقد ترك من هو خير مني ، رسول الله ﷺ فأخذ الخلفاء في ذلك بسـنتهما " [١] يلاحظ الدارس أن الكاتب وظف هذا التناص ، كتعبير يقدم به للمتلقي لتهيئتـه ليتقبل تعيين ولي العهد من قبل الخليفة .

والتناص التاريخي الآخر وهو التناص مع أسماء شخوص وأكثر ما يقع فـي الرسائل الإخوانية ، والعلمية فمن الرسائل الإخوانية قوله : " على إنـي اسـتقيل عثرتي من التقصير في إثرائة ، والتعرض من مدحة لما لا أنهض بأعبائه ، فلـو أن " الجاحظ " نصيري ،" وابن المقفع " ظهيري و" قس بن ساعدة "

فيسعدني ، " وسحبان وائل " ينجدني ، لكان اعترافي بالعجز في مدحه أبلغ مما آتيه " [٢]، يلاحظ الدارس أن الكاتب اختار الأسماء بعناية ، وإنـها ترمـز لعلوم شتى وأساليب مختلفة ، فيها رؤوس علومهم وأسـاليبهم ، حـاول الكـاتب توظيفها لإخراج ممدوحه بصورة المتمكن من علمه وعملـه ، وبذلـك يظـهره الكاتب كمثال للنموذج لا يستطيع إفائه حقه .

---

[١] المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٣٧٢
[٢] المصدر السابق نفسه ، ج ١٤ ، ص ١٩٧

الفنون البديعة :

والبديع : "علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة " [(١)] وقريب من ذلك تعريف ابن خلدون حيث يقول : " هو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنسيق " [(٢)]

ولما كان هذا العلم يعود إلى علم أشمل ، وهو علم البلاغة ، فإن جذوره تضرب في أعماق الآداب العربية ، حتى تجد فنونه منتشرة في الأشعار والخطب الجاهلية ، ولعل مرد ذلك ما فيه من تحسين وتزيين للكلام ، وهذا ما يسعى له الكاتب أو الشاعر ، فعدم معرفتهم لتسميات فنونه ، لا يعني عدم استخدامه كما هي أوزان الشعر التي وضعها الخليلي ، والتي قعد لها من خلال أشعار الجاهليين الذين نظموا عليها دون إدراك أوزانها ومسمياتها .

وقد ظهرت أولياته عند الشاعر العباسي مسلم بن الأنصاري المتوفى سنة (٢٠٨ هـ) ، ولربما كانت محاولة إبن المعتز [(*)] أول محاولة علمية في علم البديع ، وهو شاعر مغرم بالبديع ، ترك عددا من المؤلفات وصل إلينا منها ديوانه الشعري ،وطبقات الشعراء ، وكتاب البديع .[(٣)] أما الجاحظ فقد حصر

---

(١) القزويني ، جلال الدين محمد بن عبدالرحمن : الايضاح في علوم البلاغة ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ص ١٩٢

(٢) عبد العزيز عتيق : علم البديع ، دار النهضه العربيه للطباعه والنشر ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ص٧ نقلا عن ابن خلدون : المقدمه ص ١٠٦٦

(*) هو الخليفة ابو العباس بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد (٢٤٧_٢٩٦هـ)

(٣) عبدالعزيز عتيق :علم البديع ،ص١٢

البديع في العرب ،ويرى أنه بسببه فاقت لغتهم باقي اللغات ،وفازت باشتمالها عليه على كل لسان .(١)

وما أن نصل العصر المملوكي حتى نجد البديع وقد طغى عل كل المذاهب الفنية فيه حتى يصفه بعض الباحثين بعصر البديع (٢)

وهكذا انتشر فن البديع في العصر المملوكي انتشارا واسعا ، وكذلك امتاز حسنا في إبداعه ، فيصفه صلاح الدين الصفدي بقوله :" فلما كان البديع في الزمن المتأخر أحسن بدعه ، وأوضح لمعة ، وأملح طلعة ، وأكثر رواية واسعة ولا أقول رياء وسمعة به تبنى بيوت الشعر في أشرف بقعة ، وتبرز أبكار الأفكار منه في خلعة بعد خلعة ،وإذا كان الشعر بحرا فهو منه أعذب جرعة والمكاتبات حلة مرموقة فهو طراز كل رقعة " .(٣)

أما حول فنون البديع التي تشاهد في أدب القلقشندي فهي كثيرة منها :

السجع : مشتق من سجع ، فلعله من سجع الحمام حيث يقال : سجعت الحمامة سجعا إذا رجّعت في صوتها على حد واحد ، أو أنه مأخوذ من الساجع أي المستقيم لاستقامته في الكلام واستواء أوزانه ، والأصلان يشتركان في معنى التوازن والاعتدال ، وتتابع مقاطع الفصول في ذلك (٤) ومن هنا جاء السجع في

---

(١) الجاحظ:ابوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ :البيان والتبين ،تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون ،دار جيل ،بيروت ١٩٩٠،ج٤ص٥٥

(٢) عمر موسى باشا :ادب الدول المتتابعه ،دار الفكر الحديث ،ط١ ١٩٦٧ص٦٣٦

(٣) الصفدي ، صلاح الدين بن خليل بن ايبك (٧٦٤هـ-١٣٢٨م) : جنان الجناس ، تحقيق سمير حسين حلبي دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ص ١٤-١٥

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج٢ ص٢٨٠

الاصطلاح على أنه " تقفية مقاطع الكلام من غير وزن " (١) فيصبح الكلام بفواصل كفواصل الشعر (٢) ، ولعل هذا ما قصده السكاكي بقوله " السجع في النثر كالقوافي في الشعر " (٣) ، وليس بعيد من ذلك ما ذهب إليه آخرون ، بقولهم : " تواطؤ أو توافق الفواصل من الكلام المنثور على حرف واحد " (٤) .

ويرى شهاب الدين محمود الحلبي ، أنه لابد وأن تكون كلمات الأسجاع ساكنة الإعجاز موقوفاً عليها ، ويعلل ذلك بقوله : " لأن الغرض أن يجانس بين القرائن ويزاوج بينها ، ولا يتم ذلك إلا بالوقوف ، فلو ذهبت تصل لم يكن بد من إعطاء أواخر القرائن ما يقتضيه الإعراب ، فتختلف علينا القرائن ويفوت الساجع غرضه " (٥) والسجع من أوائل فنون البديع ، التي عرفت باسمها منذ العصر الجاهلي ، واستقل منه نوع عرف بسجع الكهان ، أن السجع كثر وروده في القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، أما حول جواب الرسول على أحدهم بقوله : " أسجعا كسجع الكهان " (٦) فذلك يفسر بوجوه عدة ، منها : أنه ربما كره حكم الكهان الوارد باللفظ المسجوع بإنكار إيجاب الديه، لا نفس السجع لذاته فصاحب الصناعتين يعطي السجع المكانة العالية في النثر ، حتى أنه يرى أن

---

(١) المصدر السابق : ج٢ ص٢٨٠

(٢) الكلاعي الأندلسي ، محمد بن عبد الغفور : أحكام صنعة الكلام ص ٢٣٥

(٣) السكاكي أبو يعقوب يوسف بن ابي بكر محمد بن علي ، ت ٦٣٦ هـ : مفتاح العلوم ٣٢٨ ، ص٣٢٨

(٤) انظر ابن الأثير ، ضياء الدين نصر الله بن الأثير ت (٦٣٧ هـ) : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ج١ ص١٩٣ / والقزيوني : الايضاح ص٢٢٢ / وعبد العزيز عتيق علم البديع ص٢١٥

(٥) الحلبي : حسن التوسل الى صناعة الترسل ص٢٠٦

(٦) القلقشندي صبح الأعشى ج٢ ص٢٨١

الكلام المنثور" لا يحلو حتى يكون مزدوجا ، ولا تكاد تجد لبليغ كلاما يخلو من الازدواج ، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن الكريم "[١] ويكاد السجع يسيطر على كتابات الكتاب في العصر المملوكي ومن بينهم القلقشندي .

ويرى القلقشندي أن السجع يعود في مجمله إلى صنفين .

الأول : ما أسماه بالسجع الحاني ، وهو الذي تكون فيه القرينتان متفقتان في حرف الروي ، ويذكر الكاتب أن أكثر ما يكتبه كتاب عصره من هذا النوع ، وقد لاحظ الباحث أنه لا تكاد تخرج رسالة من رسائل القلقشندي ؛ سواء الديوانية أو الأخوانية أو العلمية عن هذا الصنف ، وقد رتب القلقشندي هذا الصنف ثلاث مراتب :

جعل أولاها : التصريع ، وهو ما تكون فيه ألفاظ القرينتين مستوية الأقران ، متعادلة الأجزاء [٢] وأمثلة ذلك وافرة في كتابات القلقشندي ، ومنه ما أورده في كتبه على لسان الخليفة لولده ، يقول : " فلا يعزم أمرا إلا كان رشادا ، ولا يعتمد فعلا إلا ظهر سدادا " [٣] ، ومن العهد نفسه قوله : " ولا يليق بمنصبها الشريف من كان بمطلوبها مليا ، والأحرى بمكانها الرفيع من كان بمقصدها وفيا " [٤] ومن ذلك ما كتبه في بيعة مرتبة على موت خليفة ، قوله : " فلم تلف لها

---

(١) العسكري : الصناعتين ، ص٢٨٥
(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج٢ ص٢٨٢
(٣) المصدر نفسه : ج٩ ص ٣٧٢
(٤) المصدر نفسه : ج٩ ص٣٧٣

بعلا يكون لها قرينا ، ولا كفء تخطبه يكون لديها مكينا " [١] ، ومن بيعة أخرى مرتبة على خلع خليفة : " وخلعوه عن ولايته ، وخرجوا عن بيعته ، وانسلخوا عن طاعته وجردوه من خلافته " ، وكذلك ما يورد في الإيمان المترتبة على نقض البيعة : " لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا ، ولا يؤجر على شيء من ذلك ، قولا ولا فعلا " [٢] ومن ذلك ما جاء أيضا في توقيع كتبه لنظر الصادر : " ويشغف الأسماع بوعظه ، ويشج القلوب بلفظه ، ويحيي العقول بتذكيره ، ويبكي العيون بتحذيره " [٣] وقد وجد الباحث أنه وقع في شعر القلقشندي التصريع ، ومثال ذلك ما وجده في رسالة تهنئه ، كتب فيها للمقر الأشرف الناصري محمد بن البازري ، يهنئه فيها بعيد الفطر يقول :

سألت نظام الملك كاتب سره   أزالة ضنك أرهف الدهر حده
فمن بجاه زعزع الأرض وقعه   وجاء بمال لا يرى الفقر بعده " [٤]

المرتبة الثانية : أن يختص التوازن بالكلمتين الأخيرتين من الفقرتين ، دون ما عداهما من سائر الألفاظ ، وهذا مما يكثر في كتابات القلقشندي ، من ذلك ما جاء في صدر خبر يقول : " ... وحضرة الوزارة السامية في نعم مخصبة الأكناف ، بعيدة الأطراف ، سادرة الويل ، ساحبة الذيل وما انظر فيه من أمر

---

[١] المصدر السابق : ج٩ ، ص٣١٠
[٢] المصدر السابق نفسه : ج٩ ، ص ٣١٠
[٣] المصدر السابق نفسه : ج١١ ، ص٤١٨
[٤] المصدر السابق نفسه : ج٩ ، ص٤٥

دولته منتظم ، وما أراعيه من أحوال رعيته ملتئم "[١] ، ويظهر للناظر هذا التوازن في قوله : " مخصبة الأكناف بعيدة الأطراف " " سادرة الويل – ساحبة الذيل "و" دولته منتظم – وما رعيته ملتئم " ، ومثل ذلك ، نجده في نسخة عهد كتبه القلقشندي : " وسنة نبيه محمد _ صلى الله عليه وسلم _ عليك الاقتداء بأفعالها الواضحة والإصغاء لأقوالها الشارحة "[٢] ويظهر التوازن هنا بقول " بأفعالها الواضحة – لأقوالها الشارحة " ، ويطلق شهاب الدين الحلبي على هذا النوع اسم التوازي [٣] .

الرتبة الثالثة المطرف : وهو أن يقع الاتفاق في حرف الروي ، مع قطع النظر عن التوازن في شيء من أجزاء الفقرة[٤] ، ومثله كثير مما كتب القلقشندي ، كقوله : " سالكا من مناهج التقوى أحسن المسالك موردا من تحقيقات مذهبه ما إذا لمحه اللامح ، لم يشك أنه لزمام المذهب مالك "[٥] والاتفاق واضح في حرف الكاف في قوله ' المسالك – مالك " ومثاله أيضا قوله : " أن نخص أخص الأولياء بأسنى الولايات ، ونتحف أصغى الأصفياء بنهاية غيره في البدايات ، ونرفع قدر من لم يزل ظهره للملوك محرابا ، وننوه بذكر

---

[١] القلقشندي صبح الأعشى ج٩ ص٢٢١

[٢] المصدر نفسه ج٩ ص ٣٧٥
[٣] الحلبي : حسن التوسل ص٢٠٩
[٤] القلقشندي صبح الأعشى ج٢ ص ٢٨٣
[٥] المصدر نفسه : ج١١ ، ص٢٢٤

من رغبة فيه الوظائف فعدلت إليه عن سواه إضرابا " [١] ويلحظ الدارس ، التوافق في حرف الروي ، التاء في السجعتين الأوليين " الولايات – البدايات " والأخيرتين في الباء " محرابا – إضرابا " أما الصنف الثاني من السجع ، فهو ما يسميه القلقشندي بالازدواج و الرماني يسميه بالعاطل ، وهو أن تختلف حرف الروي في آخر الفقرتين [٢] ولم يجد الباحث له من أمثلة فيما بين يديه من كتابات القلقشندي ، إذ أن القلقشندي يكاد يلتزم بحرف الروي في جميع كتاباته الإبداعية ، فحينا نجد الالتزام بين كل فقرتين كقوله في نسخة صداق ؛

قال:"نحمده على أن صان عقائل الخلفاء بمعاقل الحسب ، وحصر كفاءتها في العلم والدين ، حيث لم يكافأ بحرفة ولا نسب ،ونشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له الذي سن النكاح وشرعه ، وأرغم بالحل أنف الغيرة لدى الآباء وقمعه ، شهادة يستنشق من ربا عبيرها كل شذى أريج ،وتجنى ثمار ينعها بشريف النتاج من كل زوج بهيج [٣] ويظهر التوافق في حرف الروي بين كل فقرتين في الأوليين الباء في " الحسب والنسب " والثانيتين حرف الهاء في " شرعه وقمعه " والأخيرتين حرف الجيم في " أريج وبهيج " ومن مثال التوافق بين ثلاث فقرات قوله فيما كتبه في عراضة الكتب : " الحمد لله الذي أطلع من دراري الأفاضل في أفق النجابة شمسا ، وأظهر من أفضل الدراري ما يغض به

---

[١] المصدر السابق : ج١١ ، ص٤١٧
[٢] المصدر السابق نفسه : ج٢ ، ص٢٨٣
[٣] المصدر السابق نفسه : ج١٤ ، ص٣١٩

المخالف طرفا ، ويرفع به المحالف رأسا ، وألحق بالأصل الكريم فرعه في النجابة فطاب جنى وأعرق أصلا وزكا غرسا " [1] والتوافق واضح على حرف السين في الفقرات الثلاثة " شمسا – غرسا – رأسا " وقد قسم القلقشندي السجع من حيث الطول والقصر إلى قسمين ، السجعات القصار ، والسجعات الطوال ، والقسمان متوفران فيما كتبه القلقشندي فمن السجعات القصار ؛ قوله في صدر أخبار : " ومولانا أمير المؤمنين من توطن في خلافته ، وتمهد من دولته ، وعلو من رأيه ونفاذ من كلمته ، وعز من سلطانه ، وارتفاع من شأنه ، ونعم سابغة عليه وعلى أهل طاعته ، قالصة عن أعدائه وأهل مخالفته ، واستقامة من أطرافه وثغوره وانتباب من أحواله وأموره " [2] والمقصود بالسجعات القصار ما نقص عن عشرة ألفاظ [3] وفيها يقول شهاب الدين الحلبي : " قصر الفقرات تدل على قوة التمكن وإحكام الصنعة وأقل ما يكون من كلمتين " [4] أما ابن الأثير فقد وصفها بصعوبة المسلك ، وبعد المنال ، وندرة الاستعمال ، وإنها كلما قلت كلماتها زادت حسنا [5] ولكن الباحث وجد منها الشيء الكثير في إنشاء القلقشندي ، ومن ذلك قوله : " قد نور الله عين بصيرته ، وخصه بطهارة سره وصفاء سريرته أما ما ورد على سجعتين فإن الباحث لم يعدمه في نثر الكاتب كقوله في

---

(1) المصدر السابق : ج١٤ ، ص٣٣١

(2) المصدر السابق نفسه : ج٩ ، ص ٢٢١

(3) المصدر السابق نفسه : ج٢ ، ص٢٨٦

(4) الحلبي : حسن التوسل ، ص٢١٣

(5) ابن الأثير : المثل السائر ، ج١ ، ص٣٧٢

نسخة عهد : " من عهد ووصاية ، وعزل وولاية ، وتفويض وتقليد ، وانتزاع وتخليد ، وتفريق وجمع ، وإعطاء ومنع ، ووصل وقطع وصلة وإدرار وتقليل وإكثار ، جزئيها وكليها ، وخفيها وجليها ودانيها وقاصيها وطائعها وعاصيها ، ... " [١] وآتاه الله الملك والحكمة ، واقامة لمصالح الرعية وصالح أمر الأمة [٢]

أما السجع الطويل ، فيرى الحلبي أنه ؛ ألذ لسمع السامع لما فيه من تشويق لما يريد السامع سماعه [٣] وهذا مما كثر وروده في نثر القلقشندي ، فمن بيعة مرتبة على خلع خليفة قوله: " وأغاث الخلق بامام هدى حسن سيرة وصفاء سريرة ، فراق صورة ورقى معنى ، وجمع قلوبهم عليه فلم يستنكف عن الانقياد إليه أعلى ولا أدنى ، ونزع جلبابها عمن انشغل بغيرها ، فلم يعيرها نظرا ، ولم يصغي لها أذنا ، وصرف وجهها عمن أساء فيها تصرفا ، فلم يرفع بها رأسا ولم يعير لها معنى " [٤] ويرى القلقشندي أنه على الكاتب أن لا تتعدى سجعته الأولى عشرين لفظة ، والثانية تسع عشرة لفظة ، ذلك لأن هذا العدد أقصى ما وصلت إليه فواصل القرآن الكريم ، غير أن ابن الأثير والحلبي يريان غير ذلك ، وأنه لا ضابط لطول السجعات "[٥]

---

(١) القلقشندي صبح الأعشى ج٩ ص٣٧٤-٣٧٥
(٢) المصدر نفسه ج٩ ص٣٧٢
(٣) الحلبي : حسن التوسل ص٢١٣

(٤) القلقشندي صبح الأعشى ج٩ ص٣١٣
(٥) المصدر نفسه : ج٢ ، ص٢٨٧

أما من حيث ترتيب السجعات طولا وقصرا ، فيذكر القلقشندي أن أفضل السجع ما يكون فيه توازن بين السجعتين ، وإذا طالت احداهما فيفضل أن تكون الثانية لما يذكره ابن الأثير من أن السامع يشعر بالبتر إذا ما طالت الأولى وقصرت الثانية ، ويشير الحلبي إلى أنه ينبغي عدم طول الثانية حتى تخرج عن الاعتدال ، وأنه يستقبح حينئذ لأنه يبعد القافية على السامع ، فيقل الالتذاذ لسماعها (١).

وينبه الكاتب على أنه يجب أن يكون السجع بريئا من التكلف ، خاليا من التعسف ، محمولا على ما يأتي به الطبع ، وتبريه الغريزة ، وأن يكون اللفظ فيه تابعا للمعنى بأن يقتصر من اللفظ على ما يحتاج إليه المعنى دون الاتيان بزيادة أو نقص ، تدعو إليه ضرورة السجع ، حتى لو خرجت زيادة أو نقص ، بسبب السجع دون المعنى ، خرج السجع عن حيز المدح إلى حيز الذم (٢)

---

(١) المصدر السابق : ج ٢ ، ص٢٨٨

(٢) المصدر السابق نفسه : ج٢ ، ص٢٩٠

الجناس :

وهو أحد الفنون البديعية ، وقد أختلف في حد تعريفه ، فالصفدي يقول : " إنه سمي جناسا لمجيء حروف ألفاظه من جنس واحد ومادة واحدة ، ولا يشترط تماثل جميع الحروف بل يكفي في التماثل ما يقرب به في المجانسة ، وتظهر هذه الفائدة في ذكر حدوده ، وكشف ماهيته " (١) أما الرماني فيعرفه بأنه : " بيان المعاني بأنواع من الكلام يجمعها أصل واحد من اللغة " (٢) وأما ابن الأثير فيقول : " الجناس فهو : أن يكون اللفظ واحدا والمعنى مختلفا " (٣) ومن هنا يظهر الاختلاف بين تعريف ابن الأثير ، والتعريفات السابقة ، اذ يشترط الاختلاف في المعنى مع توحد اللفظ ، ولكن هنالك من لم يتطرق لقضية المعنى اختلافا واتفاقا كصاحب الصناعتين بقوله : " التجنيس أن يورد المتكلم كلمتين ، تجانس كل واحدة منهما صاحبتها في تأليف حروفها "(٤) ويأتي الحلبي بتعريف يوافق فيه تعريف ابن الأثير ، إلاّ أنه يدخل فيه تقسيمات الجناس : " التجنيس يتشعب شعبا كثيرة فمنه المستوفي التام وهو أن يجيء المتكلم بكلمتين متفقتين لفظا مختلفتين معنى ، لا تفاوت في تركيبهما ولا اختلاف في حركاتهما ، ومنه المختلف ويسمى التجنيس الناقص وهو مثل الأول في اتفاق حروف الكلمتين ، إلا

---

(١) الصفدي ، جنان الجناس ص ٢٥-٢٦

(٢) الرماني ، ابو الحسن بن عيسى الرماني (٢٩٦-٣٨٤هـ) : النكت في اعجاز القرآن تحقيق محمد خلف الله و محمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر ط٣ ، ١٩٧٦ ص٩٩

(٣) ابن الأثير المثل السائر ، ج١ ص ٢٤٦

(٤) العسكري : الصناعتين ص٣٥٣

أنه يخالفه إمّا في هيئة الحركة أو بالحركة والسكون ، ومنه المذيل ، فيقال له التجنيس الزائد والناقص ، وهو أن تجيىء بكلمتين متجانستي اللفظ متفقتي الحركات ، غير أنهما يختلفان بحرف إما من آخرهما أو أولهما " [١]

وينقسم الجناس إلى قسمين تام وغير تام ، والجناس التام ما اتفق فيه اللفظان في أربعة أمور : أنواع الحروف ، وأعدادها ، وهيئتها الحاصلة من الحركات والسكنات ، وترتيبها وهو أكمل أنواع الجناس إبداعا وأسماها رتبة " [٢]

.

والجناس التام ينقسم الى ثلاثة أضرب :

الأول الجناس المماثل : وهو ما كان ركناه من نوع واحد ، من أنواع الكلمة كأن يكونا اسمين أو فعلين أو حرفين : [٣]

ومن الجناس المماثل المرتب على اسمين فيما جاء بإنشاء القلقشندي ، قوله : " لا زال يظهر في مشاهد الملوك أتم المصالح ، ويخص الصالح منهم بمزيد النظر حتى يقال ما أحسن نظر الناصر في مصالح الصالح " [٤] والجناس واضح بين " الصالح " الأولى بمعنى صاحب الاستقامة والخير ، و " الصالح " الثانية اسم العلم وكذلك " النظر _ نظر " فالنظر الأولى بمعنى الإحسان والاهتمام ، والثانية بمعنى الرعاية والعناية ، وفي النص نفسه نجد الجناس بين "

---

(١) الحلبي : حسن التوسل ، ص ١٨٣-١٨٨

(٢) عبد العزيز عتيق : علم البديع ، ص ١٩٧

(٣) المرجع نفسه ، ص١٩٧

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٢٤٣

المصالح _ مصالح " الأولى بمعنى الاستقامة والتهذيب والحسن من الشـــيء ، " ومصالح " الثانية ؛ بمعنى التولية ، إدارة مرفقا ، أو عملا يدير شــؤونه . وفـــي التوقيع نفسه يجد الباحث جناسا بين اسمين : " وبسوق مناظرته يتميز النظار عـن الشّبَه ، وبمحك مطارحته تبين الحقائق من الشُّبَه ، وبمعركة فرسانه تعرف مـــن الفاضل من المفضول " [١] فنجد جناسين الأول بين " الشّبه الشّبَه " ، " الشّـبَه " من التَشَبّه والتَشابه التماثل " الشّبَه " ، جمع شُبْهَة وهو الأمر الملتبس الصعـــب الوصول لحقيقته ، والجناس الثاني بين الفاضل والمفضول والفاضل ، اسم فـاعل من " فضل " والمفضول اسم مفعول منه ، فهي علــى وزن فـاعل ومفعـول . ونلاحظ أن القلقشندي اعتمد على الصيغة الصرفية في إخراج هــذا الجنـاس ، وعلى الحركات في الكلمتين السابقتين . ومثل ذلك في توقيع آخر للتدريس يقـول : " وجعل صدقتها الجارية بُرّا فكانت أعظم بِرّا وأعظم منفعة " [٢] .

فجانس بين " بُرّا " وهو اسم للقمح ، إذ كان صلاح الدين يعطي المدرســين بالمدرسة الصلاحية أجورهم قمحا ، والثانية " بِرا " بمعنى إحسان ومنفعة مـودة . ومثل ذلك كثير قوله في المقامة : " لولا قلم الحساب ، لأودت ثمرة الاكتســاب ، ولا تصل التغابن ليوم الحساب " [٣] جاء الجناس بيــن " الحســاب " أي كتـاب الحساب ، و " الحساب " يوم الحساب يوم القيامة ، وكذلك قوله في المقامة نفسـها

---

[١] المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٣٤٢
[٢] المصدر السابق نفسه ، ج ١١ ، ص ٢٣٧
[٣] المصدر السابق نفسه ، ج ١٤ ، ص ١١٧

: " فعند ذلك ذهب رَوّعي ، وقوي رُوعي " (١) " رَوّعي " بمعنى خوفي وفزعي أما الثانية " رُوعي " بمعنى ثبت قلبي ونفسي (٢) وكذلك قوله : " طابق الخُبّر الخَبَرَ " (٣) والخُبْر بمعنى المعرفة المسبقة والإدراك المسبق ، أما الخَبَرَ فهو ما ينقل ويحدث به قولا أو كتابة (٤) .

وهذا الضرب من الجناس التام يسمى " المحرف " ، للاتفاق في عدد الأحرف وترتيبها ، والاختلاف في الحركات (٥) . ومن الجناس التام بين فعلين قوله : " نحمده على نعم حلت النفوس حين حلّت ، ومنن جلت الخطوب حين جلّت ، ومسار سرت إلى القلوب فسرّت ، ومبار أقرّت العيون فقرّت ، وعوارف أمّت الخليفة فتوالت ومالت وما ولّت ، وقدم صدق ثبتت إنشاء الله في الخلافة فما تزلزلت وما زلّت " (٦) ، والجناس في المثال وافر بين الأفعال مثل " جلَت _ جَلّت " و " سَرَت _ فسَرّت " " أقرّت _ فقرَت " ومنه الجناس التام المستوفى ويقع الجناس فيه بين اسم وفعل أو اسم وحرف أو حرف وفعل (٧) ، مثال ذلك قول الكاتب في المقامة : " هذا وقد جعلنا الله أمة وَسَطًا ، ووعظنا بمن سلف من الأمم ممن تمرد و على أو تجبر وَسَطا " (٨) ، والجناس بين " وسَطا _ وَسَطًا "

---

(١) المصدر السابق ، ج ١٤ ، ص ١٢٦
(٢) انظر ابراهيم مصطفى وآخرون : المعجم الوسيط ، مادة راع
(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ١٢٧
(٤) انظر ابراهيم مصطفى وآخرون : المعجم الوسيط ، مادة خبر
(٥) عبد العزيز عتيق : علم البديع ، ص ٢٠٨
(٦) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٣١٥
(٧) عبد العزيز عتيق : علم البديع ، ص ٢٠٠

(٨) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٣١٥

" وَسَط الأولى اسم من الوَسطية بمعنى الاعتدال ، و " سَطا " الثانية ، فعل السطو البطش والقهر ، ومثل ذلك أيضا في قوله من المفاخرة بين العلوم : " وألمت بالمنافرة فتنافرت ، وتسابقت في ميدان الافتخار فتفاخرت " (١)

وننتقل إلى القسم الثاني من الجناس ، وهو الجناس غير التام ، وفيه يقع اختلاف اللفظين في أنواع الحروف أو عددها أو ترتيبها . فإن كان الاختلاف في أنواع الحروف اشترط فيه عدم الاختلاف في أكثر من حرف واحد ، وهو على ضربين (٢) : الجناس المضارع ؛ وهو ما كان فيه الحرفان اللذان وقع فيهما الاختلاف متقاربين في المخرج ، ومما جاء في إنشاء القلقشندي على هذا الضرب ، قوله : " هيهات فاتك الحزم وأخطأك العزم " (٣) ، الجناس في الحزم والعزم ، والحرفان المختلفان ، هما الحاء من الأولى والعين من الثانية ، وكليهما من حروف الحلق وكذلك قوله : " إلى أن أحل بناديهم ، وأنزل بواديهم " (٤) ، الجناس في الكلمتين بناديهم _ بواديهم ، والاختلاف في النون من الأولى والواو من الثانية ، والنون حرف لثوي أسناني ، والواو حرف شفوي ، وهنالك بعض القرب في المخرج بين اللثوي والشفوي ، أما الضرب الثاني ؛ فهو أن يأتي الحرفان مختلفان ومتباعدان في المخرج ، يسمى " الجناس اللاحق " كقول الكاتب " مقبلا منه على ما يستحلي النظر ، يستحلي ذكره السمع منتخبا من

---

(١) المصدر السابق ، ج ١٤ ، ص ٢٠٦
(٢) عبدالعزيز عتيق ، علم البديع ، ٢٠٥
(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١١٥
(٤) المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ١١٥

أشياخ الإفادة أوسعهم علما وأكثرهم تحقيقا ، ومن أقران المذاكرة ، أروضهم بحثا وألطفهم تدقيقا " (١) الجناس الأولى بين " يستجلي _ ويستحلي " ، والحرفان المختلفان ؛ الجيم وهو حرف لثوي أسناني انفجاري والحرف الآخر الحاء وهو حرف حلقي رخو ، والبعد في المخرج واضح ، والجناس الثاني في النص قوله : " تحقيقا _ تدقيقا " والاختلاف في حرف الحاء في تحقيقا ، وهو حرف حلقي رخو ، والدال في تدقيقا وهو حرف لثوي أسناني والبعد واضح أيضا . والأمثلة على هذا الضرب كثيرة في إبداع الكاتب منه : " تذكر العشاق أحوال النوى فيسلمها الهوى إلى الهوان " (٢) والاختلاف في " النون والهاء " ، في قوله : " النوى والهوى ، ومثله أيضا " بينما أنا أسير في معاهدها ، وأردد الطرق في مشاهدها " (٣) الاختلاف في " العين " في " معاهدها " والشين في " مشاهدها " ، وأما من الضرب الأول ، المتقارب في مخارج الحروف ، قوله : " إنك وإن تألق برق مباسمك ، وطابت أيام مواسمك " (٤) ، " الباء " في مباسمك " والواو " في مواسمك ، وقوله في موقع آخر : " فاشتق لها مني علم البيطرة ... واستنبط لها من أجزائي علم البيزرة " (٥) الاختلاف في " الطاء " في البيطرة و" الزين " في بيزرة .

---

(١) المصدر السابق : ج ١٤ ، ص ١١٢
(٢) المصدر السابق نفسه : ج ١٤ ، ص ٢١١
(٣) المصدر السابق نفسه : ج ١٤ ، ص ١١٣
(٤) المصدر السابق نفسه : ج١٤ ، ص ٢٠٩
(٥) المصدر السابق نفسه : ج١٤ ، ص ٢١١

أما إن خالف اللفظان في إعداد الأحرف فيسمى الجناس ناقصا ، وذلك لنقصان أحد الحرفين عن الآخر [١] ومثال الزيادة بحرف واحد قول الكاتب : (ولا أقوى حجة وأوضح محجة) [٢] ، والجناس في قوله (حجة - ومحجة) حيث زيدت الميم . وكذلك قوله : (ووصله به من نعم أثرت نفاعا ، وآثرت نفاعا)[٣] والجناس في (نفاعا ونفعا) ، وتظهر الزيادة هنا حرفان في كلمة نفاعا ، وهما الفاء في التشديد والألف ، ومثال ذلك قوله في المفاخرة بين العلوم :(وأنها اجتمعت يوما اجتماع معنى لا صورة وقامت لها سوق بالبحث معروفة وعلى الجدل مقصورة [٤] الزيادة هنا حرف (الميم والقاف) في (مقصورة) إذ تجانست مع " صورة .

وهنالك نوع آخر من الجناس غير التام وهو الاختلاف في ترتيب الحروف وهو ما يسمى جناس القلب [٥] ومن ذلك قول الكاتب في نسخة عهد : " وترجح عنده جانب العهد على جانب الإهمال،والرأي المبادرة إليه،أولى من الإمهال " [٦] جاء الجناس في " الإهمال _ والإمهال " ، ونلحظ القلب بين حرفي الميم والهاء ، ونلحظ هنا الإفادة من المفردتين في المعنى ، إلا أن القارئ يلحظ أيضا الموسيقى داخلية في النص ، والتناسق بين الحروف . ومن ذلك قوله في نسخة

---

(١) عبد العزيز عتيق ، علم البديع ، ص ٢٠٦
(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٤ ص٢٢٢ .
(٣) المصدر نفسه ج١٤ ص٣٧١ .
(٤) المصدر نفسه ج١٤ ص٢٠٥ .

(٥) عبد العزيز عتيق : علم البديع ، ص ٢١١
(٦) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٣٧٢

توقيع : " الحمد لله الذي زين معاني المدارس من أعلام العلماء بجمالها ، وميز مراتب الكلمة بإجراء في ميادين الدروس وفسيح مجالها " [١] وهنا يكون الجناس بين " أعلام _ والعلماء " ونلحظ مدى الاختلاف في ترتيب الحروف في الكلمتين ، وثمة جناس آخر في العبارة بين " جمالها _ ومجالها " وهذا الأخير الذي يجري فيه اختلاف بسيط في ترتيب الحروف يسمى " قلب بعض " .

---

(١) المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٢٣٦

الطباق :

ويسمى التطبيق والمطابقة والتضاد ، والطباق والمطابقة في موضعتهما اللغوية تعني أن تضع ذوات الأربع أرجلها موضع أيديها في المسير ، وعند ذلك يقال طابقت الدابة [١] .

وهو يخالف ما ذهب إليه في الإصطلاح إذ جمع القدماء على أن المطابقة في الكلام ، هو الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة ، أو الخطبة أو البيت من بيوت القصيدة ، مثل الجمع بين البياض والسواد .. والنهار والليل .. والبر والبحر .[٢]

ولكن الباحث يظفر برأي آخر يطلقه قدامة بن جعفر ، يرى فيه أن المطابقة تكون في اللفظ الواحد الذي يحمل معنيين مختلفين ويستشهد على ذلك ببيت من الشعر لزياد الأعجم :

ونبيتهم يستنصرون بكاهلٍ * وللؤم فيهم كاهل وسنام [٣]

ويرى الحلبي أن هذا هو الجناس بعينه ، ومن ادعى أنه طباق فقد خالف الأصمعي والخليل [٤] ، أما القزويني ، فيرى أنها الجمع بين المتضادين أي المعنيين المتقابلين في الجملة ، ويكون ذلك إما بلفظين من نوع واحد ، اسمين

---

[١] العزيز عتيق : علم البديع ص٧٦ .
[٢] العسكري : الصناعتين ص٣٣٩ .
* وردت لفظة (كاهل) في الشطر الأول بالضم في كتاب الصناعتين ص٣٣٩ . وهو من الخطأ
[٣] انظر العسكري الصناعتين ص٣٣٩ / والحلبي حسن التوسل ص ١٩٩ .
[٤] الحلبي حسن التوسل ص١٩٩ .

كقوله تعالى :﴿ وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ﴾ [١] أو فعليـــن كقولـــه تعـــالى : ﴿ تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ﴾ [٢] ، وأما بلفظين من نوعين ، كقوله تعالى : ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه ﴾ [٣] ، وينقسم الطباق إلـــى طبـــاق الايجاب كما تقدم ، وطباق سلب ، وهو : الجمع بين فعلي مصدر واحـــد مثبـــت ومنفي أو أمر ونهي [٤] .

ولما كان الطباق من أعلى أضرب البديع رفعة ، حتى أسماه بعضهم البديع [٥] ، فقد أكثر القلقشندي في كتابته الديوانية والوصفية والعلمية من هـــذا الفـــن ، حتى لتكاد تكون ظاهرة في ابداعه بشكل عام .

ومما جاء طباق موجب بين اسمين قوله في نسخة عـــهد : " ... وانـــتزاع وتخليد ، وتفريق وجمع ، وإعطاء ومنع ، ووصـــل وقطـــع ، وصلـــة وادرار ، وتقليل وإكثار ، جزئيها وكليها ، وخفيها وجليها ، ودانيها وقاصيـــها ، وطائعـــها وعاصيها .." [٦] ويلاحظ الدارس أن هذه الطباقات والتضادات لم يأت بها الكاتب للزخرفة اللفظية فقط ؛ وإنما جاءت تدعيما للمعنى الذي يرمي إليه الكاتب ، مـــن إظهار لمدى الصلاحيات والحرية التي منحها الخليفة العاهد للمعهود لـــه ، فـــي

---

(١) سورة الكيف آيه ١٨
(٢) سورة آل عمران آيه ٢٦
(٣) سورة الأنعام آية ١٢٢
(٤) القزويني: الايضاح ص ١٩٢ - ١٩٣ .
(٥) إبن الأثير : المثل السائر ج٢ ص٢٧٩ . وانظر عمر موسى باشا : أدب الدول المتتابعة ص٨٥١ .
(٦) القلقشندي : صبح الأعشى ج٩ ص٣٧٤ - ٣٧٥ .

التصرف في شؤو ن البلاد ، وكل هذا الاتساع في الأفق ، يجعل المعـــــهود لـــه مهيئا لاستلام زمام الأمور في حالة موت الخليفة العاهد .

وكذلك نجد من الطباق بين اسمين ما ورد في توقيع بقضاء قوله : " وجرت بقضايا الخير في البدء والعود " [١] ومنه أيضا : " تكفي نتـــائج أفضالـــها عـــن الإجمال والتفصيل " [٢] وكذلك قوله " ونتبع ذلك بـــالتلويح إلـــى الإحتيـــاط فـــي المسائل التي تفرد بها مذهبه الشريف ضيقا وسعة " [٣] .

ومما جاء على هذا الضرب في المقامة ، قوله : " وإليه المآب فـــي الســـلم والهرج،وعليه المدار في الدخل والخرج،وبه المناط في الضر والنفع وفـــي يـــده رباط العطاء والمنع " [٤] .

ومما جاء في الطباق الموجب بين فعلين ، قوله : " مقدما تقوى الله تعـــالى فيما خفي من مقاصده وظهر " [٥] فقد طابق بين الفعلين (خفي/ وظهر) ومثـــل هذا أيضا قوله : " وأكرم رسول فصل الأحكام إذ شرع وندب وأوجـــب وحلـــل وحرم " [٦] وربما جاء بين جملتين كقوله " علي تردون وعنـــي تصـــدرون " [٧]

---

[١] المصدر السابق : ج١١ ، ص١٩١ .
[٢] المصدر السابق نفسه : ج١١ ، ص١٩١ .
[٣] المصدر السابق نفسه : ج١١ ، ص١٩٢ .
[٤] المصدر السابق نفسه : ج١٤ ، ص١١٧ .
[٥] المصدر السابق نفسه : ج ١١ ، ص١٥٦ .
[٦] المصدر السابق نفسه : ج١١ ، ص ٢٣٧ .

[٧] المصدر السابق نفسه : ج١٤ ، ص٢٠٨ .

فيلحظ الباحث التطابق بين حرفي الجر (على وعن) ، وبين الجملتين الفعليتين (تردون / تصدرون) .

ومما جاء على الضرب الثالث من الطباق الموجب وهو المطابقة بين لفظين مختلفين (فعل واسم) قوله : " وألبسه الخلعة السوداء ، فابيضّ من سوادها وجه الشرق والغرب " [١] فطابق بين الفعل "إبيض" والإسم " سوادها" .

وهنالك نوع آخر من الطباق ، ويسمى ايهام التضاد وهو أن يوهم لفظ الضد ، أنه ضد ، مع أنه ليس بضد ، كقول دعبل الخزاعي :

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

(فضحك) هنا ليس ضد (البكاء) لأنه كناية عن كثرة الشيب ولكنه من جهة اللفظ يوهم المطابقة [٢] . ومما ورد في إنشاء الكاتب على هذا الضرب ، قوله : " وأضحك الخلافة العباسية بوجود عباسها " [٣] فلفظ (أضحك) ليس ضد (عباسها) لأنّ عباسها المقصود فيه اسم الخليفة (العباس) والخلافة لاتضحك ، وإنما المقصود من المعنى ؛ أن الخلافة أصبحت في بحبوحة من أمرها ، ولكنه من ناحية اللفظ يوهم بالمطابقة بين (أضحك وعباس) .

أما الطباق السلبي والذي سبق تعريفه ، فإنه قليل الورود في كتابات القلقشندي ، إلا أن الباحث لا يعدم التمثيل عليه ، كقوله : " وما يكتب من الهدية

---

(١) المصدر السابق ج٩ ص٣١٢ .
(٢) عبد العزيز عتيق : علم البديع ص ٨٠ – ٨١ .
(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٩ ص٣٧٠ .

يجاب عنها من المجازي وغير المجازي " [1] فجاء الطباق بين لفظة (المجـــازي) ونفيـــها بقوله (غير المجازي) .

وهنالك من الطباق السلبي ما يقع فيه ايهام التضاد ، كقولـــــه : " وصحبـــه اللذين تقيلوا مساحب أذياله في العدل فعدلوا ولزموا منهج سننه الواضح فما حادوا عن سواء السبيل ولاعدلوا" [2] فيبدو لقارىء النص ، أن الكاتب قد طابق بيـــن (عدلوا) و (ولا عدلوا) ، إلا أن المعنى في النص يظهر خلاف ذلــك ، إذ أن (عدلوا) من العدل ، بمعنى إقامة العدل والإنصاف ، أما (ولاعدلوا) من (عــدل) بمعنى غير النية والمنهج الذي كانوا عليه ، ولكنها تبقـــى فـــي اللفــظ توحـــي بالمطابقة .

---

[1] المصدر السابق : ج١٤ ، ص ١٢٣ .
[2] المصدر السابق نفسه : ج١١ ، ص١٥٤ .

التورية :

وقد عرفت التورية بأسماء شتى كالايهام ، والتوجيه والتخيير ، وتبقى لفظة التورية أقرب التسميات لما فيها من مطابقة للمعنى ، إذ أن مصدر ورى بتضعيف الراء تورية ، فوريت الخبر أخفيته وجعلته ورائي وأظهرت سواه ، فكأنك وضعته وراءك بحيث لا يظهر [1] ومنه الحديث كان الرسول -صلى الله عليه وسلم- إذا نوى سفرا ورى بغيره [2] أما في الاصطلاح فهي : " أن يطلق لفظ له معنيان قريب وبعيد ويراد به البعيد منهما "[3] .

وتعتبر التورية من أهم الفنون البديعية ، حتى قال فيها إبن حجة الحموي : " أنها من أعلى فنون الأدب ، وأعلاها رتبة ، وسحرها ينفث في القلوب ، ويفتح بها أبواب عطف ومحبة " [4] وكما اهتم القلقشندي بترصيع كلامه بالتناصات المختلفة ، والفنون البديعية المتنوعة والتورية أحدها ، فقد وجد الباحث أمثلة كثيرة على ذلك ، ومما يجلب الإنتباه تلك الكثرة في التورية ، مع اسم من يكتب له الكتب ، ومثال ذلك من النظم حين كتب لقاضي القضاة جمال الدين محمود القيسراني :

---

[1] صلاح الدين الصفدي : فض الختام في التورية و الاستخدام ، دراسة وتحقيق عبد العزيز النواوى المحمدى ، دار الطباعة المحمدية على درب الاتراك بالازهر ، ط ١ ، ١٩٧٩ ، ص١٥٥ .

[2] الكلاعي : أحكام صنعة الكلام ص١٨٨ .

[3] القزويني : الايضاح ، ص٢٠١ .

[4] ابن حجة ، تقي الدين أبو بكر ، مشهور بابن حجة الحموي توفي سنة ٨٣٧ هـ ، خزانة الأدب وغاية الأرب ، شرح عصام شعيتو ، منشورات دار مكتبة الهلال ، بيروت لبنان ، ط ٢ ، ١٩٩١ ، ج٢ ، ص ٤٠ .

ولكن محمود العواقب أرتجي ومن   يحمد العقبى على القصد قد حصل [1]

فإنه يفهم من الشطر الأول ، أن المقصود بلفظة (محمود) اسم المفعول من حمد ، أي الذي تحمد عواقبه ، ولكن المعنى المراد هو (محمود) اسم المكتوب له .

وقد يستخدم كنية الممدوح في التورية ، كتلك التي كتب فيها للخليفة المستعين أبي الفضل العباس حيث يقول نظما :

أبى الفضل إلا أن يكون لأهله   دواما وأن يدعى أبا الفضل في الناس [2]

فجاءت التورية بقوله : (أبى الفضل) في الشطر الأول ، وإن كان الرسم يفضحها ، فهي تشي بكنية الممدوح ، ويدعم ذلك بالقرينة في قوله : (إلا أن يكون لأهله) ، وكذلك يدعمه الشطر الثاني من البيت في المعنى نفسه ، ولكن الدارس يلحظ أن المقصود الفعل الماضي (أبى) ، بمعنى رفض الفضل أي الخير إلا ملازمة من هو أهل له .

وأكثر ما جاء به من تورية ، مما يتعلق بالمكتوب لهم ، هو ما ورى به في الألقاب ، فمنه ما جاء في تقليد بالإشارة ، كتبه للأمير جمال الدين يوسف البشّاسي : " الحمد لله الذي جدد الديار المصرية بالمحاسن اليوسفية رونق جمالها ، وأعز جانبها بأجل عزيز فملأت هيبته الوافرة فسيح مجالها " [3] فقوله: (

---

[1] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٩ ص١٨١ .
[2] المصدر نفسه ج٩ ص١٨٠ .
[3] المصدر نفسه : ج١١ ، ص١٥٣ .

رونق جمالها) يأتي المعنى القريب ، الجمال والحسن ، و الكاتب يرمي إلى لقب المكتوب له (جمال الدين) ، و كذلك نجد في النص تورية أخرى مع اسم المكتوب له (يوسف) ، بقوله المحاسن اليوسفية ، إذ تشي باسم النبي يوسف _ (عليه السلام) _ ويدعم ذلك بالقرينة (بأجل عزيز) ، هو اللقب الذي كان يطلق على ملوك مصر في زمن سيدنا يوسف-عليه السلام-وقد وردت تورية مع لقب (جمال الدين) في أكثر من موقع في رسائل الكاتب [1]

وهنالك تورية للقب (جلال الدين) ، حين كتب تقليدا لجمال الدين البسطامي في عودته للقضاء ، وقد واكب ذلك عودة شيخ الإسلام جلال الدين البلقيني إلى قضاء قضاة الشافعية ، يقول : " الحمد لله الذي أعاد لرتبة القضاء رونق جمالها ، وأسعد جدها بأسعد قران ، ظهرت آثار يمنه بما آثرته من ظهور جلالها ، وأجاب سؤالها بأجل حاكم ، لم تعدل عنه يوما في سؤلها " [2] ، فجاء قوله (رونق جمالها) مع كنية جمال الدين البسطامي ، وقوله بظهور جلالها ، مع اسم المكتوب له الثاني جلال الدين البلقيني ، وهنالك تورية أخرى في قوله (وأسعد جدها بأسعد قران) ، فالمعنى قريب من (القران) هو : عقد الزواج ، ولكن الكاتب أراد من ذلك إقتران عودة القاضي جمال الدين والقاضي جلال الدين . وهنالك تورية أخرى مع لقب (شهاب) جاء فيه في توقيع خطابه للشيخ شهاب

---

(1) المصدر السابق : ج١١ ص ١٨١ . ص ٢٣٦ ، ج ١٤ ص٢٤١ .
(2) المصدر السابق نفسه : ج١١ ص١٩٠ .

الدين ابن حجي : "الحمد لله الذي أطلع شهاب الفضائل في سماء معاليها "[١]

ويلاحظ الباحث أن هذه التوريات السابقة من النوع البسيط ، الـــذي يســـهل على القارىء التوصل إليه لقرب القرينة ووضوح المراد .على أن الباحث وجـــد من التوريات مع القاب ما جاء أكثر عمقا مما سبق ، من ذلك ما جاء في تقريض كتبه القلقشندي على قصيدة ، نضمها شرف الدين عيسى بن حجـــاج الشاعـــر المعـــروف (بالعالية) : "وحمى نفس الفضل في رقعة المساجلة أن تصل اليـــها فرازنة الدعاوي ، ولا غرو أن حماها العالية " [٢] فعبارة (حماها العالية) تفيـد للوهلة الأولى ، الحمى المصون المنيع العالي على الأعداء ، ولكننا عند التدقيـــق في لقب الشاعر ، نجد أن الكاتب ما رمى من هذه اللفظة إلا الإشادة بالشاعر مـن خلال التقريض .

ومما جاء من قبيل التورية في التقريض نفسه قول الكاتب :" لاجرم أضحت أم القصائد وكعبة القصاد ,محط الرحال ، ومنهل الوراد فأربت في الشهرة علـــى المثل السائر واعترف بفظلها .. "[٣] .

فقوله (المثل السائر) يشي بالمثل الذي يقول : " أســـير مـــن مثـــل " أو " أسرع من مثل " ، أي أنه قارن القصيدة بالمثل الذي يتلاقفه الناس ، ويدور فـــي

---

(١) المصدر السابق : ج١٢ ، ص٧٤ .
(٢) المصدر السابق نفسه : ج١٤ ، ص٣٣٧ .
(٣) المصدر السابق نفسه : ج١٤ ، ص٣٣٨ .

حديثهم . ولكن المراد ؛ هو كتاب أبن الأثير الذي يحمل عنوان : " المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر " .

ولكن الباحث يجد توريات أخرى أكثر عمقا مثل قوله :" ... وسد باب التوبة على منتقصه فلم تكن لتقبل توبة مثله ، وكان إلى مالك مصيره فلا جرم قضى بإهدار دمه وتحتم قتله " [١] فقد يفهم القارىء من قول الكاتب : " وكان إلى مالك مصيره " أن مالك اسم حاكم يحكم ويأمر بالقتل ، ولكن المعنى البعيد الذي رمى إليه الكاتب ، هو : مذهب مالك بن أنس الذي امتاز بتشدده على من انتقص الرسول حقه ، ويشير الكاتب إلى ذلك بقوله : " لاسيما مذهب مالك الذي لم يزل للدين من أهل الإلحاد مثئرا " [٢] .

ومن طريف التورية ، ما أوردها الكاتب في نسخة اجازة في عارضة الكتب كتبها لطفل دون العاشرة : "... وأبرز من ذوي الفطر السليمه من فاق بذكائه الأقران فأدرك العربية في لمحة ، وسما بفهمه الثاقب على الأمثال ، فأمسى وفهم الورقات لديه كالصفحة ، وخرق بكرم بدايته العادة فجاز الأربعين دون العاشرة وأتى على ذلك بما يشهد له بالصحة "[٣] فالتورية الاولى : " فأدرك العربية في لمحة " والظاهر أنه أراد بلفظ (لمحة) المفردة الزمنية أي الجزء اليسير من

---

[١] المصدر السابق : ج١١ ، ص١٨٢ .
[٢] المصدر السابق نفسه : ج١١ ، ص١٨٢ .
[٣] المصدر السابق نفسه : ج ١٤ ، ص٣٣١ .

الزمن في حين أراد الكاتب المعنى البعيد وهو " اللمحة البدرية " للشيخ ابن الأثير أبي حيان ، أما التورية الثانية ففي قوله : " فجاز الأربعين لدون العاشرة " فأول ما يتبادر لذهن القارىء أنه تجاوز سن الأربعين أي الزمن ، ولكن مرمى الكاتب من ذلك هو " الأربعين حديث " لشيخ الدين النووي .

ويلاحظ الباحث أن التورية جاءت في جميع الموضوعات التي كتب فيها سواء الإخوانية أو الديوانية وكذلك الوصفية والمناظرات . وكذلك وجد الباحث التورية في المقامه البدرية التي كتبها القلقشندي في قوله : " أنصب لاقتناص العلم أشراك التحصيل ، وأنزه توحيد الإشتغال عن اشراك التعطيل " [1] ، والتورية في قوله : " أنزه توحيد الإشتغال عن اشتراك التعطيل " والتعطيل رفض التوحيد والشريعة ، وهو المعنى القريب لسبق التعطيل بالإشراك والتوحيد ، وهو لايريده وإنما يريد الشركة والمشاركة ، وأيضا لا يريد بالتوحيد توحيد الله لاقترانه بالتنزيه ، وإنما يريد الوحدة والتعبير لذلك كله مليء بتوريات متعاقبة " [2] .

ومن ذلك قوله في المقامة نفسها : " إلى أن اتيح لي الفتح ما افاضته النعمة ، وحصلت منه الغنيمة على ما اقتضته القسمة " [3] " فالفتح وقد تلاه بالغيمة والقسمة موريا بذلك عن الفتوح العلمية لا كما نظن من السياق ، الفتح الحربي ، وبالمثل قوله القسمة فهو لا يريد بها المعنى القريب الملائم للغنيمة وهو القسمة

---

(1) المصدر السابق : ج١٤ ، ص١١٢ .
(2) شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات ، مصر والشام ، دار المعارف القاهرة – مصر ، ١٩٨٤ . ص ٤٥٣ .
(3) القلقشندي : صبح الأعشى ج١٤ ص١١٣ .

في الحرب وإنما يريد بها المعنى البعيد وهو الحظ من قولهم قسمة ونصيب " [١] ومن هنا يظهر للباحث أن الكاتب لم يقصد من وراء التورية الزخرفة الفنية ، بل أنه وظفها التوظيف المناسب لها ، إذ أن خفاء المعنى المراد يكون دافعا للدارس على إعادة القراءة والدرس ، حتى يتوصل للمعنى البعيد ، وبذلك يكون الكاتب قد وظف التورية كأداة تأكيد ، ترسخ ما يرمي إليه في ذهن القارىء .

على أن المتقدمين لم يكن لهم كثير الإهتمام بالتورية ، وإن ما وقع منها في كتاباتهم جاء عفو الخاطر ، وربما كان المتنبي من أوائل المهتمين بالتورية حتى إذا ما وصلنا إلى العصر المملوكي نلحظ طغيانها على الشعر والكتابة بشتى أضربها ؛ فهي من أنواع البديع الذي عرف العصر به ، حتى قيل عن العصر المملوكي هو عصر البديع [٢] .

---

(١) شوقي ضيف : عصر الدول والإمارات مصر والشام ٤٥٣ .

(٢) عبد العزيز عتيق : علم البديع ص١٣٣ - ١٣٤ .

العكس :

" العكس أن تعكس الكلام فتجعل في الجزء الأخير منه ، ما جعلتــه فــي الجزء الأول .. وبعضهم يسميه التبديل " [١] ، وهذا لا يخالف تعريــف شــهاب الدين الحلبي حين يقول : " وهو أن يقوم في الكلام أحد جزئيه ثم يؤخــر " [٢] ، وقد أسماه الحلبي بالعكس والتبديل [٣] ، ولم يتطرق القلقشندي لتسميته أو الشرح عنه ، و إن ورد في شتى فنون الكتابة التي طرقها ؛ مـــن اخوانيــة و ديوانيــة وعلمية ، ولعل السبب في عدم الحديث عنه باسمه ، والشرح فيه لاعتبـــاره مــن فنون البديع التي فيها يقول : " أما المتممات التي يكمل بها الكاتب مــن المعرفــة بعلوم البلاغة ، ووجوه تحسين الكلام من المعاني والبيان والبديع ، فــإن فيــها كتبا مفرده تكاد تخرج عن الحصر والاحصاء .... فاليطلب ذلك من مظانه مــن هذه الكتب وغيرها " [٤]

ومما جاء من العكس والتبديل في كتابات القلقشندي الإخوانية ، قوله فــي تهنئه بالصوم :

تهن بهذا الصوم والعيد بعده ومن بعده بالعيد والعام فالعام . [٥]

---

(١) العسكري :الصناعتين ص٤١١.
(٢) الحلبي :حسن التوسل ص٢٦٨.
(٣) المرجع نفسه ص٢٦٨
(٤) القلقشندي : صبح الاعشى ,ج٢،ص٣٣٨
(٥) المصدر نفسه ج٩ ص٤٢

فجاء قوله : " والعيد بعده ومن بعده بالعيد " ، إذ عاد تقديم ظرف الزمان "بعد"على العيد في حين جاءت في الشطر الأول من البيت تالية له . ويدرك الدارس أن الكاتب رمى من ذلك ، الطلب والدعاء للمكتوب له بطول الهناء والعيش الرغد ، وهذا ما يدل على أن الكاتب يوظف العكس والتبديل لخدمة المعنى ، إضافة للحس والرونق الذي يظفيه العكس على صياغة الكلام ، والتماسك في سبكه .

كما أن الرسائل الديوانية لا تخلو من هذا الضرب البديعي ، مثال ذلك ما جاء في بيعة مرتبة على خلع خليفة ، قوله : " صلى الله عليه وسلم وعلى آله أئمة الخير، وخير الأئمة ، ورضي عن أصحابه أولياء العدل وعدول الأمة " [1] وقد أفاد المعنى هنا منزلة العترة المحمدية ،فهم لا يئمون إلا الخير ، حتى أن الخير يأتم بهم ، فهم صفوة الأمة الاسلامية وخيرها ، وكذلك صحابته عليه السلام بعرفهم الكاتب بأنهم أولياء للعدل قائمين به حتى غدوا عدول للأمة جمعاء.

وهنالك مثال آخر جاء في عهد أنشأه الكاتب عن الإمام المتوكل على الله أبي عبد الله محمد بن المعتضد أبي الفتح لولده العباس ، جاء فيه :"وخفقت الرايات السود على عساكر المواكب ومواكب العساكر وسلم تسليماً كثيراً "[2] .والرايات السود هي رايات الدولة العباسية ورمزهم ، وعكسه (عساكر المواكب)

---
[1] المصدر السابق : ج٩ ، ص ٣١٤
[2] المصدر السابق نفسه : ج٩ ، ص ٣٧١

وخفقات الرايات السود عليها ، يشي بالتفاف العساكر حول هذه الراية وحملها وحمايتها .

وثمة مثال على العكس جاء في توقيع بالتدريس ، يقول : " باذلا في استمالتهم طاقة جهده ، محسنا إليهم جهد طاقته " [١] .

ولا يخفى على الدارس ما يرمي إليه الكاتب وراء هذا العكس ، إذ يحاول إظهار مدى اهتمام المدرس بتلاميذه ومريديه ، فهو يبذل كل ما أوتي من قوة في سبيل تربيتهم وتوفيتهم حقوقهم .

وفي سبيل إظهار مكانة الكتاب ، وعظيم صفاتهم في المقامة التي أنشأها القلقشندي ، يقول :"هذه و أبيك صفات الملوك بل ملوك الصفات ، وأكرم الفضائل بل أفضل المكرمات " [٢] .

ولا يعدم الباحث أمثلة أخرى مما جاء في المفاخرات ، كتلك التي وردت في المفاخرة بين العلوم ،قوله : " أن الذاهب قادم والقادم ذاهب " [٣] وقوله كذلك في المفاخرة نفسها :"وأقل وجودا من بيض الأنوق بل بيض الأنوق في الوجود أكثر " [٤] .

---

[١] المصدر السابق : ج١١ ، ص ٢٤٣
[٢] المصدر السابق نفسه : ج ١٤ ، ص ١١٤
[٣] المصدر السابق نفسه : ج ١٤ ، ص ٢١٢

[٤] المصدر السابق نفسه : ج ١٤ ، ص ٢٢٥

وكان هدف الباحث من وراء شرحه لمعاني الأمثلة السابقة ، محاولة إظهار دواعي العكس ، و أن ألفاظ الكاتب كانت في هذا الضرب من البديع تابعة لمعانيه ،فهي لم تجلب لزخرفة البديعية تصنعا ، و إنما حاول الكاتب فيها التأكيد على بعض المعاني ، التي أراد لها أن تبلغ المتلقي بشيء من التميز في إظهار أهميتها.

اللغة والأسلوب :

تناول القلقشندي موضوع اللغة في كتابه (صبح الأعشى في كتابة الإنشاء)[١] ، و جعل اللغة رأس مال الكاتب ، وهي الأساس في كلامه ، والكنز الذي ينفق منه ، فاعتبر الألفاظ قوالبا للمعاني التي يتصرف فيها الكاتب ، ومن هنا فقد طلب من الكتاب التبحر في اللغة ، ومعرفة مختلف علومها ودقائقها ،من غريب ومترادف و متباين ، والحقيقة والمجاز وما إلى ذلك ، كما نبه لتعلم الفصيح من اللغة ، وهو ما نطق به من أهل أواسط بلاد العرب ، وأشار لما على الكاتب معرفته مما تلحن به العامة وتغيره عن مواضعه[٢] ، وقد خص نوعا من اللغة أسماه الألفاظ الكتابية ، ويعرفها بقوله : " وهي ألفاظ انتخبها الكتاب ، وانتقوها

---

(١) المصدر السابق : ج١ ، ص١٤٨ _ ١٨٠ / ج ٢ ، ص ١٩٢ _ ٣٣٨

(٢) المصدر السابق نفسه : ج١ ، ص١٥٠ – ١٦٢ .

من اللغة ، استحسانا لها وتمييزا لها في الطلاوة والحلاوة " [١] ويستشهد لذلك بقول للجاحظ مفاده : " ما رأيت أمثل طريقة من هؤلاء الكتاب ، فإنهم التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ، ولا ساقطا سوقيا " ، وقول آخر لابن الأثير : " إن الكتاب غربلوا اللغة وانتقوا منها ألفاظا رائقة استعملوها " [٢] ، وأما حول المعاني التي تستخدم ، فقد جعلها من الألفاظ بمنزلة الأبدان من الثياب ، فالألفاظ عنده تابعة والمعاني متبوعة ، فما حسنت الألفاظ إلا لتحسين المعاني فالمعاني أرواح الألفاظ ومن أجلها وضعت وعليها بنيت [٣] .

ومن هذه الرسوم انطلق القلقشندي في إنشائه فجاءت ألفاظه سهلة الفهم ، قريبة التناول مبتعدا عن الوعورة والتقعر في الاختيار ؛ إذ يرى أن الهدف من الكلام هو : " الإيضاح والإبانة وإفهام المعنى ، فإذا ذهب الوصف المقصود من الكلام ذهب المراد به " [٤] وربما جاز للباحث القول : إن هذه الرسوم والمعايير تكاد تنسحب على شتى فنون الكتابة ، التي طرقها القلقشندي ، فمن ذلك قوله في بيعة مرتبة على خلع خليفة : " الحمد لله الذي جعل بيت الخلافة مثابة للناس وأمنا وأقام سور الإمامة وقاية للأنام وحصنا وشد لها بالعصابة القرشية أزرا وشاد منها بالعصبة العباسية ركنا وأغاث الخلق بإمام هدى ، حسن سيرة ، وصفي سريرة ، فراق صورة ورق معنى ، وجمع قلوبهم عليه فلم يستنكف عن الانقياد

---

[١] المصدر السابق : ج١ ، ص١٦٢ .
[٢] المصدر السابق نفسه : ج١ ، ص١٦٢ .
[٣] المصدر السابق نفسه : ج٢ ، ص ١٩٢ .
[٤] المصدر السابق نفسه : ج٢ ، ص٢٠٠ ، والعبارة من كلام لابن الأثير .

إليه أعلى ولا أدنى ... " [١] فالمستقرىء للنص السابق يدرك مدى سهولة الألفاظ المستخدمة في التعبير .

ومن أمثلة ما جاء في رسائله الأخوانية قوله في رسالة تقريض المقر الفتحي أبي المعالي فتح الله : " هذا ، وهو واسطة بين الملك ورعيته ، والمتكفل لقصيهم يدرك قصده وبلوغ بغيته ، والمسعد للمظلوم من عزائم توقيعاته بما يقضي بنصرته... " [٢] ومثل هذا الوضوح نجده في الكتابة المقامية حيث يقول : " ... لقد ذكرت قوما راقني وصفهم وشاقني لطفهم ، ودعاني طيب حديثهم وحسن أوصافهم ، وجميل نعوتهم إلى أن أحل بناديهم وأنزل بواديهم ، فاجعل حرفتهم كسبي وصنعتهم دأبي ، ليجتمع بالعلم شملي ويتصل بالإشتغال حبلي ، فأكون قد ظفرت بمنيتي وفزت ببغيتي " [٣] فيلحظ القارىء أن هذه الألفاظ من السهولة بحيث يفهم معانيها كل من اطلع عليها بسهولة ويسر ، والكاتب يحرص على ذلك كل الحرص ، فبالإضافة لما يظهر لنا من السهولة في ألفاظه المستخدمة في كتاباته ، فإنه يكثر الترجيع حول الموضوع ذاته في تنظيراته ؛ من ذلك ، ما أورده من وصايا بشر بن المعتمر للكتاب قوله : " اياك والتوعر ، فإنه يسلمك إلى التعقيد والقبيد ، وهو الذي يستهلك معانيك ويمنعك مراميك "[٤] ونستشف حد الفصاحة عنده من قوله : " المقصود من الكلام إنما هو الإفهام لا

---

(١) المصدر السابق : ج٩ ، ص ٣١٣ .
(٢) المصدر السابق نفسه : ج١٤ ، ص١٩٣ .
(٣) المصدر السابق نفسه : ج١٤ ، ص ١١٥ .
(٤) المصدر السابق نفسه : ج٢ ، ص٢٤٠ .

غير، فيخاطب كل واحد بما يفهمه ولا يكلف بما لا يعلمه وخير الكلام ما جاد وأفاد " [١] وينقل عن ابن الأثير قوله : " فإن أحسن الكلام ما عرف الخاصة فضله ، وفهم العامة معناه وهكذا فلتكن الألفاظ المستعملة في سهولة فهمها وقرب متناولها والمقتدي بألفاظ القرآن الكريم يكتفي بها عن غيرها " [٢] ويرى القلقشندي أن سهولة الألفاظ وما تمتاز به من سلاسة وعذوبة ، لا يتعارض مع كونها الفاظا جزلة ، ويمثل على ذلك من كلام العرب وأشعارهم [٣] ، وهذا ما ألفاه الباحث في كتابات القلقشندي ، فهي تجمع مع سهولة الألفاظ جزالتها دون أن تكون فضة غليظة ، فمن ذلك قوله في بيعة : " فهي الملكة الداعية إلى ترك الكبائر واجتنابها ، والزاجرة عن الاصرار على الصغائر وارتكابها والباعثة على مخالفة النفس ونهيها عن الشهوات والصارفة عن انتهاك حرمات الله التي هي أعظم الحرمات ، الموجبة للتعفف عن المحارم والشجاعة التي بها حماية البيضة والذب عنها ، والإستظهار بالغزو على نكاية الطائفة الكافرة والفض منها " [٤] والمتتبع لألفاظ هذا النص من البيعة ، يلحظ الجمع بين الجزالة لتناسب جو البيعة المرتبة على خلع خليفة ، فتوجب الإتيان بألفاظ فيها من الجزالة والشدة ما يشي

---

(١) المصدر السابق : ج ٢ ، ص٢٤٠ .

(٢) المصدر السابق نفسه : ج٢ ، ص٢١٦ .

(٣) المصدر السابق نفسه : ج٢ ، ص ٢١٨ .

(٤) المصدر السابق نفسه : ج٩ ، ص٣١٥ .

بأهمية الخلافة ، وما يجب أن يكون عليه الخليفة ليناسب رتبتها ، وعلى الرغم من ذلك كله ؛ فإن ألفاظه حافظت على سهولة الفهم وقرب التناول .

أما من حيث الأسلوب في التركيب وصياغة الكتابة فقد امتاز بحرية التعبير في الأسلوب ، إذ أنه يجمع بين مذهب النثر المطلق ، ومذهب النثر المسجع ، وهي ظاهرة تكاد تعم على أدباء العصر المملوكي [(١)] فاذا نظر الباحث إلى كتاباته النقدية يجده يبتعد عن السجع حتى يكاد لايجد له في هذه الكتابات أثرا ، كقوله : " ولما كانت الألفاظ عنوان المعاني ، وطريقها إلى إظهار أغراضها أصلحوها ، وزينوها وبالغوا في تحسينها ليكون ذلك أوقع في النفس ، وأذهب بها في الدلالة على القصد ..." [(٢)] وأكثر ما نجد هذا الأسلوب في كتاباته التي تأتي بعد لفظة (قلت) أما الأسلوب المسجوع فهذا ما اتبعه الكاتب في انشائه الابداعي ، حتى لا تكاد تجد عبارة تزل عن السجع ، وما ذكرناه في دراسة السجع يغني عن التمثيل . على أن الكاتب رضخ في بعض المواضع لسجع متكلفا إياه حتى ولو أوقعه في الخطأ كقوله : " وتتطلع به سعادة الجد من ملوك العدل في كل أفق نجما ، وترقص من فرحها الأنهار فتنقطها شمس النهار بذهب الأصيل على صفحات الما "[(٣)] يلاحظ الدارس أن حرف الروي في السجعة الأولى هو الميم المتبوعة بالالف غير أنها في السجعة الثانية ، جاءت الهمزة في كلمة (الماء)

---

(١) عمر موسى باشا : تاريخ الأدب في العصر المملوكي ، ٥٧٧ .
(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج٢ ص١٩٣ .
(٣) المصدر نفسه ج٩ ص٣٦٩ .

ويؤكد ذلك القرينة السابقة لها من قوله (فرحها الأنهار) وليناسب بين السجعتين في حرف الروي نجده يحذف الهمزة لتصبح (الما) . وثمة ميزة امتاز بها القلقشندي وهي الجنوح إلى الاستطراد أحيانا ، اذ يخرج عن الموضوع المتحدث فيه ثم يعود إليه ، كأن ترد قصة ليست لها كبير علاقة في صلب الموضوع ، ولكنه يدخلها فيه لينثني عند الانتهاء منها لموضوعه الأصلي ، من ذلك في حديثه عن كيفية انتفاع الكاتب بعلوم البلاغة ، فيأخذ في الحديث عما يحتاجه الكاتب من معرفة أسماء من يضرب بهم المثل في البلاغة ، فيقول:" .... ونحوه من المحدثين وكما قيل في عي باقل- فيسرد القصة ثم يعود قائلا- وكما عرفت أئمة الصناعة ويذكرهم" [1] .

وإضافة لما امتاز به أسلوبه من فنون بديعية باختلاف أنواعها ، فإنه يلجأ أيضا إلى توظيف مفردات وعلوم اللغة المختلفة ، على سبيل المقارنة والتورية بها وغير ذلك ، من سبل التوظيف ، ويقول القلقشندي في هذا : " غير خاف أنه إذا مهر فيها وعرف طرقها ، أتى بالسحر الحلال .... ثم كما يحتاج إلى هذه بطريق الذات ، كذلك يحتاج إليها بطريق العرض من جهة المعرفة بالبلغاء ، أن يضرب بهم المثل في البلاغة ... وأما ما يحتاجه من ألفاظ أهل الصناعة ، فلأنه ربما ورى بها في تفاصيل كلامه ونحو ذلك " [2] ، لقد سخر القلقشندي ألفاظ مختلف فروع اللغة من نحو وصرف وعروض وغيره، كما وأن التوظيف جاء

---

(1) القلقشندي : صبح الأعشى ج١ ص١٨٦ .

(2) المصدر نفسه ج١ ص١٨٥ -١٨٧

في مختلف أنواع الرسائل ، التي كتبها ومما جاء في الرسائل الاخوانية ، قولـــه في مقطوعة نظمها لجمال الدين محمود القيسراني :

لم يغف عن حاجتي حتى انبهه   وكيف يغفو وفي المعروف كم سهرا
جعلته مبتدأ في رفعه خبــري   وعادة المبتــدأ أن يرفــع الخبــرا [١]

يلاحظ الدارس للبيت الأخير أن الكاتب استطاع أن يوظـــف قضيــة رفــع المبتدأ للخبر بمهارة وسلاسة ، يشعر معه أن الكاتب لم يعمل جهده في الصناعــة وجلب المفردات ، بل إنها جاءت عفو الخاطر ، ومما جاء في باب الأخوانيـــات نثرا قوله في تقريض صاحب الديوان : " هذه الرتبة بالمحل الأرفع ، والمنزلــــة التي لا تدافع ولا تدفع ، والمكان الذي تفرد في صدارته فكانت كالمصدر لا يثنــى ولا يجمع " [٢] فيلاحظ توظيفه لصفة من صفات المصدر ، وهي أنه لا يثنـــى ولا يجمع ، وقارن بها صاحب الديوان في مكانته ، إذ هو المركز الذي لايشغله أكـثر من فرد واحد في ذات الوقت .

وثمة طريقة أخرى عمد إليها الكاتب في استخدام الألفاظ ، وهـــي طريقــة التورية وكان ذلك في المفاخرة التي كتبها بين العلوم : " و أتيت من طويل الكلام بما لا طائل تحته فثقل قولا ، وجئت من بسيط القول بما لو اقتصرت منه علـــى

---

(١) المصدر السابق : ج٩ ، ص ١٨١
(٢) المصدر السابق نفسه : ج١٤ ، ص١٩٢

المتقارب لكان بك أولى " [1]، وواضح استخدامه لأسماء البحـــور (الطويــل ، والبسيط والمتدارك) ، والمعنى القريب أنه يتحدث عن هذه البحور الشعرية التــي وضعها الخليل بن أحمد الفراهيدي ، ولكن المعنى البعيد : هو الإنقاص من قميــة علم العروض ، الذي يتهمه علم القافية أنه وصف نفسه بصفات هي أكـــثر ممــا يستحق .

ومن الإستخدامات التي وردت في الكتب الرسمية قوله في توقيع : " اقتضـى حسن الرأي الشريف أن نفرده بهذه الوظيفة التي يقوم أفراده فيها مقام الجمــع [2] فاستخدم لفظة المفرد والجمع وهي من ألفاظ علم الصرف ، ليكنى بها عن مكانــة الوظيفة والقدرة وعزم المُولّى بها . ومن توقيع آخر قوله : " ونقدمه على غـــيره ممن رام ابرام الباطل فنقض ، وحاول رفع نفسه بغير أداة رفـــع فخفــض " [3] فالناظر يرى أن الكاتب يتحدث بأمور نحوية من (أداة رفع) و(خفض) ، ولكـن المعنى البعيد من التورية هو أن هنالك من حاول الوصول لـــهذه الوظيفــة فلــم يستطع ، لعدم امتلاكه المؤهلات المناسبة لها ، ومما وظف من ألفـــاظ الصـــرف قوله في تصدير : " والماهر الذي استحق بمهارته التصدير ، والجـــامع لفنونـــه المتنوعة جمع سلامة لا جمع تكسير " [4] فقارن بين مقدرة صاحب التصديـــر ، وجمعه لمختلف الفنون وبين الجمع السالم وجمع التكسير .

---

(1) المصدر السابق : ج١٤ ، ص٢٠٩ – ٢١٠
(2) المصدر السابق نفسه : ج١١ ، ص٢٤٠
(3) المصدر السابق نفسه : ج١٢ ، ص٧٧
(4) المصدر السابق نفسه : ج١١ ، ص٢٥١ – ٢٥٢

ومن هنا فإن الباحث يرى أن القلقشندي استطاع بطبعه وموهبته ، واجتهاده في الصنعة ، وما هذه الصنعة التي سلكها الكاتب إلا لمجاراة أدباء عصره الذين أوغلوا في الصنعة ، وجعلوها ميزانهم الذي توزن به الكتابات الفنية .

ويرى عمر موسى باشا أن القلقشندي " مثل عصره خير تمثيل وأن صنعة الإنشاء عنده ، إنما كانت علما قائما بذاته له أصوله وأحكامه والتزاماته ، ولاشك أن موسوعته النثرية الديوانية الكبرى هي خير ما خلف لنا هذا العصر من الموسوعات العلمية [1] وقريب من ذلك قول مصطفى الشكعه " نستطيع أن نصفه بأنه أديب صانع مجتهد ، فهو صاحب قلم مطاوع ساندته ثقافة واسعة في شتى العلوم والفنون وهو أيضا ذو فكرة رائعة عميقة واسلوب مشرق الديباجة سلس المأخذ والعطاء " [2] على أن الباحث يرى أن الطبع لا يخالف الصنعة ، وأن صاحب الصنعة في الأدب لابد له موهبة وقريحة وطبع " وذلك أن الطبع يخص الله تعالى به المطبوع دون المتطبع ، والمناسب بغريزته للصناعة دون التصنع ، ولا سبيل إلى اكتساب سهولة الطبع ولا كزازته ، بل هو موهبة تخص ولا تعم" [3] ولعل القلقشندي امتلك هذا الطبع ، وظهرت كتاباته الرسمية والأخوانية ، وفي

---

(١) عمر موسى باشا : تاريخ الأدب العربي العصر المملوكي ص٥٧٨ .

(٢) مصطفى الشكعه : الاصول الأدبية في صبح الأعشى ص٩٩ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج٢ ص٣١٧ .

المقامة وهذا لا يعني أن الباحث ينفي عن الكاتب الصنعة ، وإنما وكما سلف كانت بابا لابد من ولوجه في ذلك العصر .

والصنعة لا تعيب الكاتب في حد ذاتها ، إلا إذا استكرهت وتكلفها الكاتب تكلفا يخرجه عن حد الإبانة ويدخل إما في الركاكة أو الغموض ، ولما كان القلقشندي ممن نظر للمعاني على أنها من الألفاظ كالروح من البدن ، فإنه حرص على الاعتدال في الصنعة ، وعدم تنكبه وعورة الاغراب فيها .

ومن هنا انطلق شوقي ضيف بقوله ، بعد عرضه لجزء من مقامة القلقشندي : " ولعل خصائص صوت القلقشندي ولغته قد اتضحت لنا تماما فهو كمعاصريه يستخدم السجع ويوشيه بمحسنات البديع وفي مقدمتها ؛ الجناس والطباق والتورية ، ونحس عنده بطواعية العبارات المسجوعة ، ومرانه على استخدام ألوان البديع دون أن تشعر بأي ثقل أو أي عبارة أو كلمة مستكرهة " [١] .

---

[١] شوقي ضيف : عصر الدول والإمارات (مصر والشام) ص٤٥٣ .

الخيال والصورة :

يفيد المعنى المعجمي لكلمة الخيال : الشخص – والطيف – وما يشبه ذلك في اليقضة والمنام من صورة ، و صورة تمثال الشيء في المرآة . ومن كل شيء : ما تراه كالظل ، و خشبة ينصب عليها كساء أسود في المزروعات ليفزع بها الطير ، وفي مرابض الغنم يفزع بها الذئاب . وإحدى قوى العقل التي يتخيل بها الأشياء [١] ، والمعنى الأخير قوى العقل التي يتخيل بها الأشياء ، قريب مما أسماه القلقشندي (الايهام) حين تحدث عن أمور الكتابة أو الإبداع فقال : " فمادتها ، الألفاظ التي يتخيلها الكاتب في أوهامه وتصور من ضم بعضها إلى بعض صورة باطنة تامة في نفسه بالقوة ، والخط الذي يخطه القلم ويقيد به تلك الصور ، و تصير بعد أن كانت صورة معقولة باطنة صورة محسوسة ظاهرة ... " [٢] فالخيال أو الايهام هو مصدر التخيل ، وطاقة تصنيع الألفاظ وتوليد الصور ، أو بتعبير آخر هو ما يوكل إليه البحث في العلاقات القائمة أو ما يمكن تصور قيامها بين المحسوسات ، ثم الخروج من هذه العلاقات الحسية إلى تصورات معنوية تبقى في الباطن (الخيال أو الإيهام) ، ومن ثم تظهر في الأعمال الابداعية نثرا أو شعرا ، ولما كان المبدع عاجزا عن التخلص من سلطة المتلقي ،وهي السلطة الكامنة داخل المبدع ذاته ، والتي تولد مع ولادة العمل الابداعي أو قد تعقبه بعد الخروج من لحظة التنوير أو التجلي .

---

[١] ابراهيم مصطفى وآخرون : المعجم الوسيط ، مادة : خال .

[٢] القلقشندي : صبح الأعشى ج١ ص٣٦ .

فقد سعى المبدع على حشد طاقته الخيالية لتقديم إبداع قد يعتقد أنه يرضـــي المتلقي ، ولذا يجد الدارس أن الأنواع الأدبية يتراوح الاهتمام بها من عصر إلـى عصر ، كما أن مضامينها في تغير مستمر والشيء نفسه حصل للناحية الفنيـــة ، وعلى وجه الخصوص في تلك العصور التي أخذ الاهتمام بالصنعة اللفظية يـزداد ، والمبدع الباحث دوما عن الصور الجديدة في إعادة صياغة العلاقات القائمـــة ، أمله في ذلك إيقاف المتلقي ما استطاع أمام كتاباته الابداعية ، ليحقق بذلك إرضاء الذات المبدعة في داخله ، ولذلك تجاوز الكتاب والشعراء في العصر المملوكـــي (عصر الصنعة) المحسنات البديعية من سجع وجناس وطباق وتورية وغير ذلـك الى شحذ الخيال لانتاج الصور التي هي " أداة الخيال ، ووسيلته ، و مادته الهامة التي يمارس بها ومن خلالها ،فاعليته ونشاطه "[1] . والقلقشندي أحـد الأدبـاء الذين عاشوا عصر الصنعة البديعية ، وقد مر في الـدارس احتفـال القلقشـندي بالفنون البديعية على مختلف أضربها ، ولم يقل اهتمامه بالصورة الأدبية عن ذلك . ومما جاء في مقامته من الصور قوله : " فأجوب فيافي الفنون لتظهر لي طلائع الفوائد فاشهدها عيانا ، و أجول في ميدان الأفكار لتلوح لي كمائن المعـاني فـلا أثني لها عنانا ، وأشن غارات المطالعة على كتائب الكتـب فـأرجع بالغنيمـة ، وأهجم على حصون الدفاتر ثم لا أولي عن هزيمة ، بل كلما لاحت لي فئة مـن

---

[1] جابر عصفور : الصورة الفنية في التراث النقدي عند العرب ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٩٢ . ص١٤ .

البحث تحيزت إليها ، أوظهرت لي كتيبة من المعاني حملت عليها ، إلى أن أتيح لي من الفتح ما أفاضته النعمة وحصلت من الغنيمة ما اقتضته القسمة " [١] .

ويلاحظ الدارس كيف استطاع الكاتب صياغة هذه الصور من خلال بناء سلسلة من العلاقات بين ما هو حسي ومعنوي فجعل للفنون فيافي واسعة وللمعاني كمائن يعمل على اكتشافها ، وللكتب كتائب كالجنود ، واجتهاده بالمطالعة كالغارات يشنها . فقد أدخلنا الكاتب أجواء المعركة التي يخرج منها بغنيمة العلم و الغنيمة التي يحصل عليها المحارب بعد إنجلاء الحرب ، وتتابع الصور في المقامة على هذه الشاكلة ، مصوراً فيها الكاتب ما عانى في سبيل تحصيل العلم ، وما ألمّ به من حيرة بين طلب العلم والعمل لتوفير العيش ، ومما جاء في الكتب الرسمية تصويره للخلافة كفتاة تطلب خطبة المبايع ، ويصور ما به من صفات جعلتها تقدمه على غيره يقول : " فلم تلف لها بعلاً يكون لها قريناً ، ولا كفئاً تخطبه يكون لديها مكنياً إلا الإمام الفلاني المشار إليه .. إذ هو شبلها الناشيء بها ، وغيثها المستمطر من سحابها بل هو أسدها الهصور ، وقطب فلكها الذي عليه تدور " [٢] ، ويلاحظ الباحث أن هذه الصور مستوحاة من التراث الديني ، إذ هو يورد الآية الكريمة " فراودته الذي هو في بيتها عن نفسه " وكذلك من التراث العربي القديم كتصويره للمبايع بالأسد والشبل ، ويزهو التصوير جمالاً في قوله : " وغيثها المستمطر من سحابها " فالخلافة سحاب

---

[١] القلقشندي : صبح الأعشى ج١٤ ص١١٢- ١١٣ .
[٢] المصدر نفسه ج٩ ص٣١٠ .

ترتجيه الرعية وخير ما يرتجى من السحاب ، هو الغيث فجعل هذا الغيث الخليفة المبايع ، وبهذا يقدمه كالخير المنتظر ، وثمة تصوير آخر يعمد فيه الكاتب إلـــى التشخيص وإضفاء صفة الحياة على الجمادات ، يقول في نسخة عهد : " .. تشهد به حضرات الأملاك ، وترقمه كف الثريا بأقلام القبول في صحائف الأفـــلاك ... وترقص من فرحها الأنهار فتنقطها شمس النهار بذهب الأصيل علـــى صفحـــات الما " [1] فجعل للثريا كفا وللأفلاك صحائف ، ويدرك الناظر أن هذه الصـــورة استخدمها الكاتب من طبيعة عمله في الديوان والكتابة ، ويلاحظ أيضا أن خيـــال الكاتب يكون أكثر عمقا ، عندما يتحدث عن فرح الأنهار وأنها ترقـــص فتـــدب الحياة في الصورة ، ويستشعر المتلقي أنها قطعة مجتزأة مـــن الحيـــاة ، يكمـــل الصورة عندما يدخل الشمس في هذه المشاركة الإنتقالية ، لتكون أشعتها كـــالذهب الذي تزين صفحات النهر .

ومما جاء في نظمه من الصور قوله :

أيا كاتب السر الشريف ومن به　　تميس نواحي مصرتيها مع الشام

ومن جلت الجلى كتائب كتبـــه　　ومن ناب عن وقع السيوف بأقلام[2]

ومنه أيضا :

إمـــــام به ثغـــر الخلافة باسم　　وعرنينها يسمو على قمة الـــراس [3]

---

[1] المصدر السابق : ج٩ ، ص٣٦٩ .
[2] المصدر السابق نفسه : ج٩ ، ص٤٢ .
[3] المصدر السابق نفسه : ج٩ ، ص١٨٠ .

على أن المتتبع لكتابات القلقشندي يجد أن الخيال عنده قريب المدى ، فما هي إلا تشبيهات يجريها بين محتويات ومعنويات خاضها قبله الكتاب والشعراء . ولعل طبيعة عمل القلقشندي في ديوان الإنشاء والكتابات الرسمية التي لا تحتاج ولا تحتمل الامعان في الخيال ، جعل صورة قريبة المنال ، كما أن الخيال مادة الشعر أكثر من النثر ، والمطلع يعلم أن القلقشندي لم يمتلك موهبة وقريحة شعرية ، وما كتبه من الشعر لم يتجاوز النظم لضعف الخيال وقرب الصورة فيه.

الخاتمة

الخاتمة :

منذ أن تولى المماليك الحكم في مصر وجدوا أنفسهم في مواجهة خطرين ، يهددان كيان الأمة الإسلامية ، وهما الخطر المغولي في الشرق ؛ والذي قضى على الخلافة الإسلامية في بغداد ، والخطر الصليبي الذي زرع جذوره في بلاد الشام وحاول اقتحام مصر .

وقد خاض المماليك عدة معارك مع المغول في بلاد الشام وكان أهمها معركة عين جالوت (٦٥٨هـ) والتي انتصر فيها السلطان قطز ، وأخرى في العراق بقيادة الظاهر بيبرس ، وكان من نتائج هذه المعتركات أن ارتأى الظاهر بيبرس نقل الخلافة العباسية إلى القاهرة .

أما على صعيد الجبهة الثانية مع الصليبيين ، فقد أحرز المماليك عدة انتصارات ، كان أهمها اقتحام حصن عكا ، وإعادتها للحضيرة الإسلامية على يد الأشرف خليل قلاوون (٦٩٠ هـ) .

وثمة خطر ثالث كان ينخر في عظم الأمة ، وهو الخلافات والاضطرابات المستمرة داخل الحكم المملوكي ، فلا يتسلط سلطان إلا على أنقاض سلطان سابق يكون مصيره العزل أو القتل .

في ظل هذه الظروف تنبه أبطال القلم ، لما يحيط بفكر الأمة من خطر يهدد بضياعه واندثاره ، فبادروا إلى حفظه في موسوعات أدبية ، شملت شتى

مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والتاريخية والجغرافية ، وقد امتـــازت هــذه الموسوعات بدقة التنظيم وشيء من المنهجية العلمية .

وقد ساعد على انجاح هذا العمل عدة عوامل : كرعاية السلاطين للعلماء ، وانتشار المدارس والمساجد ، مما أدى إلى وفود العلماء والأدباء مـــن المشـــرق الإسلامي ومغربه ، طلباً للأمن والاستقرار النسبي في مصر ؛ إذ كانت أكثر أمناً من الشرق الذي دمره المغول ، والغرب الإسلامي الذي تـــوزع إلـــى دويـــلات متناثرة .

على أن عاملاً آخر كان له أكبر الأثر ساهم في ظهور هذه الأعمال الأدبية ؛ وهو ديوان الإنشاء ، الذي بلغ أوج ازدهاره في هذه الفترة ، حيث كان يمثـــل أرشيفاً لكثير من المواد التي يحتاجها الكاتب ، ولما كان أبو العباس أحمد بن عبـد الله القلقشندي ، أحد كتاب الإنشاء فيه فقد أفاد منه إفادة جلية فيمـــا كتـــب مـــن مؤلفات ، كما أن عمله في هذا الديوان جعله على مقربة من الأمراء والسلاطين ، الذين لم يألوا جهداً في تشجيعه على التأليف في مختلف أضرب الفنون ، فظـــهر له العديد من المؤلفات في التاريخ والأنساب والسياســـة ، وكـــان علـــى رأســـها موسوعته الأدبية التاريخية الجغرافية السياسية ؛ " صبح الأعشى في كتابة الإنشا" وفي هذه الموسوعة أفاد كثيراً ممن سبقه ، كعلي بن خلف في كتابه " مواد البيـان " ، وابن الأثير في كتابه " المثل السائر " ، وشهاب الدين الحلبي في كتابه " حسن التوسل إلى صناعة الترسل " ، وكذلك من الحريري في مقاماته ، كمـــا ويبـــدو تأثره واضحاً بـــعبد الحميد الكاتب في رسالته للكتاب ، وقد تباين منهجـــه فـــي

تعامله مع مصادره ، فحيناً يشير إلى المصدر ومؤلفه وحيناً يشير إلى المصـــدر وحده ، أو المؤلف وأحياناً لا تجد إشارة لمصدره .

كما أن عمله في ديوان الإنشاء ؛ جعله مشاركاً فيما يستجد من أحـــداث ، والتي تستلزم الكتابة فيها ، فكانت الرسائل الرسمية والتـــي كتـــب فـــي معظـــم أصنافها.

ولما كانت صداقاته متنوعة مع مرؤوسيه ورؤسائه وأصدقائه ، فقد كتـــب الرسائل الإخوانية المختلفة نثراً ونظماً وإن كان ميالاً للنثر .

وكتب القلقشندي في غـــير هـــذه المواضيـــع كالمقامـــة و المفـــاخرات و المناظرات وإجازات عراضة الكتب و تقريض القصائد .

ولعل ما يفسر هذا العطاء الكبير ، تلك النشأة العلمية التي نشأها القلقشندي ، حيث بدأ حياته العلمية في بلدة قلقشندةثم ارتحل إلى الإسكندرية ، حيث واصـــل تعليمه واختلط بالعلماء والفقهاء ، فأجازه الشيخ سراج الدين أبو حفص عمر بـــن أبي الحسن " ابن الملقن " بالتدريس ، ثم أنه مارس الأعمال المختلفـــة ، والتـــي ساعدت على سعة اطلاعه في شؤون الدولة ، والإفادة من التجارب في الحيـــاة ، ثم عمله في ديوان الإنشاء منذ عام ٧٩١ هـ وحتى عام ٨١٦ هـ علـــى أقـــل تقدير . ومن الناحية الفنية يكاد القلقشندي لا يخرج عن أدباء عصره ؛ من حيـــث الاهتمام بالفنون البديعية فدبّج رسائله الرســـمية والإخوانيـــة ، وكذلـــك العلميـــة والمقامية ، بمختلف أضرب البديع من جناس وطباق وتورية وعكـــس ، ولاحـــظ الباحث كثرة ورود التناص في كتابات القلقشندي ، كالتناص الديني مـــع القـــرآن

الكريم بمختلف صوره ؛ الاستشهاد والتضمين والتلميح ، وكذلك مع الحديث الشريف ، والتناص الأدبي ، موظفاً الأشعار وقد أحسن توظيفها فجاء بها استشهاداً وتضميناً ، وكذلك مع الأمثال التي أدرجها في سياق كتاباته بشكل متجانس مع مضمون النص وصياغته ، كما عمد إلى التناص التاريخي فوظف الحوادث التاريخية وأسماء الأعلام لتدل بدلالات أراد الإفادة منها في مضامين رسائله .

وكانت لغة القلقشندي سهلة الفهم بعيدة عن الغريب ، وهي في الوقت ذاته ترتفع عن الابتذال لتجاري المضامين التي تحملها ، فهي جزلة قوية في رسائل البيعات والعهود ، حيث تحمل المعاني الشديدة ، وهي رقيقة في الإخوانيات ، وهذا الازدواج في اللغة يظهر أيضاً حيث لا تكاد تخلو رسالة من رسائله الديوانية أو الإخوانية من السجع ، مع توافق حروف الروي في سجعتين أو ثلاث سجعات وأحياناً أكثر من ذلك ، في حين يظهر الأسلوب المطلق في كتاباته النقدية والتاريخية ، وقد جاء خياله قريباً ؛ ولعل ذلك ما جعل شعره نظماً لا يحتمل التأويل وتعدد الأبعاد . والصورة عنده بسيطة ، اعتمد فيها على التراث الديني والأدبي ، ويميل القلقشندي في تصويره إلى التشخيص وإضفاء الحياة على الجمادات والكائنات الحية غير البشرية .

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع :

ـ **القرآن الكريم .**

ـ **إبراهيم ، عبد الله إبراهيم .**

📖 السردية العربية بحث في السردية للموروث الحكائي ، مركز الثقافة العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٢ .

ـ **ابن الأثير ، ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير(٦٣٧ هـ ـ ١٢٣٩ م)**

📖المثل السائر في أدب الكتاب والشاعر ، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة ، طباعة دار النهضة ، مصر القاهرة ، ط ١٩٥٩ .

ـ **أمين ، فوزي محمد أمين .**

📖 أدب العصر المملوكي الأول قضايا المجتمع والفن ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٣ .

ـ **أمين ، محمد محمد أمين .**

📖الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ، دار النهضة العربية القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٠ .

ـ **ابن إياس ، محمد بن أحمد (٩٣٠ هـ - ١٥٢٣ م) .**

📖بدائع الزهور في وقائع الدهور : تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ط ٢ ، ١٩٩٢ .

_ **باشا ، عمر موسى .**

🕮أدب الدول المتتابعة ، دار الفكر الحديث ، ط ١ ، ١٩٦٧ .

🕮 تاريخ الأدب العربي (العصر المملوكي) ، دار الفكر المعاصر ، بيروت لبنان ، دار الفكر ، دمشق سوريا ، ط ١ ، ١٩٨٩ .

_ **البخاري . محمد بن اسماعيل (٢٥٦ هـ - ٨٦٩ م) .**

🕮 صحيح البخاري ، دار الكتب العلمية ، بيروت

_ **بروكلمان ، كارل بروكلمان .**

🕮 تاريخ الأدب العربي ، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار ، دار المعارف القاهرة ، ط ٥ ، ١٩٨٣.

_ **بشار بن برد، (١٦٨ هـ - ٧٦٨م) .**

🕮 الديوان جمعه وشرحه وعلق عليه محمد عاشور ، الشركة التونسية والشركة الجزائرية للنشر والتوزيع ١٩٧٦ .

_ **البغدادي ، اسماعيل بن محمد البغدادي (١٣٣٩ هـ - ١٩٢٠ م) .**

🕮 هدية العارفين وآثار المصنفين من كشف الظنون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٩٩٢ .

_ **ابن بطوطة ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي (٧٧٩ هـ - ١٣٧٧ م) .**

🕮 تحفة الأنظار في عجائب الأمصار وغرائب الأسفار ، المعروف بـ:

رحلة ابن بطوطة : تحقيق عبد الهادي التازي ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، سلسلة التراث ١٩٩٧ .

_ **البهاء زهير بن محمد (٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م) .**

📖الديوان : شرح وتحقيق الجبلاوي ومحمد أبو الفضل ، دار المعارف القاهرة ط ١ ، ١٩٨٢ .

_ **البوصيري ، شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيري ت(٦٦٩ هـ)**

📖 الديوان : تحقيق محمد سيد كيلاني ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، ط٢ ، ١٩٧٣ .

_ **ابن تغري بردي ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (٤٧٨ هـ - ١٤٦٩ م)**

📖 المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، تحقيق محمد أحمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤ .

📖 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، وزارة الثقافة ، القاهرة ١٩٧٢ م

_ **أبو تمام : حبيب بن أوس الطائي (٢٣١ هـ - ٨٤٥ م) .**

📖 الديوان ، شرح الخطيب التبريزي ، قدم له ووضع هوامشه راجي الأسمر ، دار الكتاب العربي _ بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٢ .

_ **الثعالبي ، عبد الملك بن محمد (٤٢٩ هـ - ١٠٣٧ م) .**

📖خاص الخاص ، شرحه وعلق عليه مأمون بن تقي الدين ، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٤ .

_ **الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥ هـ - ٨٦٨ م) .**

📖البيان والتبيين : تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل بيروت ١٩٩٠ .

_ الجويني ، مصطفى الصاوي .

🕮ملامح الشخصية المصرية في الدراسات البيانية ، في القرن السابع الـهجري ، الهيئة المصرية العامة ، القاهرة ١٩٧٠ م .

_ حافظ ، صبري .

🕮 أفق الخطاب النقدي ، دار شرقيات للتوزيع والنشر ، باب لـوق القاهـرة ، ط ١ ، ١٩٩٦ .

_ ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أحمد بن علـي (٨٥٢ هـ - ١٤٤٨ م) .

🕮 إنباء الغمر بأنباء العمر في التاريخ ، دار الباز ، مكة المكرمة ، دار الكتب العلمية بيروت _ لبنان ط ٢ ، ١٩٨٦ .

🕮المجمع المؤسس للمعجم المفهرس،تحقيق محمد شكور ، مؤسسـة الرسـالة بيـروت ، ط ١ ، ١٩٩٦ .

_ ابن حجة ، تقي الدين أبو بكر المشهور بابن حجة الحموي (٨٣٧ هـ _ ١٤٣٣م) .

🕮خزانة الأدب وغاية الأرب ، المطبعة الخيرية بالقاهرة ، ط ١(١٣٠٤ هـ)

_ الحجي ، حياة ناصر الحجي .

🕮 أحوال العامة في حكم الممالك ، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيـع ، الكويت ، ط ١ ، ١٩٨٤ .

_ حسن ، علي إبراهيم .

🕮 تاريخ المماليك البحرية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، بلا طبعـة ، بلا تاريخ .

_ الحلبي ، شهاب الدين محمود الحلبي (٧٢٥ هـ - ١٣٢٤ م) .
📖حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف ، وزارة الثقافة والإعلام بغداد ١٩٨٠ .

_ حمزة ، عبد اللطيف .
📖القلقشندي في كتابه صبح الأعشى عرض وتحليل ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر ، ط ١ ، ١٩٦١ .

_ الحنبلي ، عبد الحي بن العماد (١٠٨٩ - ١٦٧٨ م) .
📖 شذرات الذهب في أخبار من الذهب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، بلا تاريخ .

_ الخفاجي ، محمد عبد المنعم .
📖 الحياة الأدبية بعد سقوط بغداد حتى العصر الحديث ، دار الجيل بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٠ .

_ خلف ، علي بن خلف الكاتب .
📖مواد البيان ، تحقيق حسين عبداللطيف ، منشورات جامعة الفاتح ، طرابلس ، ١٩٨٢ .

_ الخنساء ، تماضر بنت عمرو بن الحارث (٧٠٤ هـ - ٦٤٤ م) .
📖 الديوان،تحقيق أنور أبو سويلم ، دار عمار الأردن ، ط ١ ، ١٩٨٨ .

_ الدروبي ، محمد محمود .
📖الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، عمان ، ط ١ ، ١٩٩٩ .

_ ابن أبي ربيعة ، عمر (٩٣ هـ - ٧١٢ م) .

🕮الديوان ، دار القلم ، بيروت لبنان .

_ رشيد ، ناظم .

🕮في أدب العصور المتأخرة ، مكتبة بسام الموصل العراق ، ١٩٨٥ .

_ الرّماني ، أبو الحسن بن عيسى الرماني (٢٩٦ هـ - ٩٠٥ م) .

🕮 النكت في إعجاز القرآن الكريم ، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر ، ط ٣ ، ١٩٧٦ .

_ ابن الرومي ، أبو الحسن علي بن العباس (٢٨٣ هـ - ٨٩٦ م) .

🕮 الديوان : تحقيق حسين نصار ، مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٧٦ .

_ الزركلي ، خير الدين .

🕮 الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ، ط ٨ ، ١٩٨٩.

_ الزعبي ، أحمد .

🕮 التناص نظرياً وتطبيقياً مكتبة الكتاني اربد ط ١ ١٩٩٠ .

_ زيدان ، جرجي .

🕮 تاريخ آداب اللغة العربية ، دار مكتبة الحياة ، بيروت _ لبنان ١٩٨٣ .

_ السخاوي ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (٩٠٢ هـ ١٤٩٤ م) .

🕮 الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت.

🕮 الذيل على رفع الأصر ، تحقيق عودة هلال ، محمد محمد صبح ، الدار المصرية للتأليف والنشر ، بلا تاريخ .

_ سرور ، محمد جمال الدين .

🕮دولة الظاهر بيبرس في مصر ، دار الفكر العربي ، بلا تاريخ ، بلا طبعة .

_ السكاكي ، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي (٦٣٦ هـــــ - ١٢٣٦م) .

🕮 كتاب مفتاح العلوم ، المطبعة اليمنية لصاحبها مصطفى البابي الحلبـــي ، مصر .

_ سلام ، محمد زغلول .

🕮الأدب في العصر المملوكي ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥ .

_ سليم ، محمود رزق .

🕮 عصر السلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، مكتبة الآداب بالجمــاميز ، المطبعة النموذجية ، بلا تاريخ .

_ السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٩١١ هـــ ١٥٠٥ م) .

🕮 حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، تحقيق محمـــد أبـــي الفضــل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، ط ١ ، ١٩٦٨ .

🕮 تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيـــم ، دار النهضـــة مصــر القاهرة ١٩٧٦ .

🕮شرح مقامات جلال الدين السيوطي ، تحقيق وشرح سمير الدروبي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٩ .

_ ابن شاكر ، محمد بن شاكر الكتبي (٧٦٤ هـــ - ١٣٦٢ م) .

🕮 فوات الوفيات والذيل عليها ، تحقيق إحسان عباس ، دار صــــادر بــيروت ١٩٧٣ .

_ أبو شامة المقدسي ، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل (٦٦٥ هـ - ١٢٦٦ م) .

- الذيل على الروضتين : عني بنشره محمد الكوثري ، دار الجيل بيروت ط ٢ ، ١٩٧٢ .

_ الشكعة ، مصطفى .

- الأصول الأدبية في صبح الأعشى ، دار الأحد البحري ، أفوان ، بيروت ، بلا تاريخ .

_ الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك (٧٢٣ هـ - ١٣٢٣ م) .

- مقامة رشف الرحيق في وصف الحريق ، دراسة وتحقيق وشرح سمير الدروبي ، مجلة البلقاء للبحوث والدراسات ، المجلد ٣ ، العدد ١ ، نيسان ١٩٩٥ .

- جنان الجناس ، تحقيق سمير حسين حلبي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٧ .

- فض الختام عن التورية والاستخدام ، دراسة وتحقيق عبد العزيز حناوي ، دار الطباعة المحمدية الأزهر .

_ الصولي ، أبو بكر محمد بن يحيى (٣٣٦ هـ - ٩٤٥ م) .

- أدب الكتاب نسخه وعني بتصحيحه وتعليق حواشيه محمد بهجت الأثري ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، بلا تاريخ .

_ الصيرفي ، علي بن داود الخطيب (٩٠٠ هـ - ١٤٩٠ م) .

- نزهة النفوس والأبدان في تاريخ الزمان ، تحقيق حسين الحبشي ، مطبعة دار الكتب ١٩٧١ .

_ **ضيف ، شوقي .**

📖عصر الدول والإمارات (مصر والشام) ، دار المعارف القاهرة ، مصـــــر ١٩٨٤ .

_ **ابن طقاطقا ، محمد بن علي طباطبا (٧٠٩ هـ - ١٣٠٩ م) .**

📖 الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلاميــة ، دار صادر بيروت ١٩٦٦ م .

_ **ظومط ، انطون خليل .**

📖 الدولة المملوكية ، دار الحداثة ، ط ١ ، ١٩٨٢ .

_ **عاشور ، سعيد .**

📖 المجتمع المصري في عصر السلاطين المماليك ، دار النهضة العربيــة ، ط ١ ، ١٩٦٢ .

📖 العصر المماليكي في مصر والشام ، دار النهضة العربيــ ة ، القاهـــرة ، ط ٢ ، ١٩٧٦ .

_ **العبادي ، أحمد مختار .**

📖 في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، دار النهضة العربيـــة للطباعـــة والنشـــر ، بيروت ١٩٩٥ .

_ **العباسي ، أحمد عبد الرحيم العباسي (٩٦٣ هـ - ١٥٥٥ م) .**

📖 معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، تحقيق محمد محي الدين ، عـــالم الكتب ، بيروت ، بلا طبعة ، ١٩٤٧ .

ـ عتيق ، عبد العزيز .

🕮 علم البديع ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٥ .

ـ العريني ، السيد الباز .

🕮 المماليك ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، بلا طبعة ، بلا تاريخ .

ـ العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبد الله (٣٩٥ هـ - ١٠٠٤ م).

🕮 الصناعتين : الكتابة والشعر ، حققه مفيد قميحة ، دار الباز للطباعة والنشر المكتبة العلمية ، بيروت لبنان ، ط ١ ، ١٩٨١ .

🕮 جمهرة الأمثال ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطاش ، المؤسسة العربية الحديثة القاهرة ، ط ١ ، ١٩٦٤ .

ـ عصفور ، جابر .

🕮الصورة الفنية في التراث الفني عند العرب ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٩٢ .

ـ علي ، محمد كمال الدين عز الدين .

🕮 الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة ، دراسة عن التاريخ والمؤرخين ـ رسالة دكتوراه جامعة .

ـ العمري ، أحمد بن يحيى (٧٤٩ هـ - ١٣٤٩) .

🕮التعريف بالمصطلح الشريف ، تحقيق ودراسة سمير الدروبي ، منشورات جامعة مؤتة ، ط ١ ، ١٩٩٢ م .

ـ العيني ، بدر الدين محمود (٨٢٥ هـ - ١٤٥١ م) .

🕮عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، تحقيق وتقديم عبد الرزاق الطنطاوي القرموط ، مطبعة علاء ٣ حزيران بدران ، القاهرة ١٩٨٥ .

_ الفرزدق ، همام بن غالب.

📖الديوان ، شرحه وضبطه علي فاعور ، دار الكتب العلمية _ بـــيروت ، ط ١ ، ١٩٨٧ .

_ الفقي ، محمد كامل .

📖الأدب في العصر المملوكي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ .

_ أبو القاسم ، **الحسن بن بشر بن يحيى الآمدي (٣٧٠ هــ - ٩٧٩ م) .**

📖 المؤتلف والمختلف ، تحقيق عبد الستار أحمد الفراج مطبعة عيسى البـــابي الحلبي بمصر ط١ ، ١٩٦١ .

_ القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد (٦٧١ هــ - ١٢٧٢ م) .

📖 تفسير القرطبي، تحقيق أحمد عبد الحليم البردوني ، دار الشعب القاهـــرة ، ط ٢ ، ١٣٧٢ هــ ، ١٩ .

_ القزويني ، جلال الدين أبو عبد الله بن سعد الديـــن الخطيـــب القزوينـــي. (٧٣٩ هــ _ ١٣٤٠م) .

📖 الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع ، دار الجيـــل ، بـــيروت لبنان ، بلا تاريخ.

_ القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي (٨٢١ هــ - ١٤١٨ م) .

📖 صبح الأعشى في صناعة الإنشاء : مصورة المؤسســة المصريـــة العامـــة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر عن المطبعة الأميرية ، ١٩٦٣ .

📖مآثر الأناقة في معالم الخلافة ، تحقيق عبد الستار فــــراج مصـــورة ، ط ٢ مطبعة حكومة الكويت .

📖نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار الكتـب العلمية ، بيروت لبنان ، ط ١ ، ١٩٨٧ .

_ القيسي ، فايز عبد النبي .

📖أدب الرسائل في الأندلس ، دار البشير للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٩٨٩ .

_ الكلاعي الأندلسي ، أبو القاسم محمد بن عبد الغفـور (من أعلام القـرن السادس) .

📖 أحكام صنعة الكلام ، تحقيق محمد رضوان الداية ، دار الثقافـة ، بـيروت لبنان بلا تاريخ .

_ الكندي ، محمد بن يوسف (٣٥٠ هـ - ٩٥٩ م) .

📖 كتاب الولاة والقضاة ، نشره رفن كسـت مطبعـة الآبـاء اليسـوعيين ، بيروت ١٩٠٨ م

_ محمد ، علي بن محمد .

📖النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس ، دار المغرب الإسلامي ، بـيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٩٠ .

_ مرزوق ، محمد عبد العزيز .

📖 الناصر محمد قلاوون ، المؤسسة المصرية العامة ، ط ١ ، ١٩٦٤ .

_ مسلم ، الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج (٢٦١هـ - ٨٦٩ م) .

📖صحيح مسلم ، بشرح النووي ، دار أحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنـان ، بلا تاريخ .

_ مصطفى ، إبراهيم مصطفى وآخرون .

📖المعجم الوسيط : دار العودة ، استانبول _ تركيا ، جمهورية مصر العربيـة مجمع اللغة العربية .

_ **مفتاح ، محمد .**
📖تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط ١ ، ١٩٨٥ .

_ **المقريزي ، أحمد بن علي (٨٤٦ هـ - ١٤٤٢ م) .**
📖 درر العقود المفيدة في تراجم الأعيان الفريدة ، تحقيق عدنان درويش ، محمد المصري ، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية السورية ، مكتبة الأسد ، دمشق ، ١٩٩٥ .
📖 المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بـ (الخطط المقريزية) دار صادر بيروت .
📖السلوك لمعرفة دول الملوك ، تصحيح محمد مصطفى لجنة التأليف والنشر والترجمة ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٥٦ .
📖إغاثة الأمة بكشف الغمة ، دار الهلال ، ١٩٩٠ .

_ **الملطي ، عبد الباسط خليل بن شاهين (٩٢٠ هـ - ١٥١٠ م) .**
📖 نزهة الأساطين فيما ولي مصر من السلاطين ، تحقيق محمد كمال الدين، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٧ .

_ **ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم المصري (٧١١ هـ - ١٣١١ م) .**
📖لسان العرب : دار صادر بيروت _ لبنان .

_ **الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني (٥١٨ هـ - ١١٢٤ م) .**
📖 مجمع الأمثال ، حققه وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٥ .

_ **نخبة من الأساتذة تقديم أحمد عزت .**

🕮 أبو العباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٣ .

_ **النووي ، أبو زكريا يحيى بن شرف الدين (٦٧٦ هـ) .**

🕮 الأذكار المنتخبة من كلام سيد البررة ، دار الفكر ، بيروت لبنان ، ط ٦ ، ١٩٨٦ .

_ **ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل الحموي (٦٩٧ هـ - ١٢٩٧ م) .**

🕮 مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال ، المطبعة الأميرية القاهرة ١٩٥٧ .

_ **ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله (٦٢٦ هـ - ١٢٢٩ م) .**

🕮معجم الأدباء ، تحقيق : إحسان عباس ، ط ١ ، دار المغرب الإسلامي بيروت ، ١٩٩٣ م .

🕮 معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٧ م .

Abstract

Abu AL Abbas Al-Qalqashandi: A Literalist
(756-821 Hejri, 1353-1418Gregarian)

Abu Al-Abbas Al-Qalqashandi is considered as one of the prominent writers of his time. He had grown as a student and accompanied the Ulamas (Literalists), so he had gotten several permissions for Fatwa (Legal decision), teaching and narration. He had worked as a writer at the script Divan (office) of Mamelukes for more than twenty five years. He has several writings such as "Ŝubhul Al a'asha Fi Sina'at Al-insha'", which were considered as a reference for the successive writers because it included what the writers needed. It also reflects his influence by several preceding writers such as Al-Qadi Al-Fadil; Ŝalah al-Din Al-Ŝafadi; Shihab Al-Din Al-Halabi; Abdul Hameed Al-Katib and Ali Bin Khalaf Al-Katib.

The creative writings of Al-Qalashandi had covered different aspects of social, political and cultural life. These writings can be classified as following:

1- Divani letters (official scripts).
2- The Ikhwani letters (intimate letters).
3- Ilm letters (methodical papers).
4- Maqamat.

Technically, his writings were characterized by the following:

1- He was influenced by the Holy Qura'n and Hadith through quoting He also was influenced by the literary and historical heritage of Islamic nations by exploiting the historical events and names of prominent figures.
2- He had used the Badee' techniques (Rhetoric), such as Saja' (rhyme , Jinas (Paronomasia), Tibaq (Antithesis), Tawriah (pun) and vice versa.

3- His vocabulary was easy to understand, for being simple and rich with meaning. The vocabulary was strong in the Bay'at and Ohood (swear for loyalty); soft in the intimate letters to his friends, rhymed in creative writings, and free in historical and critical writings.
4- Imagination had been explicit; the literature image was simple and inspired by religious and literatry heritage.